حصار وسقوط الخرطوم

يناير ١٨٨٤ - ١٨٨٥

ميمونه ميرغني حمزه

بحث قدم لنيل درجة الماجستير

شعبة التاريخ

جامعة الخرطوم

سبتمبر ١٩٧٠

المحتويات

وحـدة التحـليل

هذه دراسة للحقبة التاريخية ، التي شهدت آخر مراحل المواجهـة بين الحكومة المصرية في الخرطوم ، والانصار في الفترة ما بين مـارس ١٨٨٤ الى يناير ١٨٨٥ . وهي فـترة حاسمة في تاريخ السودان السياسي ، اذ انها شهدت نهاية حكم دام قرابة الخمسة وستين عاما لم تفلح كل امكانياته الحديثة ـ التي كان له فضل ادخالها للبلاد ـ من تأمين النصـر له .

تتكون الرسالة من سبعة فصول وخاتمة .

يشتمل الفصل الاول على تقييم للمصادر الاساسية التي عالجت تلك الفترة من تاريخ المهدية . ويتضمن الفصل الثاني نبذة مختصرة عن تـاريخ مدينة الخرطوم بوصفها موطن الصراع . بالاضافة الى خلفية تحدد ـ في خطوط عريضة ـ مسيرة المهدي من ابا الى ان وقف على اعتاب الخرطوم .

اما فكرة البحث ، فهي ان سقوط الخرطوم في اعقاب انتصـارات المهدي ، وسيطرته التامة على رقعة كبيرة من البلاد كان حتميا ، اذ ان الهدف المرحلي بعد معركة شيكان اصبح الاستيلاء على الخـرطـوم بوصفها معقل السلطة الحكومية الرئيسي ، وسيعني الفوز بها اكتمـال سيطرة الانصار على السودان برمته . فشرع المهدي من توه في اتخـاذ التدابير التي تؤمن له تلك السيطرة . ومن ناحية اخرى قام رجـال حكومتي مصر وبريطانيا باسداء خدمة للمهدي من حيث لا يدرون وذلك بانشغالهم بالمجادلة والمناقشة حول ماذا هم فاعلون بالسودان ؟ ولم يكن عامل الزمن ، بالتأكيد ، في مصلحتهم ، وحتى عندما تقرر ارسال قـوة الى السودان فقد تضاربت الاراء حول مهمته وكيفية تنفيذها ، الامـر الـذى كان له ابعد الاثر في بقائه حبيسا داخل تلك الخنادق زهاء العشـرة اشهر (الفصل الثالث) .

تمكن الانصار ، بعد معارك امتدت على مدى عامين ، من تحـديد

استراتيجية عسكرية خاصة بهم املتها عليهم ، بدرجة كبيرة ، طبيعتهم كمحاربين غير مدربين على فنون القتال وغير مسلحين باسلحة حديثة بمقاييس تلك الازمان). برهنت هذه الاستراتيجية — استراتيجية الحصار — على فعاليتها في عدة معارك ولم يكن هناك بد من تطبيقها في الخرطوم . وما ان وجد غوردون نفسه في موقف المواجهة مع المهدي حتى حاول كسب القضية سلميا وذلك بتطبيق خطة اصلاحية قد تغري الاهالي بالعودة الى طاعة الحكومة وتحفظ لها في ذات الوقت قواعدها التي لم تزل في ولائها لها). الا ان هذه المحاولة باءت بالفشل ولم تفلح في احداث اي تغيير جذري بين صفوف الاهالي في مصلحة الحكومة (الفصل الرابع) . فتزايدت جموع الانصار حول الخرطوم مما ادى الى نشوب جملة مشاكل (حظي غوردون بالكثير منها وهذا بالطبع ينسجم تماما مع طبيعة موقف مدينة محاصرة). فلعبت هذه المشاكل دورا اساسيا في ترجيح كفة الانصار فمال ميزان القوى بشكل قاطع لصالحهم (الفصل الخامس) .

ولم تقتصر نواحي الضعف التي عاناها غوردون على ما سبق ذكره بل شملت ايضا اسلوبه الدعائي ومسلكه الشخصي في موقف الاول عائقا امام خلق جبهة وطنية تتمكن من دفع الخطر المهدوي عن الخرطوم وبقية المراكز التي لم تزل تحت سيطرة الحكومة . ثم جاء الثاني ليؤكد حتمية اللجوء للسلاح لايجاد تسوية للقضية (الفصل السادس) . ووصل غوردون عند ذلك لنقطة استحال التراجع منها وكان لا بد ان يخوض مع الطرف الاخر معركة مسلحة . الا ان ضعف امكاناته البشرية والمادية حال بصورة مباشرة دون تحقيق الانتصار النهائي له ، في حين تفوق الانصار على جنوده بايمانهم المطلق بالقضية التي من اجلها يحاربون فابدوا استعدادهم دوما للتضحية بارواحهم في سبيلها . كما تفوقوا عليهم باعدادهم الهائلة وبتمتعهم بموقف المهاجمين طوال مدة الحصار (الفصل السابع) .

وتتضمن الخاتمة نتائج سقوط الخرطوم .

كلمة شكر وتقدير

الان وقد فرغت من كتابة هذا البحث أجد من واجبي ان اتقدم بكلمة شكر وعرفان بالجميل لكل الذين قدموا لي العون الصادق والمساعدة المقدرة • واخص بالشكر من هؤلاء السيد الدكتور يوسف فضل حسن أستاذ التاريخ بكلية الاداب ومدير شعبة ابحاث السودان بجامعة الخرطوم لتكرمه بالاشراف عليه • فكانت توجيهاته ومقترحاته القيمة خير عون لي في ابراز هذا البحث بالصورة التي هو عليها الان •

وبالشكر والامتنان اتقدم ايضا الى البروفسير مكي شبيكة الذى ساعد تني مقترحاته في انجاز اجزاء من هذا البحث كما مكنتني ارشاداته من الحصول والاطلاع على بعض الوثائق التي تعالج الفترة قيد الدراسة •

واتقدم بشكرى أيضا الى المستر رتشل الذى لم يدخر وسعا اثناء وجوده في مدرسة الدراسات الشرقية بجامعة درهام لمعاونتي في الاطلاع على كل الوثائق المحفوظة لديه •

وبكثير من التقدير اتوجه الى البروفسير احسان عباس الاستاذ بالجامعة الاميركية ببيروت الذى تفضل مشكورا ، رغم كل مشاغله ، فقام بمراجعة هذا البحث فصحح وقوم ما اعوج من قواعد اللغة •

لهؤلاء العلماء الاجلاء ولكل من قدم لي مساعدة مكنتني من اعداد هذا البحث عظيم شكرى وفائق امتناني •

رمـــوز المصـــادر

الطريقة التي اتبعتها في الهوامش بالنسبة للمصادر كثيرة التكرار هي طريقة المصدر المختصر (Short Reference) • وقد اثبت ادناه المصدر بالكامل مع اختصاره المستعمل •

واختصرت اسم المؤلف ، ليرمز الى المصدر باستثناء حالات ثلاثة :

أ ـ المصادر التي اشتهرت بعنوانيها اكثر من اسماء مؤلفيها ، أشرت الرمز اليها بالاولى كما هو الحال بالنسبة للفيوضات الوهبيـــة لصاحب الخلافة المصلقية •

ب ـ في حالة الاستفادة من اكثر من مصدر واحد لنفس المؤلف اضطررت الى الرمز اليها بعنوانيها كما هو الحال في منشورات المهدى •

ج ـ اثرت عدم تطبيق القاعدة "ب" على مؤلفات محمد نصحي باشا • فقد اشتهر تقرير مجلس الضباط باسمه فرمزت به اليه وأبقيت عنوان تقرير شندى " جورنال الحوادث " كما هو •

ابراهيم البورديني ،

حصار الخرطوم وسقوطه	ابراهيم البورديني

ابراهيم فوزي

السودان بين يدي كتشنر وغوردون	ابراهيم فوزي

احمد العوام

نصيحة العوام للخاص والعام	احمد العوام

اسماعيل بن عبد القادر ،

سعادة المستهدي في سيرة الامام المهدي	اسماعيل بن عبد القادر .

بابكر بدري ،

تاريخ حياتي	بابكر بدري

عبد الرحمن النجومي ،

مخطوط النجومي	النجومي

عوض الكريم علي المسلمي

الفيوضات الوهبية لصاحب الخلافة المصطفية محمد المهدي المنتظر	فيوضات

محمد احمد المهدي ،

- منشورات الامام المهدي الجزء الاول	منشورات ج ١
- منشورات الامام المهدي الجزء الثاني	انذارات ج
- الاحكام والاداب	احكام

محمد خالد زقل ،

مخطوط محمد خالد زقل	زقل

محمد عبد الرحيم ،

النداء في دفع الافتراء	محمد عبد الرحيم

محمد نصحي باشا ، جورنال الحوادث	جورنال الحوادث
نعوم شقير ، جغرافية وتاريخ السودان	نعوم شقير
يوسف ميخائيل ، تاريخ حياتي	يوسف ميخائيل
Cuzzi, G., 15 Years Prisoner of the False Prophet	Cuzzi
Gordon, C.G., Journals of Gordon At Khartoum	Jeurnals of Gordon
Nushi Pasha, & Native Officers, Life of Gordon Pasha in Khartoum	Nushi Pasha
Ohrawlder, J., Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp 1882 - 1892	Ohrawlder
Slatin, R., Fire and Sword in the Sudan	Slatin
Sudan Notes and Records	SNR
Dictionary of National Biographies	DNB
Bulletin of School of Oriental & African Studies	BSOAS
British Musuem Additional Manuscripts	BM, Add, MS.

الملاحق

عبد القادر ابراهيم الى غوردون ١٨ ذو القعدة ١٣٠١	أ
غوردون الى عبد القادر ابراهيم بلا تاريخ	أ "
عبد القادر ابراهيم الى غوردون ٢٠ ذو القعدة ١٣٠١	ب
غوردون الى عبد القادر ابراهيم ٢٠ ذو القعدة ١٣٠١	ب "
عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون ٢١ ذو القعدة ١٣٠١	ج
غوردون الى عبد الرحمن النجومي ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١	ج "
عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون ٢ ذو الحجة ١٣٠١	د
غوردون الى عبد الرحمن النجومي ٢ ذو الحجة ١٣٠١	د "
عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون (بلا تاريخ)	هـ
المهدي الى غوردون ٢ محرم ١٣٠٢	و
عبد الله محمد جباره الى غوردون	ز
احمد المصطفى الامين الى حكمدار الموصل ١٩ ذو القعدة ١٣٠١	ح

الفصل الاول

تقييم المصادر الاساسية

كانت الخرطوم في حالة حرب في الفترة ما بين مارس ١٨٨٤ الى يناير
١ ولهذا فقد كان لا بد ان تتعرض بعض الوثائق التي تعالج تلك
سواء كان من جانب المحاصرين والمحاصرين الى الضياع غير المتعمد او
المقصود . كان غوردون (C.G. Gordon) يواظب على
تقاريره الى مصر منذ أن وطئت قدماه ارض السودان الا ان الانصار لم
[illegible] قامت مجموعة منهم بنزع اعمدة سلك التلغراف وقطعت
[illegible] (١) استعان بعد ذلك بالجواسيس
[illegible] قد وصلت الى وجهتها

ولا بد ان كثيرا منها قد تعرض للضياع • بالاضافة الى هذا هناك مجموعة من الوثائق لها قيمة تاريخية من الدرجة الاولى، تلك هي الرسائل التي حملها ستيورت (J.D.H. Stewart) معه عند مغادرته الخرطوم في ٩ سبتمبر ١٨٨٤ • وقد شملت هذه مجموعة من الرسائل وجهها غوردون الى الخديوي وبيرنج (E. Baring) (١) عن الحالة في المدينة ويوميات ستيورت التي بدأ في تسجيلها منذ اول ايام وصوله • ومن المرجح ان تكون هذه الوثائق هي ضمن الاوراق التي اخذها جماعة سليمان نعمان ود قمر من الباخرة " العباس " وارسلوها الى بربر حيث تم نقلها الى المهدي وكان في ذلك الحين قد وصل الى مشارف الخرطوم • كانت فكرة المهدي في بادئ الامر هي ارجاع الرسائل بكاملها الى غوردون الا انه عدل عن هذا وكتب اليه رسالة مطولة ضمنها مقتطفات من المكاتبات التي وقعت في يديه بهدف تأكيد الواقعة لغوردون • وجاء في خطاب المهدي اشارة الى رسائل باللغة الانجليزية توضح " كيفية حصار الخرطوم وكيفية صناعة الوابورات ومقدار ما بها من العساكر والاسلحة والمدافع ومن الحركات المصرية وانهزام جماعتكم وطلبكم الاسعاف بالامدادية ولو بفرقة " (٢) ولعل هذه هي مذكرات ستيورت • وسواء

---

(١) بيرنج، أفلين • لورد كرومر الاول (١٨٤١–١٩١٧) 1st Earl of Cromer تخرج عام ١٨٥٥ من مدرسة وولويك الحربية وشغل اول منصب له في جزر ايونيا (Ionian Islands) • بدأ عمله الدبلوماسي في كورفو (Corfu) وفي عام ١٨٧٢ رافق نورث بروك (Northbrook) الى الهند كسكرتير خاص له • وفي عام ١٨٧٧ عين ممثلا لبريطانيا في (Caisse de la Detta) وبعد الاحتلال البريطاني لمصر اوكلت له مهمة انجاز الاصلاح الداخلي في سبتمبر ١٨٨٣ واصبح منذ ذلك الحين المسئول الفعلي عن السياسة المصرية فقام بدور رئيسي في معالجة مشكلة السودان بعد هزيمة هكس باشا في نوفمبر ١٨٨٣ • شغل منصب مندوب بريطانيا في مصر حتى عام ١٩٠٧ •
Cromer, Modern Egypt

(٢) المهدي الى غوردون ٢ محرم ١٣٠٢ ملحق ٩

ان ضاعت تلك الرسائل عند سقوط المدينة ارفيما بعد او ان المهدي قام باعدامها في وقت استلامها خشية من تسربها بوسيلة ما للخارج فهو امر يقع في دائرة التكهنات حتى اللحظة •

هناك ايضا مذكرات مفقودة تخص دكتور نكولا الاغريقي الذي عينه غوردون اثر وصوله للخرطوم مفتشا طبيا لها وبقى هناك حتى سقوط المدينة وربما ضاعت مذكراته تلك فيما بعد •

اما المصادر المعروفة حاليا فهي اساسا تقارير ورسائل الافراد الذين عاصروا تلك الاحداث ويأتي في مقدمة هؤلاء غوردون والمهدي • فمن ناحية المعاصرين هناك التقارير الرسمية وشبه الرسمية التي بعث بها كل من غوردون وستيورت الى بيرنج قبل انقطاع خط التلغراف • بالاضافة الى رسائل ف • بور (F. Power) التي نشرتها صحيفة " التايمز " اللندنية • ورغم ان هذه تعتبر مصدرا اساسيا في كشف وجهة النظر الرسمية الا انها تشمل فترة اقل من شهرين وهي الفترة التي لم يكن الحصار قد بوشر خلالها بصورة فعلية •

اما بالنسبة للحقبة التي اعقبت انقطاع الخط التلغرافي فمصادرنا هي معلومات مستقاة من التقارير التي كتبها الاشخاص الذين عاشوا في المدينة اثناء الحصار • وتختلف هذه التقارير عن بعضها البعض في عدة نواحي من حيث الحجم والزمن الذي سجلت فيه ومكانة الكاتب ودوره في الاحداث ، ففي حين جاءت يوميات غوردون مثلا في مجلد من ستة اجزاء اقتصرت بعض افادات الجنود والمدنيين على بضعة اسطر •

ورغم ان هذه المجموعة الاخيرة تحوى معلومات ذات قيمة تاريخية الا انها تعاني من عدة نقائص ، فهي شديدة الاختصار جاء معظمها ردا على استفسار معين او حادثة محددة بالاضافة الى انها بلا استثناء قد كتبت من الذاكرة فقط بعد سنوات من الحصار •

وسأحاول في الصفحات التالية القاء مزيد من الضوء على تلك التقارير وبعض المصادر الاخرى التي عالجت الفترة قيد البحث •

١ ـ يوميات غوردون :

بدأ غوردون في تسجيلها في ١٠ سبتمبر ١٨٨٤ ـ اى بعد مغادرة ستيورت مباشرة ـ وانتهى منها في ١٤ ديسمبر من نفس العام ٠

تتكون هذه من ستة اجزاء متفاوتة الاحجام ٠ يقع الجزء الاول في ١١٥ صفحة ويشمل الفترة ما بين ١٠ سبتمبر الى ٢٢ منه ٠ استعمل غوردون ورق الحسابات العادى ويبدو انه قد اخذه من مكتبه ٠ جاء في اول صفحة ما يلي : " حاشية : هذه اليوميات سوف تحتاج الى تمحيص اذا رؤى نشرها ١٠/٩/١٨٨٤ " ثم الصق ورقة صغيرة كتب عليها " الاجزاء الرسمية هي تلك التي لم يوضع خط بمنتصفها " ٠

يقع الجزء الثاني في ٤٨ صفحة ، ويبدأ من ١٣ سبتمبر الى ٢٠ منه استعمل غوردون نفس النوع من الورق الذى استعمله في الجزء الاول ، ويلاحظ ان اغلب صفحات هذا الجزء قد حملت خطاً في منتصفها اشارة الى انها ليست للاستعمال الرسمي ٠ (وهي الفترات التي كان يهاجم فيها بعنف رجال الحكومة البريطانية) اما الصفحات ١١ ـ ١٢ فهي مقتطفات من كتاب لهيرودوتس ، صفحة ٢١ رفعت من المجموعة والصق في صفحة ٥٣ قصاصة من صحيفة يقرأ فيها اعلان الكتابين لبيرنج

ويقع الجزء الثالث في ٨٤ صفحة كتبت على ورق شفاف ٠ وهو يتناول الفترة ما بين اول اكتوبر الى ١١ منه يقع الجزء الرابع في ٦٥ صفحة وقد بدأ في ١٢ اكتوبر وانتهى في ٢٠ منه ٠ استعمل غوردون مرة اخرى ورق الحسابات ما عدا الصفحات الخمس الاخيرة فكتبها في ورق شفاف ٠

يقع الجزء الخامس في ٨٢ صفحة ، يبدأ في ٢١ اكتوبر وينتهي في ٤ نوفمبر ٠ استعمل غوردون الورق الشفاف في الصفحات ١ ـ ٥٩ أما ٦٠ ـ ٨٢ فقد سجلها في ورق البرقيات ٠

يقع الجزء السادس في ٨٥ صفحة وهو يغطي الفترة ما بين ٥ نوفمبر الى ١٤ ديسمبر . وقد سجله غوردون في ورق البرقيات ايضا .

تعتبر اليوميات مصدرا حيويا لتوثيق هذه الفترة اذ ان مؤلفها هو الرجل الذي كان يجلس على قمة جهاز المسؤولية في الخرطوم . ولقد سجل احداث المدينة اليومية طوال فترة ثلاثة اشهر فجاءت انطباعاته وخواطره بمثابة الرأي الرسمي . كما ان بعض الرسائل التي الحقها باليوميات تكشف لنا عن عدة جوانب للحصار وهي في ذات الوقت النسخ الوحيدة التي وجدت حتى الان .

اتجه غوردون اثناء تسجيل اليوميات اتجاهين ، فهو يدون الاحداث اليومية المتعلقة بالاستعدادات العسكرية والامور المالية والادارية وموقف التموين ونشاط الاهالي . ويسجل من ناحية اخرى ، خواطر واراء متعلقة بالسياسة العامة . فهو يتعرض لتطور الاحداث في البلاد منذ مجيئه ويملاء الصفحات بنقد مركز لسياسة كل من مصر وبريطانيا . وقد شغلت حملة الانقاذ جزءا كبيرا من تفكيره فأسهب في تقديم المقترحات عما يجب عليها تنفيذه . ولا بد للمرء ان يلحظ ان هذا الاتجاه قد تغلب على الاتجاه الاول فجاء ذكره لاحداث المدينة عابرا متقطعا .

ولعل القارئ يجد له عذرا فقد كان يعيش فترة حرجة تأكد له خلالها ان حصار الخرطوم بواسطة جموع الانصار قد اصبح حقيقة واقعة ، فتم عزل المدينة عن العالم وجاء فشل مهمة ستيورت ليقطع امله الاخير في الاتصال بالخارج . ولقد اكتشف في اكتوبر ان مجموعة من اعيان المدينة ومن اعوانه كانت تتصل سرا بالمهدي وتقدم له العون المادي والمعنوي ، هذا في الوقت الذي اشتدت فيه وطأة ازمة الغذاء . كما شهدت تلك الفترة اعنف المعارك ضد الانصار فقد فيها خيرة رجاله . لم يكن غوردون يرى في هذا الجو الخانق مخرجا سوى عون عسكري من الخارج ، ومن ثم فقد اسهب في شرح اهمية هذا العون مضمنا تفاصيل عن قوته والطريق التي يجب سلكها على امل ان تصل هذه المعلومات الى السلطات ويعجلوا بالتنفيذ . ولا بد ان تكون هذه

التفاصيل ذات قيمة حقيقية لدراسة جوانب اخرى من تاريخ تلك الحقبه ، الا
انها لا تفيد كثيرا في محاولة البحث عن حقيقة الوضع داخل الخرطوم خلال
فترة الحصار • فاليوميات لا تتحدث كثيرا عن مشاكل غوردون الادارية
والعسكرية والغذائية بل اننا نجمع منها خطوطا عريضة وتفاصيلها من
مصادر اخرى •

تعاني اليوميات ايضا من ضعف آخر ، فهي لا تغطي الا
ثلاثة اشهر فقط من العشرة اشهر التي قضتها المدينة تحت الحصار وبما ان
تسجيلها قد بدأ بعد ستة اشهر من وضع الحصار فهي تشير الى قضايا لا يجد
القارئ نفسه ملما تماما بجذورها وبداياتها • ولعل طبيعة تسجيل اليوميات
لا تساعد كاتبها في التعرض لمنشأ القضية • قبل الخوض في
تطورها كما هو الحال في كتابة التقارير • فيوميات
غوردون هي في الواقع خواطر ومقترحات ومجموعة افكار تحتل مركزا اوليا في
دراسة شخصية له ولكنها لا تمثل بالنسبة للموضوع قيد البحث مصدرا غنيا
بالمعلومات التي يمكن ان تبنى عليها دراسة شاملة •

قام اجمونت هيك (Egmont Hake) بنشر اليوميات دون ان
يتعرض لمحتوياتها بالتحقيق او التصحيح الا في حالات الاخطاء الاملائية •
كتب غوردون بعض اسماء الاعلام واسماء الاماكن بطريقة غير مألوفة جعلت
ما ترمز اليه غامضا في اغلب الاحيان لتكهنات القارئ •

ولقد ضاعف هيك هذه المشكلة بنقله بعض الاسماء بطريقة مغايرة
لتلك التي ظهرت بها في اليوميات • وليس هذا بالامر الشاذ فقد كان كل من
المؤلف والناشر غريبين عن عالم الاسماء العربية بصفة عامة والسودانية
بصفة خاصة ، ورغم زيارات غوردون المتكررة للسودان فلم يكن من السهل
عليه التمكن من اللفظ الصحيح للاسماء فدرج على كتابتها كما يلتقطها •
وهو محق في هذا فلم تزل كتابة الاسماء العربية بلغات اخرى مشكلة حتى

اليوم بعد مضي الاكثر من نصف قرن من الزمان • اما اسماء الاماكن فقد كانت ولم تزل خاضعة لكثير من المغالطات بين الباحثين ولعل طبع Sudan Gazetteer بواسطة مصلحة المساحة السودانية يساعد في ايجاد صيغة موحدة لكتابة هذه الاسماء •

ولقد قمت بمحاولة لتصحيح بعض الاسماء التي وردت في اليوميات ونشرت كما هي وتلك الاسماء التي ظهرت صحيحة في الاصل ونشـــرت محرفة • (ملحق ن) •

الرسـائل المتبـادلـة بيـن غوردون وامـراء المهـدى :

وجدت مع يوميات غوردون مجموعة من الرسائل التي تبودلت بينه وبين امراء المهدى اثناء فترة الحصار • ولقد اورد الناشر ترجمة لبعض هـــذه الرسائل سأحاول في الصفحات التالية اثارة نقاط معينة بصددها والتعـرض لبعض اجزائها •

تتكون المجموعة من خطابين من الشيخ عبد القادر ابراهيم (١) وثلاثـة خطابات من عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور (٢) وخطاب من عبد اللـه ود جباره (٣) وخطاب من المهدى (٤) • يلاحظ ان هذا هو الخطـاب الوحيد من جملة خطابات المهدى الذى ارفقه غوردون مع اليوميات • ورغـم ان بعض المصادر تشير الى انه تسلم خطابا بتاريخ ١٦ نوفمبر ١٨٨٤ اى قبل أن ينتهي من كتابة اليوميات في ١٤ ديسمبر ولكنه لم يعثر عليه ضمن ملاحقها • هناك ايضا نسخة من رسالة العلماء التي بعثوا بها للشيخ عبد القـــادر ابراهيم وعبد الرحمن النجومي (٥) ، وثلاثة خطابات من امراء مهدويين الـــى قادة غوردون (٦) • اما ردود غوردون فهي تشتمل على خطابين لعبد القادر

---

(١) ملحق أ – ب
(٢) ملحق ج – د – هـ
(٣) ملحق ز
(٤) ملحق و
(٥) ملحق ل
(٦) ملحق ح – ط – ي

ابراهيم (١) وبنابيين لعبد الرحمن النجومي (٢) ، وهناك ايضا نسخة من رسالة برقية بعث بها غوردون الى نوبي الله بنت قومندان طابيه ام درمان بتاريخ ٢ محرم ١٣٠٢ (٢٤ اكتوبر ١٨٨٤)(٣) .

يحتمل اول خطاب وصل لغوردون من الامراء تاريخ ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤)(٤) ولم يتبين بعد بصورة قاطعة ما اذا كان غوردون قد تسلم رسائل قبل هذا التاريخ الا انه من الارجح ان يكون هذا قد حدث . فنعيم باشا يقرران كلا من العباس العبيد والنور ابراهيم الجريفاوي والمكي معنوى قد بعثوا برسائل لغوردون قبل آخر مارس كما ان الشيخ العبيد قد بعث اليه بخطاب وقد رد عليهما جميعها . وقد ذكر اكثر من مصدر أن محمد عثمان ابي قرجه قد كتب رسالة لغوردون حال وصوله خارج بوابات المدينة . ولان هذه المجموعة قد وصلته قبل ان يبدأ في تسجيل يومياته — اي قبل مغادرة ستيورت للخرطوم — فلعله قد ارفقها مع يوميات هذا الاخير كما اعتاد ان يفعل ولا بد انها فقدت بالتالي معها .

ولم يعط الناشر ترجمة حرفية لكل المجموعة بل عمد الى التأرجح بين الترجمة الكاملة لبعضها والتلخيص لبعض آخر واسقاط فئة ثالثة ولم تأت الترجمة في كل الحالات سليمة ، بل هنالك عدة امثلة لتغييرات استحدثت في اللفظ او المعنى كما ان هنالك حالات معينة تم فيها حذف اجزاء ذات اهمية .

جاء في اول رسالة من الشيخ عبد القادر الى غوردون قوله ، " .. لكن ثبوت حقيقة هذا الامام المهدي المنتظر عليه السلام عندنا من ابتدى ظهوره مانع لنا من تحول مكاتبتكم والعودة اليكم " . وقد اورد المترجم العبارة الختامية

---

(١) ملحق أ — ب .
(٢) ملحق ج — د .
(٣) ملحق ك
(٤) ملحق أ

لتمنى ، " الرد على خطاباتكم ." (١) ولا بد ان تحدث مثل هذه الترجمة بعض البلبلة . فقد اثبتت الوثائق المعروفة ان الشيخ عبد القادر قد بعث بخطابات اخرى لغوردون فيما بعد وهو يعني بعبارة "العودة اليكم" انه لن يعود للاقامة مرة اخرى في الخرطوم حيث كان عند وصول غوردون اليها .

درج المترجم ايضا على استعمال كلمة "الدراويش"(٢) على لسان الشيخ عبد القادر في حين ان هذا لم يظهر في اى رسالة منه ، بل كان يدعوهم ب " فقراء الانصار " ولعل المترجم كان متأثرا بذلك اللفظ الشائع الذى كان يطلق على اتباع المهدى وكثر تداوله لدرجة ان المهدى اصدر منشورا يحرم فيه استعماله .

لم يلتزم المترجم ايضا الدقة في نقل الاسماء كما وردت في الاصل فهو يقول عبد القادر ابراهيم مرة وابراهيم عبد القادر مرة اخرى (٣) .

جاءت النسخة العربية لرد غوردون على هذه الرسالة رديئة الخط ، ضعيفة الاسلوب وبلا تاريخ (٤) ولقد وردت في مؤخرتها العبارة التالية

---

(١) <u>Journals of Gordon</u>, pp. 279-81

(٢) Ibid., pp 279 - 81

(٣) Ibid., pp. 279-81, pp. 298-9, pp. 299-301

(٤) غوردون الى الشيخ عبد القادر ملحق أ "

" واذا كان ... محمد احمد مهدى فلماذا يفضل لحد الان بالابيض بل اللازم ان .... كافة البلاد " . الاشارة هنا واضحة الى مدينة الابيض ولكن المترجم يقول ان الكاتب يعني النيل الابيض (١) .

اما رد غوردون الثاني فهو يختلف عن سالفه من حيث الخط والاسلوب ولا بد انه قدحرر بواسطة كاتب اخر ، فجاء مقروءا ومؤرخا ٢٠ ذو القعدة ١٣٠١ (٢١ سبتمبر ١٨٨٤) (٢) . ورد في النسخة العربية قوله : " ... فاخبروا ولد النجومي وابو قرجة بأنهم يتوجهوا لكردفان وفيما بعد عند عمل ترتيبات نجعلهم سلاطين " وضع المترجم كلمة دنقلا مكان كردفان (٣) وهذا تغيير لم اجد له ما يبرره .

فقد كان غوردون يعني كردفان وقد اشار الى هذا الموضوع عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور في رسالة لغوردون بالقول " ... تذكروا له انه يخبرنا نحن وابو قرجة نتوجه لدار الغرب اولا لنا وعند عمل ترتيبات تجعلونا سلاطين " (٤)

حذف المترجم من تلك الرسالة فقرة ذات اهمية فهي تكشف لنا ان غوردون كان يحاول استمالة الشيخ عبد القادر بكافة الوسائل فبعث له بهدية اشار اليها بقوله ، " ... وانا اعرف انه يلزم لكم صابون لغسل وجهكم فها هو مرسل لكم صندوق صغير من غسيل وجهنا " (٥) .

حمل اول خطاب من عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور تاريخ ٢١ ذو القعدة ١٣٠١ (١٣ سبتمبر ١٨٨٤) حذف المترجم فقرة قد تساعد

---

(١) Journals of Gordon, pp.281-2

(٢) غوردون الى الشيخ عبد القادر ملحق " ب "

(٣) Journals of Gordon, pp.298-9.

(٤) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون باشا ملحق د

(٥) غوردون الى الشيخ عبد القادر ملحق "ب".

ان المهدى يملك بدون مدافع ولا صواريخ فما هي الحقيقة " . كما حذف فقرة اخرى تعكس مبالغة غوردون في مقدرته الذاتية وعدم تقديره لاهمية التأييد الذى يسبغه عليه سكان المدينة فهو يقول " ... وكذلك الاهالي والعلماء الذين تقولوا انهم مظاهرين معنا وباطنهم معكم ريثما يحصل القتال يتركوننا ويهربوا عندكم فأننا ليس حاجزنهم بخاطرنا ولا جابرنهم من التوجه لطرفكم لتوجههم وعدمه على حد سوى واما لم يتوجهوا لمقابلتكم " (١) .

ولقد ارسل غوردون خطابا آخر لعبد الرحمن النجومي بتاريخ ٢ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) وتعاقب مع خطاب النجومي الذى يحمل نفس التاريخ (٢) . اغفل المترجم الجزء الاول من هذه الرسالة رغم اهميتها في تصوير اساليب غوردون لارهاب خصمه باعطائه معلومات مبالغ فيها عن قوة حملة الانقاذ وعن معارك لم تحدث على الاطلاق اعتبرها انتصارات وهمية . فهو يصف الحملة " ... الذين وصلوا من جيوش الانجليز لجهة مروى عشرة آلاف بيادة وخياله وطوبجيه والباقين خلفهم في دنقلا ووادى حلفا وان مدير دنقلا اجرى قتل الفكي المهدى والشريف محمود ... وصار قطع جيوشهم عن اخرهم ومن اخباريه اخرى حضرت لنا من مخصوص من جهة بربر بأن وابوراتنا دخلوها ومنتظرين حضور العسكرية .. " (٣) .

اما خطابات الامراء ، فهي تشتمل على خطاب من الصديق الطاهر وحامد ولد ادريس الشايب الى عثمان بك قائمقام طابيه ام درمان (٤) وخطابين من احمد المصطفى الامين ، احدهما الى عثمان بك والاخر لخشم الموس (٥)

---

(١) غوردون الى عبد الرحمن النجومي ملحق ج
(٢) غوردون الى عبد الرحمن النجومي ملحق د
عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون باشا ملحق د.
(٣) غوردون الى عبد الرحمن النجومي ملحق د
(٤) الصديق الطاهر وحامد ولد ادريس الشايب الى عثمان بك ملحق ى
(٥) احمد المصطفى الى عثمان بك ملحق ط
احمد المصطفى الى خشم الموس ملحق ح

لم يرفق غوردون اي نسخ لردود على هذه الرسالة مع اليوميات ويبدو ان قادته لم يبعثوا بردود كما هو واضح من خطاب احمد المصطفى فهو يخاطبهم :
" ايها الاحباب لقد طالما دعوناكم الى الله ورسوله ومهديه عليه السلام بلا اجوبة فلم كان تحضروا ولا ترسلوا لنا رسل من طرفكم كما طلبنا منكم ذلك" (١)

حمل خطاب الصديق الطاهر وحامد ولد ادريس الشايب تاريخ ٢٣ ذي الحجة ١٣٠١ ، (٥ اكتوبر ١٨٨٤) . اعطى المترجم ملخصا لهذه الرسالة ولكنه نقل اسم الصديق الطاهر " السيد الطاهر" (٢) . كذلك حمل خطاب احمد المصطفى لعثمان بك نفس التاريخ . فسر المترجم الاشارة الى الباخرة التي حطمت ستيورت انتهى بافره باسم " خرطوميه " (٣) ولكن لم تكن بين اسطول غوردون من تحمل هذا الاسم . وعندما يقول الكاتب ان " الوابور الخرطومية قبضت والفقرا هلكوا من فيها " فلا بد انه يعني الباخرة " العباس "

---

(١) احمد المصطفى الى عثمان بك ملحق ط

(٢) Journals of Gordon, pp.311-2

(٣) Ibid, pp.313-4.

تقرير مجلس الضباط.

في يونيو ١٨٨٥ (رمضان ١٣٠٢) وضع مجلس من العسكريين والمدنيين برئاسة محمد نصحي باشا تقريرا باللغة العربية عن حصار الخرطوم منذ وصول غوردون اليها وحتى سقوطها تحت عنوان " حياة غوردون باشا في الخرطوم " (١) . اقتصرت عضوية المجلس على كل من السيد افندي امين الذي كان أثناء الحصار قائدا للفرقة الرابعة واحتل مركزا من خط النار قرب بوابة الكلاكلة ، وحسن افندي عبد الله وكيل المديرية ، ومرزوق افندي رزق وعبد القادر بك حسن وميخائيل افندي داود . ليست هناك معلومات مؤكدة عما اذا كان هؤلاء قد اقاموا في الخرطوم طوال مدة الحصار والى ان سقطت المدينة ولكن يلاحظ ان اعضاء المجلس باستثناء نصحي باشا ومرزوق افندي رزق قد قدموا شهودا في محاكمة حسن بك بهنساوي التي انعقدت في القاهرة (٢)

---

(١) محمد نصحي باشا (١٨٣٨ - ١٩٠٣) تلقى الاصل دروس العلوم العسكرية في برلين واشترك في الحرب الروسية - التركية ١٨٧٧ - ٧٨ . ذهب الى السودان وشهد اندلاع الثورة المهدية وساهم في حصار الخرطوم الا انه غادر المدينة بآخر سبتمبر ليقود الاسطول المكلف بانتظار حملة الانقاذ في شندي . بعد سقوط الخرطوم رجع مع الحملة الى مصر وفي نفس العام تمت ترقيته الى رتبة لواء ولكنه تقاعد بعد ذلك بقليل .

Hill, *A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan*, p.241.

(٢) كان حسن بك بهنساوي اثناء الحصار مسئولا عن خط الدفاع الممتد من النيل الابيض وحتى بوابة الكلاكلة . ولقد اتهم عند رجوعه الى القاهرة بتهاونه في صد هجوم الانصار عشية ٢٦ يناير ١٨٨٥ . فعقدت له محكمة عسكرية في ابريل ١٨٨٧ وبعد الاستماع الى عدد من الشهود تقررت تبرأته .

Wingate, *Mahdiism and the Egyptian Sudan*, pp.556-90

فلا بد انهم قد عاصروا الحصار وشهدوا السقوط • الا ان نصحي باشا لم يكن هناك اذ غادر المدينة الى شندى في ٣٠ سبتمبر ١٨٨٤ ولم يعد اليها مرة اخرى • ولم يذكر المؤلفون عما اذا كان تقريرهم قد كتب من الذاكرة ام انهم استعانوا ببعض الوثائق التي سجلت اثناء الحصار •

من المرجح ان يكون نصحي باشا قد احتفظ بمثل هذه التسجيلات اذ انه ترك لنا يوميات شاملة عرفت ب " جورنال الحوادث " سجل فيها وقائع الفترة التي قضاها في شندى • ولعله قد فعل ذات الشيء اثناء وجوده في الخرطوم •

ويبدو ان التقرير قد كتب بمبادرة من الضباط انفسهم في محاولة لتسجيل احداث تلك الفترة من وجهة نظرهم • ولقد فشلت كل الجهود التي بذلتها بمساعدة الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم مدير دار الوثائق المركزية للحصول على نسخة من الاصل • فاعتمدت على ترجمة له اجراها نعوم شقير • ويلاحظ ان شقير قد اعتمد على التقرير في تأليف الجزء الخاص بحصار الخرطوم في كتابه " جغرافية وتاريخ السودان " • ولان كل الذين تطرقوا لمعالجة تلك الفترة اعتمدوا في الاساس على نعوم شقير يبقى هذا التقرير المصدر الذى اعطى حصار الخرطوم صورته المعروفة حتى الان في التاريخ •

كان ونجت على علم بوجود التقرير الا ان محاولاته في الحصول عليه قبل انجاز كتابه (Mahdiism and The Egyptian Sudan) لم تثمر ولكنه علم فيما بعد ان الخديوى يحتفظ به في مكتبته الخاصة فاستأذنه في الاطلاع عليه وقدم ملخصا له في (SNR XIII,1930) • اعتمد ونجت هنا على ترجمة نعوم شقير ونشرنا كما هي هاللهم الا تعديلات طفيفة في الاسلوب وحذفه بعض الفقرات التي رأى انها ليست على اى قدر من الاهمية •

يلاحظ انه اسقط عبارة تقول : ان غوردون لم يرد على رسالة من محمد عثمان ابي قرجه لانه لا يتراسل مع العبيد • ولعل ونجت قد حذفها كي لا تعطي انطباعا سيئا عن غوردون ولكن من ناحية اخرى لا يبرر عدم وجود رسالة من غوردون الى ابي قرجه الجزم بصدق رواية التقرير ، من المحتمل ان يكون غوردون قد بعث برد ولكنه فقد كما حدث لرسالة ابي قرجه نفسها • بالاضافة الى ان اسقاط ونجت لتلك الفقرة قد لا يعني اكثر من أنه لم يرها ذات اهمية •

يعتبر التقرير الوثيقة الوحيدة المعروفة حتى الان التي تعالج حصار الخرطوم منذ بدايته الى نهايته وبصورة تفصيلية •

فهو يقع في حوالي ٢٨٠ صفحة فلسكاب كتبت بخط اليد • وقد ركز على الاحداث اليومية دون ان يسجل اى انطباعات او اراء سياسية • ولعل هذه هي ميزته الرئيسية على يوميات غوردون • فامدنا التقرير بمعلومات عن موضوعات شتى ، منها سكان المدينة من حيث عددهم وتعاونهم مع غوردون واستجابتهم لاجراءاته وعلاقتهم بالانصار • واعطى تفاصيلا عن الامور المالية والادارية والعسكرية ، وتطرق الى مشكلة الغذاء ودورها في تصعيد الازمة والتعجيل بالسقوط ، كشف لنا ايضا عما اتخذ من خطوات في سبيل تنفيذ الاخلاء كما اورد معلومات عن البعثة التي اوفدها غوردون لانتظار حملة الانقاذ في شندى •

تضمن التقرير ايضا ملخصات لبعض الرسائل المتبادلة بين غوردون والانصار وبين هذه الرسائل رسالة من عبد القادر ابراهيم ورد غوردن عليها ، ورسالتان من المهدى ورد غوردون عليها ورسالة من علماء المدينة الى المهدى ورسالة من ابي قرجة ورسالتان من النجومي ورد غوردون عليها •

واذا ما قارن القارئ التقرير بالمصادر الاخرى ، فأنه قلما يجد تناقضا في الحقائق الاساسية كما ان ابراهيم البورديني ، وهو تاجر مصرى اقام في الخرطوم وبقي حتى سقوطها ، قد كلف بقراءة التقرير وتسجيل ملاحظاته عليه ورغم انه ابدى بعض التحفظات ولكنه قبله بصورة عامة •

ويلمس القارئ بين سطور تعليق البوردينى ان نصحي باشا قد البس نفسه ثوبا اكبر مما يستحق وانه لم يكن بأى حال ذلك الرجل الذى صوره المؤلفون • واذا استعنا بالمصادر الاخرى ثبت بالفعل ان نصحي باشا قد اضطلع اثناء الحصار ببعض المهام ذات المسئولية والاهمية • فقاد بعض الحملات العسكرية الناجحة ضد الانصار •

كما ان بعثته الى سنار عادت محملة بالاغذية ، فكسب رضاء غوردون وانعم عليه بلقب الباشوية ، ثم عقد اليه لواء قيادة اسطول شندى مما يدل على ان غوردون كان يثق به •

ولكن يبدو ان تلك الثقة لم تكن مطلقة وربما كان ارساله لشندى محاولة لابعاده ، خاصة ، ان غوردون سبق ان طلب منه مغادرة البلاد مع الجنود المصريين . كما يلاحظ من يوميات غوردون وجورنال الحوادث انه درج على مخاطبة نصحي باشا بلهجة عنيفة طوال مدة بقائه في شندى . بالاضافة الى هذا فقد رفع توصيه عن طريق يومياته لقائد حملة الانقاذ طالبا منه بالا يعود بأى من " الجنود البيض " المتمركزين في اسطول شندى مرة اخرى للخرطوم • ومن ثم لا بد ان يميل القارئ الى الاعتقاد بأن نصحي باشا قد جنح الى المبالغة في تصوير نشاطه اثناء الحصار ولعله كان يهدف من وراء ذلك للحصول على اكبر قدر من الانعامات المادية والمعنوية من الحكومة المصرية •

ومن ناحية اخرى ، علينا ان نأخذ تعليق البوردينى بحذر ، اذ لا يبدو انه خال من الغرض • فقد كتب هو تقريرا منفصلا وصور نفسه تاجرا يشار اليه بالبنان وساعد غوردون الايمن الذى كثيرا ما انقذه من الازمات المالية والادارية الا ان مؤلفي التقرير تجاهلوه تماما ولم يذكروا اسمه الا في مناسبتين لم يكن الحديث فيهما من مصلحته : وكانت المناسبة الاولى تتعلق بحادثة التاجر الاغريقي الذى يملك مخبزا مناصفة مع البوردينى وقد اتهم هذا التاجر باخفاء الذرة حتى يتمكن من بيعه بسعر عال عند اشتداد الحصار • ورغم ان الاتهام لم يوجه للبوردينى الا ان الاشارة كانت كافية لاثارة الشك حول نشاطه • اما المناسبة الثانية فتشير الى ان البوردينى كان يدل احمد سليمان عند سقوط

المدينة على الجميلات من النساء والاثرياء من الاهالي • وقد انكر البوردينى التهمة الاولى ولكنه اعترف بالثانية وبررها بأنها كانت ضرورية لحماية امواله الخاصة • ولعل استماتة البورديني في الدفاع عن نفسه هنا كانت مرتبطة بخشيته من ان يتهم بالتعاون مع الانصار ويتعذر عليه بالتالي استرداد اى مبالغ يحتمل ان يكون قد اقرضها لغوردون مقابل اوراق البون اثناء الحصار • فربما جاء اذن تشككه في الدور الذى لعبه نصحي باشا كمجرد فعل لتجاهل المؤلفين لـه •

ولقد اورد التقرير ترجمة لخطابين بعث بهما غوردون الى المهدى اولهما بعث به بعد استلامه لرد المهدى على خطابة الاول والثاني ارسله له بعد وصوله الى ام درمان (١) ولم تذكر اى مصادر اخرى شيئا عن هذه الخطابات سوى نعوم شقير (٢) وقد اجزم البورديني ان غوردون لم يبعث للمهدى سوى رسالة واحدة تلك التي تحمل تاريخ ١٠ فبراير ١٨٨٤ •

نقل التقرير ايضا ترجمة للخطابات التي بعث بها الامراء لغوردون الا ان اجزاء من هذه تختلف اختلافا كبيرا عن الاصل كما يلاحظ القارئ في بعض الحالات وجود فقرات لم ترد على الاطلاق مما يدل على انهم كانوا يكتبون عن هذه الرسائل من معلومات سماعية او انهم قد قرأوها في وقتها ولكنهم نسوا محتوياتها عند كتابة التقرير •

وفي ترجمة لخطاب من عبد الرحمن النجومي ذكر المؤلفون على لسانه " انا امير امراء قوات المهدى ، فاتح كردفان وجبل قدير

---

(١) Nushi Pasha, p. 74, p.182.

(٢) نعوم شقير ، ص ٨٤٧

الملقب بالسيف المشهور " (١) لم ترد هذه العبارة في اى من خطابات النجومي ولعل الفقرة التي سمح بها المؤلفون هي قوله (ان المهدى)" قد حينا نحن العاملين المذكورين بهذا وامدنا برجال ثقات من اصحابه يحبون الموت كحبكم للحياة " (٢) .

ولقد تعرض غوردون للتحريف ايضا ، ولعلهم كانوا يسعون الى تصويره كالبطل المقدام الذى لا يهاب مخاطبة خصمه بلهجة مثل " عليكم ان تتأكدوا انى لن اعر سيدكم المزيف المهدى اهتماما وسترون عما قريب جيشكم منهارا كما حدث لقوات ابي قرجة وجيش ابن عمكم في الحلفاية فامسكوا السنتكم وكفوا عن هذا الهراء " (٣) .

اختلفت المصادر حول الكيفية التي استسلم بها صالح المك عندما كان محاصرا في جزيرة فداسي من قبل اعوان محمد الطيب البصير . ذكر التقرير ان هذا تم نتيجة لخدعة من ابي قرجة والعبيد بدر اللذين اوهما صالح المك بان الخرطوم قد سقطت . فما كان منه الا ان رمى عدته وعتاده الحربي في النهر واستسلم وهو مكتئب (٤) وقد ذكر التقرير ان ابا قرجة اخترع هذه الحيلة بعد ان ذهب الى الخرطوم وتأكد له انه لن يتمكن من اقتحام بواباتها بالقوة التي لديه . فسار الى فداسي على امل ان يجبر صالح المك على التسليم ويعزز جيشه بجنود الشايقية واسلحتهم . ولكن اسماعيل بن عبد القادر يورد رواية مختلفة يذكر فيها ان صالح المك قد استسلم من تلقاء نفسه وكتب رسالة للمهدي يعلن فيها اعتذاره عما اقترفه سابقا في حق الانصار ويسأله ان يبعث بأحد قادته ليتم التسليم على يديه ، إذ كان متخوفا من التسليم لمحمد الطيب

---

(١) Nushi Pasha, p. 113.

(٢) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون باشا ملحق ج

(٣) Nushi Pasha, p. 113-4

(٤) Ibid, p. 63.

البصير خشية من ان يتعرض هو ورجاله الى بعض الاجراءات الانتقاميـــة . فاستجاب المهدى لطلبه وبعث بمحمد عثمان ابي قرجة الذى سار من تــوه لقداسي وتوجه منها الى الخرطوم حيث شرع في وضع الحصار ولقد ايد ابراهيم فوزى هذه الرواية .

وذكر التقرير ايضا حادثة في هذا الشأن تجعل القارئ يتشكك في صدق رواية المؤلفين . فهو يقول ان قوردون كان على علم بنوايا ابي قرجـــة فبعث برسول لصالح المك يحذره الا يعير اى انباء ينقلها له ابو قرجـــة التفاتا (١) . وقد تأكد تبليغ تلك الرسالة لصالح المك فاذا كان الامر كذلك ، لماذا استسلم وهو يعلم سلفا ان رواية سقوط المدينة انما هي محض اختلاق .

---

(١) Nushi Pasha, pp.40-1.

٢- تقرير ابراهيم البورديني

كان ابراهيم البورديني يعمل بالتجارة في الخرطوم وبقي فيها حتى وصول غوردون • ولقد عاصر فترة الحصار حتى سقوط المدينة • ثم سافر الى بربر فيما بعد ، وتمكن من الفرار الى سواكن في يونيو ١٨٨٧ ومنها وصل الى القاهرة • ولقد كتب تقريرا بعنوان (حصار الخرطوم وسقوطه ١ ذو الحجة ١٣٠٤) • وهو يقع في حوالي ٢٠ صفحة تشمل الفترة منذ وصول غوردون الى ما بعد سقوط المدينة •

ويعالج البورديني في الاساس الجانب العسكري فهو يصف المعارك التي جرت بين قوات الحكومة والانصار ويركز على المرحلة الاخيرة من الحصار •

وذكر التقرير ان المهدى ارسل لغوردون " كسوة الزهاد " مع خطاب بعد وصوله الى ديم ابي سعد ولكن هذا قد تم قبل مجيء المهدى بحوالي خمسة اشهر حينما كان مقيما بالرهد • ورغم ان البورديني قد اجزم في معرض تعليقه على تقرير نصحي باشا ان غوردون لم يرسل للمهدى سوى رسالة واحدة الا انه يعود ويذكر في تقريره ان غوردون قد كلف ابراهيم بك رشدى ليكتب خطابا للمهدى يحذره من الاتصال به مرة اخرى• وقد جاءت هذه الرسالة بعد تسلمه لخطاب المهدى الذى يرفض فيه سلطنة كردفان •

كان احمد العوام كاتبا لعرابي باشا ونفى الى الخرطوم بعد معركة التل الكبير وقد ابدى تعاطفا مع المهدى وبذل محاولات لاقناع الاهالي بدعوته ، فكان يخطب علانية في التجمعات منددا بوجود غوردون ومشيدا بانتصارات المهدى . حاول غوردون التفاهم معه فعينه كاتبا ويقال انه حرر بعض الخطابات التي بعث بها غوردون للامراء . ولكن ما ان وصل المهدى الى ام درمان حتى عاود سيرته القديمة . فذكرت بعض المصادر انه كان يقسم بكل ما من شأنه ان يغضب الحكومة وفي النهاية اوعز لاحدى النساء اضرام النار بمخزن الذخيرة فاكتشف امره وقرر غوردون الحكم عليه بالاعدام ونفذ فورا .

وفي الواقع لم ترد في نصيحته اشارة واضحة الى تحيزه الى جانب دون الاخر بل كان يطلب من الفريقين السعي لايجاد تسوية سلمية فهو يقول " ... فأن طالما جاهدتهم (العلماء) بالحق سرا ونصحت لهم في دار الحكومة جهرا على مسمع من وكيلها النصراني ومن حضر من كتبة الديوان في ليلة النصف من شعبان من هذه السنة رجاء ان يسعوا في ايجاد الصلح بين الطائفتين المتحاربتين عملا بامر الله ... فلم اجد فيما بينهم محقا كلا ولا ساعيا بكلمة حق لاخماد هذه الحرب بين المسلمين وعباد الله المؤمنين ... ولذلك اعتزلتهم وجميع الحكومة وجميع المحصورين الامن جاء يسعى وهو يخشى فأبذل له محض النصح " .

ولقد كتب العوام نصيحته في ٢٠ رمضان ١٣٠١ وصدرها بقوله " هذه الرسالة المسماة بنصيحة العوام للخاص والعام من اخوانه اهل الايمان والاسلام في وجوب اتحادهم وائتلاف قلوبهم باتباع سيدنا امام الزمان محمد المهدى المنتظر عليه السلام " . وهي ليست سجلا للاحداث بقدر ما هي خواطر واراء في الدين والسياسة وتقع في حوالي ٦٠ صفحة قسمها الى خمسة فصول كما هو آت :

ويبدو ان الغرض من كتابة النصيحة كان رغبته في النيل من الحكومة التركية فهو يحملها كافة مسؤولية ما يحل بالمسلمين من بلايا لان الحكام لا يتقيدون بكتاب الله وسنة رسوله • وهو يدعو المسلمين الى عدم اتخاذ اليهود والنصارى اولياء لهم ووجوب وقف القتال بين بعضهم البعض والالتفاف حول المهدي لانه يدعو الى اقامة دين الحق •

السودان بين يدى كتشنر وغوردون :

ضمن ابراهيم فوزى كتابه بالعنوان اعلاه فصلا عن حصار الخرطوم منذ وصوله اليها مع غوردون في ١٨ فبراير ١٨٨٤ • ولم يكن ابراهيم فوزى غريبا عن البلاد فقد سبق ان عمل فيها اثناء ولاية غوردون الاولى وقد اتهم بالاشتغال بتجارة الرقيق حينما كان حاكما على بحر الغزال ولكن غوردون عفا عنه وطلب منه ان يعود معه مرة اخرى للسودان عندما التقى به في القاهرة •

اورد ابراهيم فوزى معلومات اساسية عن احداث المدينة من استعدادات عسكرية ووصف للمعارك والموقف الغذائي ووصول قوات الانصار ولكنه يميل الى الاختصار ويعطي احيانا معلومات غير دقيقة • وهو يقول ان غوردون بعث بخطابه الى المهدى من كورسكو في حين يذكر ستيورت ان هذا قد تم من قرية شمال بربر بقليل ولعل تاريخ الخطاب (١٠ فبراير) يؤيد هذا الرأى الاخير •

ويورد المؤلف ارقاما مبالغا فيها ، من ذلك مثلا تقديره لسكان الخرطوم الاجانب بـ ٢٠٠ الف والوطنيين الذين هجروا المدينة الى المهدى بـ ٣٠ الف وقدر قوات ابي قرجة بـ ٢٠ الف مقاتل والذين ساروا مع المهدى ٨٠٠ الف تقريبا •

سعادة المستمدى في سيرة الامام المهدى :

لموءلفه اسماعيل بن عبد القادر ، ابن اخت احمد الولي الكردفاني • درس في الازهر واصبح مفتيا لمديرية كردفان ومقيما في الابيض • عند وصول المهدى الي مدينة كابا اعلن تأييده له وبقي في معيته الى ان كلفه الخليفة عبد الله بكتابة سيرة المهدى • فاستعان بالانصار الذين شاركوا في الاحداث فكتب سيرة شاملة للفترة منذ قيام المهدى الى ما قبل موقعة توشكي (رمضان ١٢٩٨ الى ٣ ربيع اول ١٣٠٦) • ولقد وشى به البعض فنفاه الخليفة الى الرجاف، ١٨٩٣ وحرق كل نسخ سيرته ولكن احد العساكر المصريين تمكن من اخفاء نسخة استعان بها نعوم شقير فيما بعد في كتابة تاريخه •

ويبدو انه سلمها لونجت فحفظت مع اوراقه في جامعة درهام •

وقد ركز اسماعيل بن عبد القادر على المعارك التي خاضها الانصار ضد قوات الحكومة بل هو يعالج تاريخ المهديه من خلال "الغزوات" • فسجل حصار الخرطوم من خلال حملات الامراء مبتدئا ب " سريه محمد عثمان الشهير بأبي قرجه " ثم " سريه عبد الرحمن النجومي " ثم " ذكرى غزوة المهدى عليه السلام الى الخرطوم " ثم " ذكر فتح خندق ام درمان " •

ورغم انه قد اعطى تفاصيل للاحداث الا انه لم يورد اى ارقام ويلاحظ القارئ انه لم يذكر شيئا عن الرسائل المتبادلة بين غوردون والامراء سوى رسالة ابي قرجة •

Cuzzi, G., Fifteen Years Prisoner of the False Prophet.

جاء المؤلف جوسيبي كوزي الى الخرطوم في ١/٤/٨٢ كمندوب لاحدى الشركات التجارية وبقي فيها الوما بعد هزيمة يوسف الشلالي حيث سافر الى سنار، ولكنه عاد مرة اخرى في يونيو ١٨٨٢ وبقي حتى آخر نوفمبر ثم سافر الى بربر وبقي هناك الى ما بعد سقوط المدينة • ووقع في اسر الانصار حتى اطلق سراحه عند مجيء جيش كتشنر • اذن ، فالمعلومات التي اوردها عن الحصار هي في مجموعها سماعية لانه لم يكن داخل المدينة اثناء تلك الفترة رغم انه قد زارها لمدد قصيرة • وفوق هذا لم يؤلف الكتاب بنفسه بل اعطى المعلومات لصحفي الماني فنشرها هذا بأسمه في ابريل ١٨٩٩ •

ولقد اورد في الفصل الاول والثاني معلومات عن المهديه منذ بداية الدعوة في ابا والى معركة شيكان ولعله قد حصل على هذه من بعض الاشخاص الذين التقى بهم اثناء الاسر • فاشتملت على وصف مبالغ فيه للجرائم التي ارتكبها الانصار ، فهو يذكر مثلا انهم كانوا يقتلون يمنة ويسرة عند دخولهم الابيض • في حين ان هذا لم يحدث على الاطلاق •

ولقد ركز في الفصول التي تلت هذه (الثالث ـ الرابع ـ الخامس ـ السادس) على احداث بربر ومجيئه الى الخرطوم كرسول من قبل محمد الخير ثم سفره لمقابلة المهدي ورجوعه مرة اخرى الى بربر ، وخصص الفصل السابع للفترة التي اعقبت سقوط المدينة وحتى مجيء جيش كتشنر •

ولقد اخطأ كوزي حينما قال ان غوردون ارسل هدية مع خطاب الى المهدي بعد وصوله الخرطوم ، فقد تم هذا قبل وصوله الى بربر ، ثم ان غوردون لم يعترف به سلطانا على السودان الغربي حسب رواية المؤلف بل على كردفان فقط •

النداء في دفع الافتراء

عالج مؤلفه محمد عبد الرحيم موضوعات متفرقة عن تاريخ المهدية • وكان المؤلف قد شهد حصار الخرطوم مع الانصار ولكنه سجل بعض الاحداث المتعلقة بالجانبين ، فوصف المعارك التي دارت مدعمة بالتواريخ والاسماء •

ولقد انفرد هذا المصدر بايراده نصا قيل انه للخطاب الذى القاه غوردون عند وصوله للمدينة ورغم انه تضمن بعض المعلومات التي رددتها مصادر اخرى، الا ان القارئ لا يملك الا ان يتشكك في بعض التفاصيل • منها مثلا قول غوردون " ••• وقد خابرت السيد محمد احمد المهدى بفحوى مأموريتي " ومصدر الشك هنا ان غوردون كان يتجنب دعوة المهدى بهذا الاسم لان هذا يعني الاعتراف به ، وقد خاطبه في رسالته التي ضمنها مجموعة المسلمي ب " السيد محمد احمد " فقط واشار المؤلف الى ان غوردون قد اعترف به سلطانا على " السودان الغربي برمته " ولكن خطاب غوردون يحدد السلطنة بكردفان فقط • وعن تجارة الرقيق ذكر المؤلف ان كل الاوامر الصادرة بشأنها قد الغيت ورغم ان نصحي باشا قد اورد معلومات مماثلة الا ان المنشور الذى اصدره غوردون في هذا الشأن كان ينادى بالغاء الاتفاق المصدر عام ١٨٧٧ والذى نص على عتق الرقيق بعام ١٨٨٩ فقط • كما ان العفو الذى اصدره غوردون لم يشمل " جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم " كما يذكر المؤلف عنها بل استثنى القتلة •

تاريخ حياتي

كان بابكر بدري ، مؤلف هذه السيرة ، يقيم مع عائلته برفاعة وعند اندلاع الثورة استجاب والده لدعوة المهدي فحضر بعائلته الى ام درمان قبيل المهدية قد استقروا في ديم ابي سعد • ولقد شارك المؤلف في العمليات التي تمت في الايام الاخيرة من الحصار وكان بين اوائل الذين دخلوا المدينة في صبيحة ٢٦ يناير من الجزء الجنوبي الغربي من الخندق الذي هدمه فيضان النيل •

ولقد تعرض لأحداث الحصار في بضع صفحات كانت اساسا حول الاسابيع التي سبقت سقوط المدينة ولم يورد ارقاما ولا تواريخ • وقد اخطأ في تاريخ بعض الاحداث فهو يذكر مثلا ان المعركة التي قتل فيها ساتي بك تمت بعد مجيء النجومي ولكنها في الواقع قبله وهو يقول ايضا ان صالح المك قد سلم للشيخ العبيد بدر ولكن المصادر تتفق على ان التسليم قد تم على يد ابي قرجة وربما بحضور الشيخ العبيد •

الفصل الثاني

تمهيد

نبذة في تاريخ مدينة الخرطوم

يجمع المؤرخون ان الخرطوم - كقرية صغيرة يؤمها صائدوا الاسماك - قد وجدت في التاريخ منذ ازمان سبقت قيام مملكة الفونج في ١٥٠٤ الا انها لم تحظ بأي اهتمام من جانب احد الحكام ، ولعل كل ما اكتسبته في العهد الجديد هو قيام عدة خلاو لرجال الدين في منطقتها (١) ، فنشأت احدى هذه الخلاوى في قرية توتي وكان من رجالها الشيخ أرباب العقائد الذى ما لبث ان انتقل الى الخرطوم في ١٦٩١ (٢) ويبدو ان بعض الاهالي قد سعوا الى التقرب من الشيخ فانتقلوا الى الاقامة معه في القرية الا ان هذا لم يكسبها شهرة تذكر فبقيت كما هي ، قرية للصيادين لا تجذب انتباه المسافرين الاجانب فلم ترد اى اشارة لها في كتاباتهم او خرائطهم رغم ان البعض قد وضع قرى أخرى ، مثل توتي وأم درمان والحلفاية في مواضعها الصحيحة (٣) .

بدأ تطور القرية مع فتح محمد علي باشا ، اذ قام احد أحفاد الشيخ ارباب ، محمود ود علي ، باستقبال اسماعيل باشا في مكان مقابل للحلفاية عند وصوله في ٢٤ مايو ١٨٢١ . وعند عبوره النيل استقبله في الخرطوم الفكي أرباب ود علي خليفة الشيخ ارباب (٤) . وفي اولى مراحل تنظيم الادارة

---

(١) Stevenson, " Old Khartoum 1821-1885", SNR 47, (1966), p.3.

(٢) ابو سليم ، " معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم " ص ٤ ، انظر ص ٣٧

(٣) Stevenson, "Old Khartoum 1821-1885" SNR 47,(1966),P.3

(٤) Ibid, P.4.

بعد الفتح ، وضعت الخرطوم في نطاق مديرية سنار الا ان الاحتفاظ بحامية صغيرة في كررى قد اسبغ على المنطقة بعض الاهمية • ثم جاء مقتـــل اسماعيل باشا والمآسي التي صحبته لتستحوذ على اهتمام السلطات الكامل فـي كل من مصر والسودان ولم يكن التفكير في تعمير البلاد واردا في تلك الايـام فبقيت الخرطوم بعيدة عن الاضواء •

وفي ١٨٢٤ استلم عثمان بك برنجي ، مقاليد السلطة من الدفتردار ، فأتى بكتائب اضافية من الجهد شيد لهم معسكرا في ام درمان في حين عبـر هو النيل الى الخرطوم واستقبله هناك الشيخ شنبول ود مدني الذى تـــم تعيينه ، فيما بعد ، شيخا على المنطقة الممتدة من حجر العسل الى جبـال الفونج (١) • ويبدو ان عثمان بك قد فطن الى استراتيجية موقع الخرطوم فعين عثمان بك خربوطلي وكيلا له في القرية (٢) • وقد أعقب هذا تشييـد مبنى لرئاســة الادارة الحكومية نقلت اليه وحدات من المصالح ومخزونـات الـدولة (٣) •

وعند انتهاء ولاية عثمان بك برنجي خلفه محو بك ، مديرمديرية بربرفأتى بجنوده وشيد لهم معسكرا في حلة خوجلي شمالي الخرطوم (٤) وحظيت القريـة ببعض الشهرة عندما تم بناء مقردائم للحكومة فيها (٥) •

---

(١) الشيخ احمد/ كاتب الشونة ، تاريخ ملوك السودان ،
مراجعة م • شبيكه ص ٢٢ ،

(٢) المصدر السابق ص ٢٦ ،

(٣) Stevenson "Old Khartoum 1821-1885" <u>SNR</u> 47 (1966) P.8

(٤) الشيخ احمد كاتب الشونة ، تاريخ ملوك السودان ،
مراجعة م • شبيكه ص ٢٧ ،

(٥) ابو سليم " معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم " ص ٦

بدأ تفكير الحكام الجدد يتجه نحو ايجاد عاصمة للبلاد بعد ان اتضح ان مناخ سنار لا يلائمهم صحيا • وقد استبعدت ود مدني لنفس السبب فيما بعد والمعتقد ان محمد علي باشا قد اختار شندي مقرا لعاصمة ملكه بناء على نصيحة الاطباء ، الا ان مقتل ابنه هناك جعله يصرف النظر عنها (١) •

فيران خورشيد باشا تنبه عند مجيئه الى اهمية موقع الخرطوم و رائها الطلق فحاول ان يعمر القرية بدعوة اهالي المناطق المتاخمة لها وبعض عائلات سنار الى الاقامة بها • فأصبحنا هذا بعض اهمية وصارت تحوى حوالي خمسمائة منزلا جديدا • وفي ١٨٢٨ بدأ تشييد مبان للمصالح الحكومية ويعتقد انها قد اعلنت عاصمة للبلاد في عام ١٨٣٠ (٢) •

واصل خورشيد باشا تشجيعه للاهالي بالانتقال للخرطوم عن طريق امدادهم بالاراضي وبمواد البناء من طوب واخشاب كي يستعملوها بدلا عن الجلود والقش وهي المواد التي كان يستخدمها السواد الاعظم في تشييد المنازل بامتناء مما كن اعتقاد ارباب العقائد و فكي حمدنا الله وقبيلة البادناب فقد كانت هي الوحيدة في القرية التي بنيت من الطوب (٣) • واستدعى خورشيد خرائب سوبا لامدادهم بالطوب فأوكل الشيخ عبد السلام زعيم المغاربة المقيمين في حلة كوكو مبترحيله الى الخرطوم (٤) ولكن سرعان ما أدى ازدياد الطلب عليه الى قيام كمائن في كل من بري والجريف (٥) •

---

(١) ابو سليم " معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم " ص ٨
(٢) المصدر السابق
(٣) الشيخ احمد كاتب الشونة ، تاريخ ملوك السودان ، مراجعة م • شبيكة ص ٢٩
(٤) المصدر السابق
(٥) ابو سليم ، "مدينة الخرطوم في التاريخ "، الخرطوم يناير (١٩٦٦) ، ص ٧

وقد صاحب اعلان الخرطوم عاصمة للبلاد توسع في المباني الحكومية ، فبنى خورشيد معسكرا للجهادية وجامعا حكوميا الا انه هدم في عام ١٨٣٤ ليقوم مكانه آخر اكثر سعة منه (١) . وقد شهدت تلك الفترة ايضا نشاطا ملحوظا من قبل الاهالي لتعمير قريتهم وتجميلها .

ويبدو ان زيارة محمد علي باشا المرتقبة في عام ١٨٣٨ قد زادت من حماس المسؤولين والاهالي لتبدو القرية في أبهى حللها (٢) . فامتدت مدن موقع حديقة الحيوان الحالي الى مباني جامعة الخرطوم (٣) .

وكانت احياؤها الهامة هي حي الحكمدارية الذي يقع شرقي المدينة حيث يقوم قصر الحكمدار الذي شيده ممتاز باشا (١٨٧١-٧٢) كمقر رسمي للحكمدار وعلى مقربة منه تقع السرايا وهي مقر الحكمدار الخاص . وكان اول من شيده هو حكمدار الا ان عبد اللطيف بك (١٨٥٠ - ١٨٥٢) اعاد بناءه وجدده ممتاز باشا فيما بعد ثم اكمل في زمن اسماعيل باشا ايوب (١٨٧٣ - ١٨٧٦) .

والى الجنوب من قصر الحكمدارية قامت مباني المديرية ، وهي تشمل البريد والبرق والمالية التي نقلها غردون اثناء الحصار الى القصر . وكانت هناك ايضا مطبعة ملحق بها مصنع للورق (٤) وقد بدأ ممتاز باشا في

---

(١) الشيخ احمد كاتب الشونه ، تاريخ ملوك السودان ، مراجعة م . شبيكه ص ٣١
(٢) ابو سليم ، " معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم " ص ١٠
(٣) ابو سليم ، " مدينة الخرطوم في التاريخ " الخرطوم ، يناير (١٩٦٦) ص ٦

(٤) ابو سليم ، " معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم " ص ١٠

تشييد مستشفى أكمله اسماعيل باشا ايوب فيما بعد (١) • وكانت شونة الجيش تقع الى شرقي السرايا وأقيم غربها مرسى للسفن وورشة لتصليحها •

اما حي المسجد فكان موقعه الى الغرب من حي الحكمدارية وهي منطقة سكنية للاعيان وكبار التجار (٢) وعلى مقربة من هذا قامت حلة موسى بسك التي جاء اسمها من اسم الحكمدار موسى بك حمدى (١٨٦٢ - ١٨٦٥) باعتباره انه شيد أول منازلها (٣) اما احياء سلامة الباشا ، النوبه ، حبوب ضرباني فقد استوطنها فقراء الاهالي (٤) •

وصحب تطور الخرطوم الحضاري تطور اقتصادي هام فأتسعت حركة التجارة الداخلية والخارجية واتخذ عدد من التجار من المدينة موطنا لهم • ففي حين كانت منطقة السوق تشمل حوالي العشرين مبنى في اوائل سني الاحتلال (٥) نجدها قد توسعت فيما بعد لتشمل منطقة للاجانب وأخرى للوطنيين امتدت كل منهما في مساحة اربعة شوارع (٦)•

ويبدو ان اهمية الخرطوم كمركز تجاري ، قد ساعدت في ابراز اسم

---

(١) ابو سليم ، " مدينة الخرطوم في التاريخ " الخرطوم يناير (١٩٦٦) ص ١٢

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤

(٣) Stevenson "Old Khartoum 1821-1885" SNR, 47 (1966), P. 24.

(٤) ابو سليم ، " مدينة الخرطوم في التاريخ " الخرطوم يناير (١٩٦٦) ص ١٥

(٥) Stevenson, "Old Khartoum 1821-1885" SNR 47 (1966) P.9

(٦) ابو سليم ، " معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم " ، ص ١٢

المدينة في الاوساط الدولية فصار يغشاها كثير من الاوروبيين والشرقيين ولعل اول من دخل الخرطوم من الاوروبيين هما الضابطان كايسو (Caisson) وكادو (Cadeau) اللذان كانا في احدى فرق جيش اسماعيل باشا (١) ، ويعتقد ان اعدادا اخرى قد دخلت البلاد بعد الفتح حتى انه في عام ١٨٢٩ كان هناك قنصل فرنسي مقيم في الخرطوم (٢) وقد مثل بريطانيا قنصل سوري الاصل يدعى خليل الشامي (٢) • وفي ١٨٤٨ وصلت بعثة الارسالية النمسوية • وفي ١٨٥٠ تم تعيين البارون ميلر (Baron Miller) قنصلا للنمسا ، وعينت بريطانيا جون باتريك (John Patherick) مساعدا للقنصل • الا ان القنصلية قد اغلقت في ١٨٦٤ عندما تواترت انباء عن اشتغال القنصل بتجارة الرقيق • عينت بريطانيا بعد ذلك روست (Rosset) قنصلا لها ، وخلفه فرانك باور الذى كان مراسلا لصحيفة التايمز في ذات الوقت •

واقد بقي في الخرطوم وشهد النصف الاول من الحصار وفي سبتمبر ١٨٨٤ اغتاله المناصير وهو في طريق عودته الى القاهرة • وقد توافد بعد ذلك ممثلو كثير من الاقطار الى الخرطوم وكان بينهم ممثلون من ايطاليا واليونان وايران وامريكا •

وتزايد عدد سكان المدينة طوال فترة الحكم المصرى التركي فقد كانت بوصفها عاصمة البلاد ومركزا هاما للتجارة تضم عددا كبيرا من الاجانب من الموظفين والتجار •

واقد نشأت طبقة مهنية تشمل أطباء وقضاة ومحامين جاءت طلائعهم

Hill, Egypt in the Sudan, p. 78. (١)

(٢) ابو سليم ، " معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم " ص ١٩

(٣) سليمان كشه ، تأسيس مدينة الخرطوم ، ص ٣٤

مع الفتح . كذلك جاء فلاحون من مصر لارشاد المزارعين السودانيين الى وسائل الزراعة الحديثة . وتسلل مع هؤلاء آخرون لزراعة المخدرات ودباغة الجلود ثم تبعهم الحدادون والبناءون والنجارون (١) ثم جاء الفنيون لتشغيل ورشة تصليح السفن . وهكذا ظلت وفود المهاجرين تتقاطر طوال فترة الحكم التركي المصري طلبا للرزق في دواوين الحكومة كتبة ومحاسبين او في الاعمال الحرة . كذلك هاجرت الى السودان فئة كانت تجد فيه ملاذا للتهرب من الضرائب الباهظة التي تجبى في شمال الوادي بنسبة أعلى منها في جنوبه (٢) .

وقدر عدد سكان الخرطوم ب ٠٠٠ر١٥ نسمة تقريبا في ١٨٣٠ . ثم قفز هذا العدد الى ٠٠٠ر٢٠ في ١٨٤٠ والى ٠٠٠ر٣٠ ـ ٠٠٠ر٤٠ في عام ١٨٥٠ وفي ١٨٧٥ قدره احد الزوار ب ٠٠٠ر١٠٠ (٣) ، الا ان اخر قدره في عام ١٨٨٣ ب ٠٠٠ر٥٠ (٤) .

ويبدو ان هذا الانخفاض يعود الى اندلاع الثورة المهدية حيث هجرت المدينة أعداد كبيرة من الاجانب والوطنيين .

لقد خلق الفتح التركي المصري الخرطوم وطورها من قرية صغيرة لصائدي الاسماك الى عاصمة للبلاد تتمتع ببعض مقومات الحضارة بمقاييس تلك الازمان . وقد ظلت الجهود تبذل على مدى الستين عاما لتصبح الخرطوم مقرا مريحا للحكام والتجار وممثلي الدول الاجنبية ورغم هذا

---

(١) Hill, Egypt in the Sudan, p. 48.

(٢) ابو سليم ، "معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم" ص ١٣

(٣) المصدر السابق

(٤) Stevenson, " Old Khartoum 1821-1885" SNR 47 (1966), P. 17.

فقد تضاربت الاراء حول نجاح تلك المساعي ، فوصفها احد الزوار بأنهـــا تتمتع بموقع ممتاز وطبيعة ساحرة حيث ترقد في ملتقى النيلين الابيض والازرق ، وتبدو كمدينة متحضرة (١) وعلق آخر بأن الخرطوم تكشف عـن ذوق معماري سيء لضيق شوارعها وعدم تناسق مبانيها ووجود المقابـــر في وسط المناطق السكنية (٢) .

---

(١) ابو سليم ، " معلومات عن تـاريخ مدينة الخرطوم" ، ص ١٤ .

(٢) المصدر السابق

المهدى من أبا الى الخرطوم

في عام ١٨٨١ تقاطرت الانباء لرؤوف باشا ، حكمدار عموم السودان ، بأن شيخا يدعى محمد احمد قد أعلن انه المهدى المنتظر في جزيرة أبا (١) • ومن توه سارع رؤوف باشا لتأمين مساندة علماء المدينة له قبل ان يعلن انه لن يتهاون في قمع مثيري مثل هذه الادعاءات (٢) ومن ثم بعث بأحد معاونيه ، محمد ابو السعود ، ليعود بالمهدى الى الخرطوم بالتي هي احسن •

---

(١) محمد أحمد بن السيد عبد الله ، ولد في حوالي ١٨٤٠ في جزيرة لبب قرب دنقلا • هاجرت عائلته الى الخرطوم وراء البحث عن ميدان أغنى واكثر ربحا لصناعة المراكب ولنفس السبب واصلت العائلة هجرتها جنوبا حتى استقرت في جزيرة أبا حيث تتواجد كميات وفيرة من خشب الغابات • تلقى محمد أحمد تعاليم القرآن في خلوة احد رجال الدين وأبدى ميلا شديدا للاستزادة من العلم فالتحق بخلوة شيخ الامين الصويلح • ثم ارتحل الى قرية الغبش حيث تقدم لخلوة شيخ محمد الخنكي وبالقرب من بربر • ثم ما لبث ان تركه الى شيخ محمد شريف نور الدايم واستقر به المقام أخيرا مع شيخ القرشي •

يبدو أن المهدى قد بدأ اتصالاته مع شيوخ الاسلام ورجال الدين بعد وفاة الشيخ القرشي فكان يحدثهم عن تدهور التقاليد الاسلامية وأصول الدين ، ثم قام برحلة الى كردفان وعند عودته منها أعلن انه المهدى المنتظر •

نعوم شقير ، ص ٦٣٢ - ٤٤

Holt, The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, p.47

Shibeika, British Policy in the Sudan, pp.12-20

(٢) Hill, Egypt in the Sudan, p. 164.

ويعتقد ان الشيخ محمد شريف قد سبق أن لفت نظر الحكمدار الى خطورة النشاط الذي يمارسه المهدى الا ان هذا لم يسره التفاتا وأرجع اشارة محمد شريف الى التطاحن التقليدى الذى كان قائما بين الرجلين (١) ٠

ولكن مهمة أبي السعود السلمية باءت بالفشل فأرسل رؤوف باشا قوة عسكرية لتجبر المهدى على الانصياع له عنوة ٠ الا ان المهدى تمكن من انزال هزيمة ساحقة بهذه القوة في اغسطس ١٨٨١ (٢) ٠

وقد لاقت حملة حاكم فاشودة ، راشد ايمن في ديسمبر ١٨٨١ نفس مصير قوة الجزيرة أبا (٣) ٠

وذان ان اعقبت هزيمة الحكومة في معركتين متتاليتين تصاعد كبير في شهرة المهدى ٠ ولم يجد رؤوف باشا بدا حينئذ من الاتصال بالقاهرة طالبا للعون (٤) ، كانت القوات المصرية في السودان تفتقر الى المقدرة الحقيقية للتصدى لهذه الثورة التي ظهرت بوادرها اذ ان غالبية افرادها كانوا من الباشبوزق ، غير النظاميين ، وغير المؤهلين عسكريا ٠ ولم تكن ثمة استعدادات للخوض في حرب مهما كان نطاقها ٠ فشرعت السلطات في تشييد التحصينات في المدن الرئيسية على عجل ، فجاءت تحمل كثير من

---

(١) Holt, The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, p.47

(٢) Shibeika, British Policy in the Sudan, P.25

(٣) نعوم شقير ص ٦٥٧

(٤) Holt, The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, p.49

الاخطاء الفنية أفقدتها فوائدها الدفاعية (١) ٠

جند المهدى، من ناحية اخرى، ٨٠٠٠ مقاتل تقريبا وأصابت هزيمته لراشد أيمن بكمية من المال والسلاح والذخيرة ٠ ثم دعم موقفه اكثر بانتصاره على يوسف الشلالي في مايو ١٨٨٢ فوجه بهذا ضربة قاصمة للحكم التركي وارتفعت سمعته الى آفاق ابعد (٢) فقفز عدد مؤيديه الى ما يقارب ٢٠ ألفا وبدأ بعضهم يشعل نار الثورة في مناطقهم ٠

أيقنت الحكومة في القاهرة عندئذ ان ما يجرى في السودان أمر خطير ورغم هذا اقتصرت استجابتها على ارسال فرقة من الزنوج تحت قيادة ابراهيم بك فوزى (٣) وكما يحدث عادة في مثل هذه الظروف من تعليلات وتبريرات فقد ارجعوا الهزيمة الى ضعف في الجهاز الادارى وليس لسوء الاداء العسكرى ومن ثم تم استدعاء رؤوف باشا وعين مكانه عبد القادر باشا حلمي في مطلع ١٨٨٢ ٠

حال وصوله اصدر عبد القادر باشا تعليماته لتعزيز التحصينات في كل من الخرطوم وسنار وبارا والدويم والكوه وفشوده (٤) ٠ وقد بدأ واضحا ان القوات الموجودة في البلاد كانت عاجزة عن احراز اى نصر ٠ فكرر عبد القادر باشا مطالبته للقاهرة لتساعده بارسال كتائب اضافية فلم يجد استجابة اذ كانت الحكومة هناك تسعى آنئذ لايجاد مخرج لمشاكلها الداخلية ٠

---

(١) نعوم شقير ، ص ٦٢٥ — ٦

(٢) Holt, The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, p.50

(٣) Shibeika, British Policy in the Sudan, p. 32.

(٤) Ibid.,

بعد ان هزم قوات الحكومة في ثلاث معارك قرر المهدى التقدم نحو قلب كردفان • سقطت بارا والابيض في يناير ١٨٨٣ وتبعتهما المراكز الصغيرة المتناثرة في المديرية فخضعت له بأسرها • ولم يكن نشاط الانصار مقتصرا على كردفان وحدها ، فقد لوحظ انتشار موجات من التمرد على السلطة التركية في كل من بحر الغزال والاستوائية منذ ١٨٨٦ • وتأكد نشاط اتباع المهدى في جهات متفرقة من الجزيرة • وكانت سنار في حالة حصار منذ بداية ١٨٨٢ وكسلا والقضارف في نوفمبر من ذات العام •

وفي اكتوبر ١٨٨٣ سقطت سواكن وانقطع الاتصال بين الموانئ وقرى جبال البحر الاحمر ووقع طريق سواكن -- بربر في قبضة الانصار •

واصل حكام الخرطوم ضغطهم على القاهرة لتمدهم بالجنود والعتاد لوقف تيار الثورة • ولم تكن حكومة الخديوى في موقف يسمح لها بذلك • فقد كان الجيش الجديد في اولى مراحل التكوين

ولم تكن بريطانيا تسمح بايفاد اى وحدات منه الى السودان • فأضطرت الحكومة الى ارسال فلول جيش عرابي المسرح • ولم يكن لهؤلاء رغبة في القتال فقاوموا اعادة تجنيدهم فرحلوا الى السودان عنوة (١) •

وكان ان مني هذا الجيش الذى قاده احد الضباط البريطانيين المتقاعدين -- هكس باشا -- بهزيمة ساحقة في الخامس من نوفمبر ١٨٨٣ قضت على جميع افراده تقريبا وكان أن ادت هذه الهزيمة الى انهيار الحكم المصرى في كل من دارفور وبحر الغزال مباشرة (٢) •

وقد تضاعفت ثقة المهدى في نفسه ومقاتليه بعد ان انهزم امامه

---

(١) Shibeika, British Policy in the Sudan, p. 46.

(٢) Holt, The Mehdist State in the Sudan 1881-1898, p.66.

ذلك الجيش الذي يقوده ضابط بريطاني بمساعدة مجموعة من الضباط الاوروبيين والاتراك . كان واضح انه يملك المقدرة ليسيطر على البلاد بكاملها الا ان هذا لا يعني أكثر من التصدي لعاميات صغيرة تضم في مجموعها الباشبوزق وبعض الجهادية . فأنتشرت موجة من الذعر في الاوساط الرسمية وأيقنوا ان الخرطوم بلا شك ستكون هدف المهدي في القريب فأتخذت جملة ترتيبات لتقوية وسائل الدفاع في المدينة .

كانت خطة المهدي هي محاصرة الخرطوم حتى التسليم . فبدأت اولى مراحل الحصار في مطلع ١٨٨٤ بنشوب ثورة الاهالي الذين استنفرهم المهدي في نواحي الخرطوم . ويرسل محمد عثمان ابو قرجه على رأس مقاتليه في يونيو بدأت المرحلة الثانية من الحصار (١) ثم اوفد المهدي بعد ذلك بعبد الرحمن النجومي فباشرت قواته من توها حصار الخرطوم ومارست مزيدا من الضغط

---

(١) محمد عثمان ابو قرجة ، د. نقلاوي يعتقد انه كان يسكن في الخرطوم ويعمل " نوتيا " في مركب تخص حمد الحقد ، انضم الى الانصار واشترك في معارك شيكان وجبال النوبة .

اوفده المهدي ليتم تسليم عالي المك في تداسي على يديه ثم سار الى الخرطوم وبقي معها ربما ولعب دورا رئيسيا في احداث تلك الفترة حتى في شرق السودان في زمن الخليفة عبد الله ولكنه استدعي الى ام درمان بسبب الخلافات التي نشبت بينه وعثمان دقنة .

اتهم بالاتصال بالايطاليين وأبعد الى الرجاف . أطلق البلجيك سراحه فسار الى دارفور ثم عاد الى أم درمان وبقي فيها حتى وفاته ١٩١٦ .

Hill, A. Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, P. 279.

عليها فدخل الحصار بهذا مرحلته الثالثة (١) رفي اكتوبر ١٨٨٤ حل ركاب المهدى تصحبه جموع مؤيديه فتمكنوا من السيطرة على كل المناطق المحيطة بالعاصمة وبقوا في مواقعهم تلك حتى تم لهم الاستيلاء على الخرطوم .

---

(١) عبد الرحمن النجومي ، جعلي ، انضم الى المهدى في ١٨٨١ ، شارك في معارك كردفان وبعد شيكان قاد الحملة التي جردها المهدى ضد جبل الداير . لعب دورا بارزا في حصار الخرطوم وبعد سقوطها تعقب حملة الانقاذ الى أن وصل بربر ولكنه استدعي ثم عاد الى الشمال مرة اخرى ليقود جيشه الذى انهزم في جنيس . قاد الحملة التي كان مقررا لها ان تغزو مصر فتصدت لها قوات جرنفيل وقتل النجومي في معركة توشكي في اغسطس ١٨٨٩ .

Hill, A. Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, P. 17.

الفصل الثالث

مهمة غوردون وخطته السلمية

جاء الاحتلال البريطاني لمصر في سبتمبر ١٨٨٢ ليخلق لها ازمة في كيفية التصدى للمشكلة التي نشبت في السودان اذ لم يعد الخديوى وحكومته هما السلطة صاحبة الحل والعقد بل اصبح لزاما عليه ان يستشير جهات اخرى قبل اتخاذ خطوة ما .

ولقد اتسعت رقعة السلطة لتشمل مكتب المندوب البريطاني ، ايفلن بيرنج ، وحكومة صاحبة الجلالة نفسها . وبتعدد مراكز السلطة تعددت المقترحات حول الوسيلة المثلى لحل ازمة السودان . كانت كل جهة تحاول ربط الحل بظروفها ومصالحها الخاصة ، فكان لا بد من الدراسة الجادة المتأنية للموقف بكل متطلباته حتى يمكن الاتفاق حول سياسة موحدة واضحة المعالم . بيد ان شيئا من هذا لم يتم فتباينت وجهات النظر واختلفت الاراء بالصورة التي سيتم عرضها في هذا الفصل .

ثبت لمراكز السلطة ان نفوذ المهدى آخذ في الازدياد ولم يكن هناك بد من سحب الرعايا من جند ومدنيين من البلاد . في نهاية عام ١٨٨٣ بدأت المشاورات تدور حول الكيفية التي سيتم بها الانسحاب ورغم ان الاتفاق قد تم آخر الامر على اختيار غوردون للعمل بالسودان الا ان الصعاب التي اعترضته فيما بعد كان مردها بدرجة كبيرة الى الاسلوب الذى عولجت به المشكلة من اساسها فهو أسلوب تميز بالارتجال وافتقر للدراسة الموضوعية .

طبيعة مهمة غوردون

ولعل اولى القضايا التي عولجت بهذا الاسلوب هي المهمة التي بعث غوردون للسودان من اجلها • فمن جهة تعتقد انها استشارية بحتة ، الى طرف آخر يعتقد من البداية انها تنفيذية من الدرجة الاولى ، الى جهة ثالثة درجت على تغيير موقفها بين هذا وذاك •

ويبدو ان هذا التضارب في الاراء يعود الى الظروف والملابسات التي صاحبت اختيار غوردون لتلك المهمة •

في مطلع نوفمبر ١٨٨٣ قدم وزير الخارجية البريطاني ، جرانفيل (١)

---

(١) جرانفيل جورج ، ليفسن - جاور (١٨١٥ - ١٨٩١) من زعماء حزب الاحرار ، شارك هارتنقتون في قيادته عند تقاعد جلادستون وانسحابه من الحياة العامة في ١٨٧٤ ولكن عند انهزام حكومة المحافظين في ١٨٨٠ نودي جلادستون ليشكل حكومة من الاحرار فشغل جرانفيل فيها منصب وزير الخارجية • حمل جرانفيل مع زملائه مسؤولية مقتل غوردون في الخرطوم وضياع الحاميات ورغم ان الحكومة قد استقالت في ١٨٨٥ لفشلها في كسب التأييد اللازم لامر يتصل بالميزانية الا ان السبب الحقيقي كان في سياستهم نحو السودان • وفي وزارة جلادستون الثالثة عين جرانفيل وزيرا للمستعمرات وبعد خروج تلك الوزارة من السلطة بقي زعيما لحزبه في مجلس اللوردات حتى وفاته D.N.B., P. 3326.

اقتراحا الى رئيس الوزراء جلادستون (١) ، يدعو الى ايفاد غوردون الى " مصر " دون ادنى تحديد للدور الذى سيضطلع به (٢) وجاء هـذا الاقتراح في وقت لم تكن فيه بريطانيـا قد قررت شيئا فيما يختص بالسودان بعد • هل ستمضى خطة لاخلائه فقط ام الاستغناء عنه كلية ام سترسـل قوات اجنبية لاحتلاله ؟ •

ولقد كان واضحا لدى الرأى العام البريطاني ان العـواقـب المترتبة على سياسة التـردد هذه جد وخيمة ، ومن ثم وجهت حمـلات نقد عنيفة للحكومة من الدوائر الشعبية والبرلمانية تطالبها باتخـاذ موقف حاسم وعاجل ويبدو ان جرانفيل تقدم باقتراحه لارسال غوردون ليحاول التخفيف من حدة ذلك الهجوم ، فهي ليست خطوة ايجابية فحسب بـل ان الجنرال كان يتمتع بسمعة طيبة في كل من مصر وبريطانيا ، وتعيينـه بلا شك سينظر اليه بعين الرضا والاستحسان في البلدين (٣) وبعد ان تأكد جرانفيـل من موافقة جلادستون أبرق بيرنج يسأله اذا كـــــان

---

(١) جلادستون ، وليم — اوارت (١٨٠٩ — ١٨٩٨) زعيم حزب الاحرار ، جاء للحكم عام ١٨٨٠ بعد هزيمة المحافظين بقيادة دزرائيلي • وفي فترة حكمه تم التصدى العسكرى لثورة عرابي في مصر في سبتمبر ١٨٨٢ • كرس جهد وزارته للاصلاح البرلماني الذى كان على حساب الاهتمام بمشكلة السودان ففشلوا في اتخاذ الخطوات المطلوبة في الوقت المناسب لانقـاذ غوردون • انهزمت حكومته بعد عدة اشهر من مقتل الغردون ولكنه عـاد مرة اخرى في ١٨٨٦ ليبقى لفترة قصيرة D.N.B. p. 4001-2

(٢) جرانفيل الى جلادستون ، ٢٧ نوفمبر ١٨٨٣ Bm, Add. MS. 44176.

(٣) جـرانفيـل الـى جـلادستـون ٢٧ نـوفمـبر ١٨٨٣ Bm, Add. MS. 44176.

بالامكان الاستفادة من غوردون وكيفية هذه الاستفادة (١) ويمكن ان يستشف من هذا ان المهمة التي ستوكل لغوردون لم تتحدد لدى جرانفيل بعد •

سارع بيرنج ورفض هذا العرض الا انه لم تمض ثلاثة اسابيع حتى بعث برسالة يطلب فيها الموافقة على تعيين أحد الضباط البريطانيين للعمل في السودان وتجنب الاشارة الى امكانية شغل غوردون لهذا المنصب (٢) • وتجدر الملاحظة هنا انه حتى هذه اللحظة لم تكن خطتهم نحو السودان قد اتخذت شكلا نهائيا واضحا •

وفي مطلع يناير ١٨٨٤ استقر رأى بيرنج والحكومة المصرية على اخلاء السودان • فبعث لوزارة الخارجية البريطانية بنص برقية كان دى كتلوجن (De Coetlogen) قد بعث بها للخديوى من الخرطوم وفيها يحثه على ضرورة الاسراع باصدار تعليمات الانسحاب مباشرة ، اذ ان البلاد بأكملها قد أعلنت الحرب ضد الحكومة المصرية التي لا تملك الامكانات المادية لمواجهتها • ومن ثم ارفق بيرنج مع هذه البرقية مذكرة جاء فيها " ان التعليمات الاولية قد صدرت للاستعداد للانسحاب ، سيصل وزير الحربية الجديد غدا حيث يكون بالامكان اصدار تعليمات مفصلة للاخلاء " (٣) لم يشر بيرنج هنا الى أمر الضابط البريطاني الذى سبق أن طلبه ، ربما لانه كان يأمل ان يوكل بالمهمة التي حددها للضابط لعبد القادر باشا حلمي وزير الحربية المصرى الذى جاء ذكره في المكاتبة •

---

(١) جرانفيل الى بيرنج ١ ديسمبر ١٨٨٣ — B.M, Add.MS.44176

(٢) بيرنج الى جرانفيل ٢٢ ديسمبر ١٨٨٣ — Egypt, No.2

(٣) بيرنج الى جرانفيل ، ٦ يناير ١٨٨٤ — Egypt, No.1

أعقب هذا اقتراح من جرانفيل يعرض فيه اسمي غوردون وتشارلز ولسن مستفسرا عما اذا كان هناك سبيل لاستخدام اى منهما (١) ويبدو ان بيرنج قد فهم من هذا ان وزير الخارجية يسعى لايفاد احدهما لمساعدة عملية الانسحاب . وبما انه كان يفكر في اسناد المهمة لعبد القادر باشا فقد جاء رده للمرة الثانية بالنفي (٢) . بعد ثلاثة أيام بعث اليه برسالة جاء فيها " سيسافر عبد القادر باشا الى الخرطوم ، لقد صدرت التعليمات لاخلاء النساء والاطفال .. الخ ... وسحب حامية سنار الى الخرطوم " (٣) . في نفس اليوم استشار جرانفيل رئيس الوزراء في امر تعيين غوردون لمهمة هي نفسها قيادة الحاميات المنسحبة ، اذ انه كتب يقول " علينا ان نستشير غوردون اذا كان بامكانه ان يستغل نفوذه الشخصي وسط القبائل لتأمين انسحاب الجند والاهالي من الخرطوم الى سواكن " (٤) .

تجاهل جرانفيل رفض بيرنج عندما طلب منه استخدام غوردون مرتين على التوالي وعزا هذا الى مشاجرة قديمة بين الرجلين (٥) .

وفي ١٥ يناير أبرق جلادستون وزير الخارجية معبرا عن تأييده المطلق لكل مقترحاته (٦) ، اذن فقد كان جرانفيل يأمل في ارسال غوردون في مهمة تنفيذية . ولكنه عندما ارسل اخطارا لبيرنج بهذا حدد له مهمة غوردون بصورة مغايرة تماما لتلك التي اوضحها لرئيس الوزراء . فقد ذكر لبيرنج ان ايفاد غوردون قد يساعدهم في جمع معلومات عن الموقف

---

(١) جرانفيل الى بيرنج ١٠ يناير ١٨٨٤ — Egypt, No. 2.
(٢) بيرنج الى جرانفيل ١١ يناير ١٨٨٤ — Egypt, No. 2
(٣) بيرنج الى جرانفيل ١٤ يناير ١٨٨٤ — PRO, FO ٧٨ No. 21
(٤) جرانفيل الى جلادستون ١٤ يناير ١٨٨٤ — BM, Add. MS. 44547
(٥) المصدر السابق
(٦) جلادستون الى جرانفيل ١٥ يناير ١٨٨٤ — BM, Add. MS. 44547

الراشن في السودان (١) • هناك عاملان يحتمل ان يكونا السبب وراء هذا التغيير المفاجئ ، اولهما من الجائز ان يكون جرانفيل قد تسلم رسالة بيرنج التي أعلن فيها تعيين عبد القادر باشا بعد أن بحث بمذكرته لوجلادستون ومن ثم قرر ايفاد غوردون في مهمة تكميلية لمهمة عبد القادر باشا • امـــا العامل الثاني فهو المقابلة التي تمت بين غوردون وولزلي والتي أوضح فيهــا غوردون انه لن يستطيع ان يتقدم بأية توصيات دون الالمام بأطراف القضية في موضعها • فهو اذن يرفض ان يقوم بمهمة تنفيذية ويعرض خدماتــه لدراسة الوضع فقط وهذا بالضبط هو المفهوم الذى حدده جرانفيل فـي رسالته لبيرنج • وهذا يعني ، من ناحية اخرى ، أن التوصيات التي يفترض ان يرفعها غوردون قد تتعارض تماما مع سياسة الاخلاء التي سبق أن اقرتها الحكومة ، والتي اعتبرت غير قابلة للنقض • ومن هنا اتجه تفكير جرانفيــل ليكسب القضيتين ، ان يرسل غوردون للسودان لا ليتقدم لهم بمقترحات حول كيفية حل المشكلة ، بل ليقترح لهم داخل الاطار العام لسياستهم وهــو الانسحاب ، فجاءت التعليمات لغوردون ليقرر لهم افضل السبل التـــي يمكن اتباعها لتأمين انسحاب الحاميات المصرية في سلام (٢) •

كان بيرنج بوصفه الرجل الاول الذى يقع عليه عبء مجابهة المشكلة أكثر احساسا بخطورة الوضع وأكثر دراية بمتطلبات الموقف من حكومته ، فكان رأيه انهم ليسوا في حاجة لاى معلومات عن كيفية تنفيذ عملية الاخلاء بل هم في حاجة الى من يقود العملية مباشرة ، فالامور تتطور بسرعة مذهلة ومن الضروري الشروع في التنفيذ والا ضاعت فرصة رعايا الحكومة المصرية في النجاة •

---

(١) جرانفيل الى بيرنج — PRO, G/D 29/162 No.21

(٢) جرانفيل الى غوردون (التعليمات) — Egypt, No.2

رفض عبد القادر باشا حلمي المنصب الذي عرض عليه وبعد ئـــــذ بعث بيرنج برسالة الى جرانفيل موجهة من الحكومة المصرية مفادها ان هذه الاخيرة " ستشعر بالامتنان اذا اعارتها بريطانيا احد الضباط البريطانيين ليقوم بالمهمة التي رفضها وزير الحربية ، وسيخول سلطات مطلقة عسكرية ومدنية لتنفيذ عملية الانسحاب" (١) . وفي ذات اليوم تسلم بيرنج برقية من جرانفيل مقترحا تعيين غوردون للمرة الثالثة . فما كان منه الا ان اجاب بأن غوردون هو الرجل المناسب تماما ليس للمهمة التي حددها جرانفيل في رسالته السابقة وانما كبديل لوزير الحربية ولا بد ان الحكومة البريطانية كانت على علم بأن مهمة وزير الحربية هي مهمة تنفيذية ولا مجال هناك لرفع توصيات او تقديم معلومات .

ان صياغة تعليمات غوردون بعد يومين من استلام رســـالة بيرنج وتحديدها لمهمته بأنها تقريرية فقط ، تكشف انهم قد تجاهلوا تلك الرسالة تماما . وقد ارفق جرانفيل مع تعليمات غوردون مذكرة الى بيرنج يقول فيها انهم قد ارسلوا غوردون ليمدهم بمعلومات . ويبدو ان الحكومة البريطانية ارادت التحفظ في هذا الامر اذ انه في حالة ايفاده في مهمة تنفيذية سيكون لزاما عليهم مساندته بكافة الوسائل حتى يتم تنفيذ تلك العملية .

اما المهمة التي وافقوا عليها كتابة في تعليماتهم فهي تلزمهم فقط بضمان سلامته شخصيا ، ولعل هذا يفسر لنا وجود الفقرة التي تنص على ان ينفذ غوردون اي مهام توكل اليه من قبل الحكومة المصرية ، ولم يكن سرا ان الحكومة المصرية ستعهد اليه بقيادة عملية الانسحاب .

وقد وافقت الحكومة البريطانية ضمنيا على هذا ولهذا يصبح من

---

(١) بيرنج الى جرانفيل ١٦ يناير ١٨٨٤ Egypt,No.2

الصعب وجود تفسير للآراء التي ضمنت في التعليمات ، فهم يبحثون بغوردون ليمدهم بمعلومات عن أفضل السبل لتنفيذ الاخلاء من علمهم في ذات الوقت بأنه سيقوم بهذه المهمة دور وحوله • ولعل الحكومة البريطانية ارادت ان تخفي نفسها من المسؤولية فأوكلت للحكومة المصرية امر تفويض غوردون لينفذ تلك المهمة وتتحمل هي بالتالي التبعات المترتبة على هذا دون ان تحرج بالحكومة البريطانية في المسألة •

وضح بيرنج تعليمات جرانفيل جانبا وأخطاره في رده عليه أن الاوامر قد صدرت للجهات المعنية لتعمل على ترحيل المدنيين الى بربر وأوضح ان واجب غوردون سيكون اساسا تنظيم عملية الانسحاب (١) ، اذن فقد كان بيرنج يرى في مهمة غوردون من البداية الى النهاية عملية تنفيذية بحتة وقد جاءت آراؤه المضمنة في رسائله منذ التاسع من يناير ١٨٨٤ تتوافق تماما مع هذا الفهم • اما جرانفيل فقد اقترح في بادئ الامر مهمة غامضة غير واضحة المعالم ، ثم عاد فعدلها لمهمة تنفيذية وانتهى بمهمة تقريرية • اما غوردون فرغم اعلانه بأنه لن يستطيع ان يتقدم بتوصيات دون مواجهة الموقف على الطبيعة سرعان ما اتخذ موقفا مغايرا • فبعد اربعة ايام من مغادرته لبريطانيا كتب مذكرة مطولة مفادها ان مهمته هي تأمين اخلاء المدنيين والجند من تلك البلاد بسلام (٢) وقد كان من جراء هذا أن لم تناقش المهمة بوصفها هذا على أى مستوى في بريطانيا قبل مغادرة غوردون ، اذ كان هو والحكومة البريطانية يعتقدان أنه مبعوث ليرفع لهم تقريرا فقط •

---

(١) بيرنج الى جرانفيل ١٩ يناير ١٨٨٤ — Egypt ,No.2

(٢) مذكرة غوردون ٢٢ يناير ١٨٨٤ — Egypt,No.7.

اخــلاء السـودان :

لعــل تضارب الاراء حــول المهمــة نفسها ، هو النتيجة المنطقية للاسلوب الذى عولجت به طبيعة مهمة غوردون . فبعد وصوله الى القاهرة تم الاتفاق ، بصــورة عامة ، بيــن الاطراف المعنية على ايفـاده ليخـلى السودان دون التعرض للتفاصيل هنا ، اى هل سيخلى كل الحاميات التي ما زالت صامدة في وجه قوات المهدى ، او انه سيخلي حاميات بعينهـــا ، وما هي هذه الاخيرة ؟ وهل ستشمل العملية كل المدنيين ، او فئــــات منهم ، او اولئك المقيمين في مدن معينة ؟ كانت كل جهة تحمل افكـارا خاصة بها حول هذه المسائل ، الامر الذى ادى بصورة مباشرة الى بقـاء غـوردون داخل استحكامات الخرطوم عاما كاملا محاولا ان يصل مــــع الاطراف المعنية الى اتفاق ، في حين استفاد المهدى من عامل الزمن وحشد طاقاته حول المدينة .

تضاربت الاراء منذ البداية حول موضوع الاخلاء ، ففي الفتـرة التي كان جرانفيل يدعو فيها الى ايفــاد غوردون لقيادة عملية الانسحــاب ، كان من رأيــه ان تشمل العملية كل الحاميــات الموجودة داخــــــل السودان باستثناء موانئ البحر الاحمر (١) . وقــد قــدر عدد جند الحاميات في ذلك الحين بحوالي ١٥ الف ، كــان توزيعهــم في اواخر

---

(١) جـرانفيــل الـى بيـرنـج - ٤ ينـايـر ١٨٨٤
Egypt,No.3 Enclosure 209

١٨٨٣ كالاتي : (١)

دنقلا	٨٩٧
بربر	٦١٦
الخرطوم	٢٤٩٠
كسلا	١٢٥٩
سنار	٣٨٩١
قلابات	٥٩٣
الدويم	١٠٨٧
الكسوة	٥٠٠
فشودة	٢١٣١
بحر الغزال	٨٨٦

ويبدو ان الحكومة البريطانية قد باتت تعتقد بعد ارسال غوردون ان مهمته هي سحب جميع الحاميات اذ صرح رئيس وزرائها في مجلس العموم بأن غوردون سيعمل على اخلاء حوالي ٢٩،٠٠٠ شخص (٢) . ولعله يشير هنا الى الخمسة عشر الف جندي بالاضافة الى عدد مماثل من المدنيين . كما اعلن احد اعضاء تلك الحكومة نورث بروك في وقت سابق ان عملية الانسحاب ستشمل كل الحاميات الموجودة داخل القطر (٣) .

---

(١) تقرير من بيرنج الى جرانفيل ٣ ديسمبر ١٨٨٣ نشر في التايمز ١٨ فبراير ١٨٨٤ .

(٢) حديث جلادستون Hansard, Parliamentary Debates Vol. 284. P. 724.

(٣) نورث بروك الى بيرنج ١٣ ديسمبر ١٨٨٣ . PRO, FO/633 No. 6.

اما بيرنج فقد أبدى تناقضا ملحوظا في آرائه فيما يتعلق بـــرأي الحاميات يجب سحبها • ففي الثاني والعشرين من نوفمبر ١٨٨٣ بعـــث برسالة الى جرانفيل يقترح فيها ان تشمل عملية الانسحاب حامية الخرطــوم والمراكز المجاورة بالاضافة الى التجار الاوروبيين والقساوسة الكاثوليك الموجودين في العاصمة (١) • ومن الصعب تحديد اي المراكز يعني بالمجاورة ويبدو انــه يشير الى حاميات الجزيرة الصغيرة المنتشرة جنوبا الى جهات الدويم والكوة ، ومن المستبعد ان تكون حامية سنار داخل هذا التعريف ، اذ انــه قدر العدد الكلي بحوالي ٦٠٠٠ نسمة (٢) ولكنه عاد وغير رأيه بعد حوالــي شهر من هذا اذ بات يعتقد ان الضابط البريطاني الذى سيوفد الـــــى السودان سيعطى صلاحيات كاملة ليقوم باخلاء جميع الحاميات (٣) • ويعترف بيرنج بأن هذه العملية ستكون شاقة معقدة ، وان سحب حاميتي سنار والخرطوم وحدهما سيجلب مشاكل لا حصر لها •

ولعله لهذا يقترح ترك الحاميات النائية في اماكنها اذ ان افرادها لا يتعرضون لخطر مباشر فهم قــد استوطنوا في تلك الاصقاع وخلقوا علائــق ود مع الاهلين (٤) • ومن الجائز ان يكون رأى بيرنج قد استقر اخيـــرا على سحب حاميات الخرطوم والجزيرة وسنار الا انه لم يشر الى هذا من قريب او بعيد في التعليمات التي صدرت لغوردون من القاهرة •

اوضحت تلك التعليمات ان الخديوى له رغبة اكيدة في بـــذل كل ما يمكــن من جهد لاخلاء رعـــايا الحكومة المصريـــة دون اراقة دمـــاء

---

(١) بيـــرنج الى جرانفيـــل ٢٢ نوفمبر ١٨٨٣ PRO,FO./633 No.14.

(٢) المصدر السابق

(٣) بيرنج الى جرانفيل ، ٢٢ ديسمبر ١٨٨٣ Egypt,No.1.

(٤) بيرنج الى جرانفيل ، ١٤ يناير ١٨٨٤ PRO.FO/633.No.12

ولم تحدد بالتالي اماكن او فئات معينة (١) • ووصف فرمان التعيين مهمة غوردون بصورة فضفاضة هي اخلاء السودان وسحب الجند المصريين دون الدخول في التفاصيل (٢) •

اذن فقد كانت السياسة المقررة في بادئ الامر هي سحب كل الحاميات المصرية في السودان وقد أكد هذا اقتراح بيرنج فيما بعد الرامي الى التضحية بحاميات سنار وبحر الغزال والاستوائية اذا ثبت أن هناك استحالة في اخلائها (٣) • وهذا يعني ان الخطة الاولى كانت تشملها وقد كان غوردون يحمل هذا الرأى منذ ان صاغ اول مذكرة له في ٢٢ يناير ١٨٨٤ (٤) • وقد جاءت رسائله من الخرطوم تحمل التزاما بتلك السياسة •

وفي مطلع مارس ١٨٨٤ بعث لبيرنج برسالة يقول فيها ان اخلاء الخرطوم مباشرة لن يكون في مصلحتهم • اذ ان سقوطها في ايدى الانصار سيكون حتميا وسيتعذر ، وفقا لهذا ، سحب الجند والمدنيين من كسلا وسنار وبحر الغزال والاستوائية (٥) واوضح له انه لن يغادر السودان ، حتى لو تم استدعاؤه الا بعد ان يتأكد من ان جميع الرعايا الاجانب قد غادروا البلاد (٦) •

---

(١) بيرنج الى جرانفيل ، ٢٨ يناير ١٨٨٤ — Egypt, No.6

(٢) بيرنج الى جرانفيل ، (الخديوى الى غوردون باشا ٢٦ يناير ١٨٨٤) Egypt.No.12, *Enclosure 15*

(٣) بيرنج الى جرانفيل ، ١٤ مارس ١٨٨٤ — PRO,FO.78/4194

(٤) مذكرة غوردون ٢٢ يناير ١٨٨٤ — Egypt.No.7.

(٥) غوردون الى بيرنج ٣ مارس ١٨٨٤ — PRO,FO.78/13668.

(٦) المصدر السابق

وقد كان هذا رأى غوردون من البداية الى النهاية ولم يعترض عليه بيرنج ولا الحكومة البريطانية ، أذن ليس هناك أساس مقنع لقول بيرنج ان غوردون قد حور في مضمون تعليماته لتتناسب ورغباته الخاصة وان مهمته كانت تنحصر على سحب حامية الخرطوم وبذل ما يمكن من جهد لبقية الحاميات (١) . هذه بالتأكيد لم تكن السياسة التي سبق أن اعلنت وتعهد غوردون بتنفيذها ووافق عليها بيرنج والحكومة البريطانية . حقيقة لقد حدثت مراجعة للموقف فيما بعد عندما خابرهم غوردون باستحالة اخلاء جميع المناطق دون عون عسكرى وسياسي من الخارج . أعلنت بريطانيا عندئذ اعتراضها على ارسال أية قوات للسودان ، ووجهت غوردون الى قيادة حامية الخرطوم شخصيا الى بربر مباشرة (٢) . وكان رأيهم انه اذا تمكن غوردون من سحب حاميات الخرطوم وبربر ودنقلا سيكون هذا في ذاته مكسبا كبيرا (٣) . ولكن غوردون رفض هذه المراجعة وأعلن انه لن يغادر البلاد حتى يعطى كل شخص يبتغي العودة الى مصر الفرصة ليفعل هذا (٤) . وأصبح اعتقاده انه ملتزم امام الحاميات بالسعي لاجلائها فبات الامر بالنسبة له اخلالا بالوعد الذى قطعه ومسألة كرامة وسمعة شخصية . ولقد نتج هذا الموقف المعقد من الاسلوب الذى صيغت به تعليمات غوردون فلم تحدد له مهمته بوضوح ولم تبين له أى جزء منها يعتبر رئيسيا وايها ثانويا .

---

(١) بيرنج ، تعليق في كتاب مورلي "حياة جلادستون" — PRO, FO/633

(٢) جرانفيل الى بيرنج ١٣ مارس ١٨٨٤ — PRO, FO/78/3669

(٣) جرانفيل الى بيرنج ١٤ مارس ١٨٨٤ — PRO, G/D.29/162 NO.37

(٤) Journals of Gordon, Vol. VI, 9th November 1184.

مستقبل السودان السياسي

لمن يؤول الحكم في السودان بعد انسحاب السلطة المصرية ، تلك هي المسألة الثالثة التي اختلفت حولها الآراء وتباينت. فرغم انه كان هناك اتفاق بصورة عامة على ضرورة ايجاد حكم بديل موال بصورة ما للحكم الانجليزي المصري ، الا انه لم يكن هناك اتفاق على اهمية هذا بالنسبة للاخلاء ، ولاى منهما تعطى الاسبقية وكيفية تنصيب الحاكم الجديد ، هل ستكون من خلال معركة ام بالوسائل السلمية ؟ .

ولعل عدم الوضوح هذا ، يعود الى أن موضوع التسوية السياسية قد عولج بصورة متقطعة وغامضة طوال الوقت . ففي مناقشات نوفمبر - ديسمبر لم تبد أى اشارة الى ضرورة ايجاد بديل للحكم المصرى عند انسحابه . ذكر بيرنج هذا لاول مرة في رسالته المؤرخة ٢٣ ديسمبر ١٨٨٣ (١) .

لم تعلق الحكومة البريطانية على هذا ، ربما لان القضية الباهضة والعاجلة التي كانت تشغلهم في ذلك الحين هي ماذا هم فاعلون بالسودان اذ ان سياسة الاخلاء لم تكن قد تقررت بعد . وحتى ٤ يناير عندما قرروا الانسحاب لم يرد أى تعليق على مسألة المستقبل السياسي (٢) ، ويبدو ان رأيهم كان هو الاستغناء عن السودان بعد اخلائه حتى ان التركيز كان على الجنرال الذى سيقود عملية الانسحاب (٣) ولم تجد مسألة الحكم اهتماما في هذا الظرف بالذات لان الانباء التي كانت تترادد من الخرطوم

---

(١) بيرنج الى جرانفيل ٢٢ ديسمبر ١٨٨٣ Egypt, No.1

(٢) جرانفيل الى بيرنج ٤ يناير ١٨٨٤ Egypt, No.3, Enclosure 209

(٣) الرسائل المؤرخة ٩-١٠-١١-١٤-١٥ يناير المتبادلة بين بيرنج وجرانفيل

تنذر بأن شرا مستطيرا قد يلحق بالرعايا ويهدد دم بمصير يشابه فادح الذى انتهى اليه جيش هكس باشا •

كانت القضية العاجلة كيفية انقاذ هؤلاء ، ومن الذى يتولى المهمة؟ حسمت رسالة بيرنج بتاريخ ١٦ يناير امر القائد وأوضحت انه سيعطى صلاحيات عسكرية ومدنية لينفذ الاخلاء ولا شئ غيره وبعد وأن اقتراح ٢٢ ديسمبر قـــد سقط في هاوية النسيان في الوقت الحاضر ولعله من الطبيعي ان تأتــــي تعليمات لندن التي صيغت بعد يومين من هذا خالية من اية اشارة الى مسألة الحكم • ولم يكن ثمة تفكير في كيفية ملء الفراغ السياسي الذى سينتــج بعد انسحاب السلطات المصرية من البلاد (١) •

جاء غوردون ليعيد للاذهان مرة أخرى مسألة مستقبل الحكم في السودان ، فأورد في مذكرته المؤرخة ٢٢ يناير ١٨٨٤ اقتراحا يقضي بتسليم السلطة في السودان الى اولئك الاشخاص الذين كانت عائلاتهم في الحكم عنـد فتح محمد علي باشا (٢) ، وقد وافقت الحكومة البريطانية — مبدئيا — علـى الفكرة رغم ان المشروع كان يفتقر الى الدراسة الجادة المتأنية • ولعل التغييـر الجوهرى الذى طرأ على سياستهم المعلنة لم يعد خافيا على احد • فقبـول هذا الاقتراح يعني ان سياستهم نحو السودان لم تعد الا مجرد الاستغناء عنه ، بـل اخلاء الرعايا الاجانب من جند ومدنيين وتنصيب حكام سودانيين يدينـون لهم بالولاء ويحافظون على بقاء النفوذ الانجليزى المصرى ولو بصـورة شكلية •

---

(١) جرانفيل الى غوردون ١٨ يناير ١٨٨٤ Egypt.No.2

(٢) مذكرة غوردون ٢٢ يناير ١٨٨٤ Egypt,No.7

ولا يجب ان يخدعنا تصريح رئيس الوزراء البريطاني تعليقا على الثورة المهدية بأن السودانيين يكافحون من اجل الحرية ولهم كل الحق في هذا (١) • لقد جاء هذا القول اثناء مناقشة مسألة ارسال قوات للسودان للعمل على انقاذ الحاميات ، ولقد وقفت الحكومة البريطانية بصلابة ضد هذا الامر فجاءت قولة جلادستون لتبرر هذا الرفض ، اذ لا يستقيم عقلا ان تبعث بقوات لتحارب مواطنين يكافحون لاسترداد حريتهم • الا ان التناقض الواضح يكمن في موافقة الحكومة البريطانية على اقتراح غوردون الرامي الى خلق طبقة حاكمة جديدة في البلاد ، هذه الطبقة قد تفرض فرضا على المواطنين الذين عناهم جلادستون بحديثه • ليس هذا فحسب بل ان الحكومة البريطانية قد وافقت على كل الخطوات التي اتخذت في القاهرة لخلق مراكز نفوذ مضادة للمهدى ، وأعلن نورث بروك أن انجح وسيلة لايقاف زحف المهدى هي وضع حكام مسلمين في كل من الخرطوم وبربر ودنقلا (٢) وعندما اثير موضوع الحاكم الذى سيخلف غوردون جاء اعتراضهم على التفاصيل وليس على المبدأ نفسه ، فكان ان اعلنت الحكومة البريطانية انها ليست بالسلطة التي تملك حق التعيين ، فطالما ان الامبراطورية العثمانية هي صاحبة الحق قانونيا فعليها ان تعين حاكما للسودان (٣) وقد رفضت ايضا التصديق على تعيين الزبير باشا خلفا لغوردون ، استنادا الى عدم صلاحية شخصه وليس على المبدأ ، اذ انها سارعت باعلان استعدادها للموافقة على اى بديل له وامداده بقدر معقول من المال (٤) •

---

(١) خطبة جلادستون Hansard, Parliamentary Debates, Vol.288, P.55

(٢) نورث بروك الى بيرنج ١٤ يناير ١٨٨٤ PRO.FO/633.

(٣) جلادستون الى جرانفيل ٢٠ فبراير ١٨٨٤ BM.Add.MS.44547.

(٤) جرانفيل الى بيرنج ١١ مارس ١٨٨٤ PRO.FO.78/4194.

وايدت المقاومة المصرية اقتراح غوردون الخاص بوضع الحكام المحليين في السلطة (١) كان واضحا من التعليمات انهم ان يتركوا السودان يقع فريسة في ايدى الانصار ، فكلف غوردون بتكوين حكومة عادلة في البلاد وبالسعي لتأمين العدالة والنظام في ارجائها (٢) .

ولقد اعلن بيرنج — صراحة — ان مسألة ايجاد رجل ، او مجموعة من الرجال لتحفظ النظام في السودان أمر له اهمية من الدرجة الاولى اذ أن هذه هي الوسيلة التي ستجعل المهدى يقف عند حده . وكان رأيه أن انسحاب الحكم المصرى دون وضع بديل في مكانه يعني سيطرة المهدى على البلاد ، الامر الذى سيهز الموقف العسكرى والمالي في مصر بصورة خطيرة (٣) .

اما غوردون فقد كان يرى في السودان موقعا استراتيجيا هاما بالنسبة للنفوذ البريطاني في منطقة الشرق الاوسط ، ولا بد من السيطرة عليه . فالتطورات التي تحدث في السودان سيكون لها ردود فعل بعيدة المدى في كل من مصر وبقية البلدان العربية (٤) .

كان رأيه انه اذا تم الاستغناء عن السودان فسيقع في ايدى المهدى بلا منازع ، وستحس كل قرية في مصر وفقا لهذا ان بأمكانها

---

(١) كرمان التعيين — Egypt, 12, Enclosure 15 in No.3.

(٢) المصدر السابق

(٣) بيرنج الى جرانفيل — PRO/G/D 29/162.

(٤) The Times, 10th January, 1884.

التخفي وراء الدين لتدارك التدخيل التأثر (١) • كما ان بريطانيا رغم ادعائها بالاحترام للامبراطورية العثمانية تجعل من الضروري ان تكون بريطانيا سيطرتها على مصر وبصورة ابدية على الدول العربية حتى تتمكن من استلام السلطة الكاملة عند انهيار الحكم العثماني ، وبقاء نفوذها في السودان سيزيد من فرصتها لفرض تلك السيطرة (٢) •

وعندما وضع غوردون خطة تنصيب الحكام المحليين رأى ان المهدي الذي لم تكن عائلته ضمن اولئك الذين كانوا في السلطة عند فتح محمد علي باشا يجب الا يؤخذ في الحسبان على الاطلاق (٣) ولكنه عدل عن خطته بعد عند دخوله الاراضي السودانية واعترف بالمهدي سلطانا على كردفان (٤) • ولعله قد لمس عن كثب مدى التأييد الذي يحظى به المهدي وسط الاهلين ، فأراد أن يحتال عليهم ويحد من هذا التيار باقناعهم ان زعيمهم قد اصبح حاكما على جزء من البلاد ، فليس هناك ما يبرر الثورة بعد ذلك • يلاحظ في ذات الوقت ان تعيين المهدي حاكما على كردفان يعني بقاءه بعيدا عن الخرطوم وبالتالي يمكن غوردون من تنفيذ مخططاته بتنصيب حكام وفق اختياره في الخرطوم وبقية المناطق المتاخمة لمصر والتي هي في الواقع مصدر الخطر الحقيقي اما كردفان فبعيدة وأبعد من ان تؤثر تأثيرا مباشرا على مجرى الاحداث في الشرق الادنى •

كان غوردون يعتقد ان باستطاعة هؤلاء الحكام جمع المؤيدين حولهم وخلق مراكز ثقل مضادة للمهدي ، اذ ان السند الذي يرى انه يلقاه يعود في اعتقاده الى كونه الجانب القوي القادر على حماية ارواحهم

---

(١) The Times, 10th January, 1884.

(٢) غوردون الى بيرنغ ١٨ فبراير ١٨٨٤ PRO.FO.78/4194.

(٣) مذكرة غوردون ، ٢٢ يناير ١٨٨٤ Egypt,No.7.

(٤) غوردون الى المهدي ، ١٢ ربيع اول ١٣٠١ (١٠ فبراير ١٨٨٤) غيوبنات جـ/١/١٥١ •

وممتلكاتهم وليس لانه زعيم ديني • كان رأيه ان المهدى يتخذ من الديــــن ستارا ليغطي اعمالا لا يسندها الحق •

وقد صرح للعلماء عند وصوله الخرطوم انه من المخزى ان يتخلــى الناس عن دياناتهم ويتبعوا مدعي المهدية فقط ليحموا ممتلكاتهم وينقـــذوا ارواحهم (١) ، اذ ان السوداني يميل الى الاحتفاظ بأغنامه اذا طلب منه ان يختار بينها وبين ربه (٢) ، وهم لهذا قد أيدوا المهدى ضد الحكم المصرى المتهالك الذى فقد المقدرة على حمايتهم • فلو تمكن من خلق حكم محلي تسانده بريطانيا بقدر من المال فقد ينجح في جذب انصار المهــدى الــى صفـوفه •

ولعل تجريده للثورة من محتواها الديني وتفسيرها على اســاس مادى ، هو الذى دفع غوردون لتنفيذ مخططه الرامي الى اعلان سيـاســـة اصلاحية يمكن ان تجذب الاهالي اليه ، فبات يعتقد ان مناصرة السودانيين للمهدى مرد ها قوته التي اثبتها خلال عدة معارك • الا انه اعترف فـــي ذات الوقت بالظلم والغبن اللذين ظل يعاني منهما الاهالي طيلة فتـــــرة الحكم التركي • فتصور الحل للازمة في ايجاد جهاز ادارى قوى يعتمــد على الوطنيين وينفذ برنامج للاصلاح المالي والاجتماعي يشمل منحة تنـازلات في الضرائب وتجارة الرقيق •

وما ان بدأ غـوردون مسيرته جنوبا حتى تكشفت له بعض بوادر

---

(١) Journals of Gordon, Vol.1, 12th September 1884,

(٢) Ibid.,

الترحيب بمقدمه ، اذ لم يتوان اهالي قرى شمال السودان من استقباله وتحيته كممثل للحكومة المصرية وبصفته هذه رفعت اليه بعض المطالبات من اشخاص يسعون للعمل في وظائف حكومية (١) وفي ابي حمد قدمت له عرائض تعبر عن غبطة الاهالي بمقدمه وترحب به (٢) وقد رأى غوردون في هذه الاشارات بوادر تأييد له ، الامر الذي شجعه على المضي قدماً في مخططه السالف الذكر •

ولعل غوردون كان متسرعا في استنتاجه من ان تلك البوادر تدل على ضعف التأييد الذي تلقاه المهدية في تلك المناطق • ربما كان المهاجرون من ابناء مصر الذين يقطنون تلك المناطق المتاخمة لبلادهم هم الذين رفعوا راية الولاء • كذلك في بعض القرى ابدى المشايخ والعمد — بوصفهم الفئة التي ستتأثر مصالحها بالثورة — مظاهر الابتهاج بقدوم الجنرال وقافلته الصغيرة (٣) ومن الصعب في كلتا الحالتين الوصول الى الحكم المطلق بأن السودانيين بصفة عامة ما زالوا موالين لمصر وكل ما يجب عمله لاستعادة الامن والطمأنينة هو بعض الاصلاحات الادارية والمالية ونقض خطة الاخلاء التي ستقابل بجزع شديد (٤) •

ومن ناحية اخرى كان لغوردون الالمام تام ، من بعض شهود العيان ، بما آلت اليه الامور ومدى التأييد الذي يلقاه المهدي • فقد اتصل به عبد القادر باشا حلمي اثناء وجوده في القاهرة وذكر له ان

---

(١) غوردون الى بيرنج ٨ فبراير ١٨٨٤ — HRO, FO.78/3667.

(٢) بيرنج الى جرانفيل ١٠ فبراير ١٨٨٤ — Egypt,12, Enclosure 56

(٣) مذكرات ستيورت ٨—١١ فبراير ١٨٨٤ — HRO, FO,78/3668.

(٤) غوردون الى بيرنج ٨ فبراير ١٨٨٤ — HRO, FO,78/3667.

نفوذ المهدى قد تغلغل وسط السودانيين بصورة يصعب معها التلاعب بالطرق السلمية (١) كما أكد له هذه الحقيقة بعض القساوسة الكاثوليك الذين كانوا في طريقهم من الخرطوم الى القاهرة واوضحوا له ان المهدى لن تخضعه الا القوة (٢) ثم ان غوردون كان قد التقى بأحد المهندسين البريطانيين ، مستر بيرد (Baird) فأسر له الأخير بأن مشاعر السودانيين ، حتى في تلك المناطق، قد اتجهت بصفة قاطعة نحو المهدى (٣) .

ويلاحظ ان ستيورت ، مرافق غوردون في تلك الرحلة ، كان له رأى مغاير تماما لرأى غوردون ، اذ بات يعتقد ان هيبة الحكومة المصرية آخذة في الزوال فعلا (٤) .

ولكن يبدو ان تفكير غوردون قد استقر بصورة قاطعة نحو تنفيذ الخطة الاصلاحية ولم يشأ ان يأخذ في الاعتبار رأى مرافقه او ازاء اولئك الاشخاص الذين هيأت له الظروف البقاء في موقع الاحداث ولمس الحقائق منذ بدايتها والى ان وصلت الى ما هي عليه .

---

(١) ابراهيم فوزى ، ص ٢٦٥ – ٦

(٢) المصدر السابق

(٣) مذكرات ستيورت ، ١ فبراير ١٨٨٤ PRO, FO, 78/3668

(٤) ملاحظات ستيورت في رسالة غوردون الى بيرنج ٨ فبراير ١٨٨٤ PRO, FO, 78/3667.

وما ان وصل الى بربر ، حتى وجد في الاحداث عناك غـــذاء جديدا لتفاؤله • فقد كان استقباله حافلا ورفعت له حوالي اربعمائة عريضة من المواطنين الذين يبغون العمل في الحكومة ، ففسر هذا بأنه تأييـــد للسلطة التي يمثلها ورغبة في احلال السلام (١) وبدأت فكرة الاجـــراءات الاعلامية تروق له اكثر فذكر عندما سئل عن الهدف من مجيئه بأنه يسعى للوصول الى استقرار وأمن بطرق سلمية (٢) كان استقبال غوردون في بربر مدعاة الى الوصول الى تلك الاحكام اذ أن اعدادا كبيرة من السكان تقاطرت نحوه في مبنى المديرية ، وفي ايديهم عرائض ذات اهداف متباينة ، وكان رد غوردون ايجابيا ، يتمثل في توزيع بعض قطع فضية كانت بحوزته (٣) ، ولعل هذا يفسر لنا تزاحم الاهالي حول مسكنه ، اذ ان الحصول على قطعة نقود مقابل عريضة لا تكلف سوى قيمة الورق الذى كتبت عليه لهو امر شديد الاغـراء ، وبالاضافة الى هذا أمر الجنرال بتوزيع كميات من الذرة على الاهالي(٤) •

• ولعل هذه الاجراءات قد ادت الى استمالة بعض سكان المدينة الى صفه فسارع بدوره الى تكوين حكومة يمكن ان يلتف حولها المؤيدون • هـــذه الحكومة قوامها مجلس من الشيوخ يكون مسؤولا لديه رأسا بوصفه حـاكمـا عاما للسودان وممثلا للحكومة البريطانية (٥) وقد كان يعتقد انه بهـــذا سيتمكن من القضاء على المهدية في ظرف شهر واحد لن يدعى بعـــده " محمد احمد بأنه المهدى المنتظر " (٦) •

---

(١) غوردون الى بيرنج ، ١٢ فبراير ١٨٨٤ بداخل رسالة بيرنج الى جرانفيل نمرة ١٢٦ Egypt.12

(٢) Cuzzi, p.50

(٣) Ibid., p.51.

(٤) Ibid., p.53.

(٥) مذكرات ستيورت ، ١٣ فبراير ١٨٨٤ PRO. FO. 78/3668.

(٦) غوردون الى بيرنج ، ١٢ فبراير ١٨٨٤ ، بداخل رسالة بيرنج الى جرانفيل نمرة ١٢٦ Egypt, 12.

خطط غوردون للاستعانة بالاعيان ، فهم الفئة التي تخشى على مصلحتها وذاتها من الثورات علاوة على ان انحيازهم لجهة ما يغذى تماسك الجبهة بجموع مؤيديهم وذويهم .

قرب غوردون اليه حسين باشا خليفة ، زعيم العبابدة الذين يسيطرون على المنطقة الممتدة شمالا من بربر حتى حدود مصر ، وكان يملك عدة مزارع في تلك القرى، ويملك منزلا في أسوان ولا بد ان الشك قد ساوره في مصير ممتلكاته تلك في حالة نجاح المهدى في السيطرة على البلاد ، فوجد غوردون في نفسه استجابة لتأييده فأسر له بأمر فرمان الاخلاء (١) ، وتخوف حسين خليفة فطلب من غوردون الا يعلن هذا خشية من العواقب (٢) ولكن غوردون تجاهل هذا الرأى ، فكشف الفرمان لمجلس الاعيان الذى سيقوم بأمر الحكومة في مديرية بربر (٣) ضم المجلس بعض الموظفين الذين سبق ان عملوا في خدمة الحكومة امثال القاضي محمد افندى الطاهر ومحمد افندى حجل ومن زعماء القبائل جاء بالشيخ احمد الجابرى ومحمد احمد هاشم وسليمان آغا ومحمد علي تمر من المناصير ومثل المجاذيب امين اغا احمد المجذوب (٤) ويعني تكوين هذه الوحدة الادارية بقاء المنطقة تحت النفوذ المصرى حيث يتم تنفيذ سياسة الاخلاء ، وقد كان كشف الفرمان لهم بمثابة استغلال لاطماعهم وطموحهم في السلطة ، ~~وما داموا~~ ~~حكام~~ سيبقون بعد انسحاب الحكومة المصرية فعليهم اذن الحفاظ على منطقتهم خالية من نفوذ المهدى واتباعه .

ويبدو ان غوردون قد وطد العزم على تنفيذ ذلك المخطط ، فقد كان يعاين للاهالي في القرى ، وهو يتقدم نحو الخرطوم ، عن انسحاب

---

(١) Chrawlder, p.123

(٢) Shetin, p. 297.

(٣) مذكرات ستيورت ١٢ فبراير ١٨٨٤ PRO. FO.,78/3668.

(٤) المصدر السابق

الحكومة المصرية (١) ولعلها كانت محاولة للحد من موجة الانعطاف نحو المهدى ، فاذا كان الاهالي قد ثاروا ضد الحكومة المصرية فقد اعلن لهم انسحابنا وليس هناك ما يبرر انضمامهم للمهدى .

اما من الناحية المالية فقد خطط غوردون ليخفف العبء الضرائبي عن الاهالي كجزء من سياسة الاصلاح فأعلن تخفيض تقديرات الضرائب الى النصف كما الغى كل المتأخرات حتى نهاية عام ١٨٨٣ (٢) واراد ايضا ان يستغل ميول الاهالي لاقتناء الرقيق فأوضح لهم في اعلان نشره على نطاق واسع ان هدفه هو استتباب الامن العام وادخال الطمأنينة في النفوس ، ولما كان على علم بالتذمر الذى احدثته اجراءات الحكومة فيما يتعلق بتجارة الرقيق فقد رأى نسخ اتفاق عام ١٨٧٧ (The Anglo-Egyptian Convention) الذى كان ينص على عتق الرقيق عند نهاية ١٨٨٩ (٣) . وكان غوردون يعتقد ان هذا الاجراء قد يساعد في استعادة شعبية الحكومة خصوصا وقد علم من احد المعتمدين البريطانيين قبل وصوله الى بربر أن السودانيين قد أيدوا المهدى لانه يبيح لهم تجارة الرقيق .

بالاضافة الى سياسة تهدئة الخواطر واصلاح ما افسدته الحكومات السابقة ، رأى غوردون انه قد يكون مفيد استعمال سلاح الارهاب ، فأعلن ان السلطان بوصفه خليفة للمسلمين ، كان ينوى ارسال قوة من جند الاتراك الذين عرفوا بشجاعتهم وبأسهم لاستعادة المناطق المتمردة ولكنه تدخل بشخصه لايقاف تلك الاجراءات حتى تتسنى له فرصة دراسة اسباب التذمر عن كثب (٤) .

ولعل الهدف من وراء هذا الاعلان هو امتحانه متعالمه وسياسة

---

(١) Ohrawlder, p. 123.

(٢) مذكرات ستيورت ، ١٣ فبراير ١٨٨٤ ، PRO,FO/78/3668

(٣) اعلان غوردون بشأن الرقيق PRO,FO, 78/3669

(٤) اعلان غوردون للاهالي والشيوخ والاعيان .. PRO,FO.78,3669.

الضغط على الاهالي لقبول الاجراءات الاصلاحية • اذ ان رفضهـــا والانخراط في سلك المهدية سيعرضهم الى حرب انتقامية يشنها جنــود الاتراك • وهو يكشف من ناحية اخرى عن تخوف غوردون من امكان نجــاح السياسة السلمية التي كان يدافع عنها في بادئ الامر وعلى الاقل تخوفــه من الا تكون تلك الاجراءات وحدها كافية لاغراء الاهالي للالتفاف حول مجلس الاعيـان •

وفي نفس الوقت الذى كـان يحاول غوردون جاهدا استمـالـة اهالي المنطقة الى جانبه ، كان زعماء الانصار يعملون بنفس القدر مـن الحماس ، فبدأت قـوة منهم تحت قيادة الشيخ محمد الخير تزحف نحـو بربر •

ولم يتردد هذا في توجيه رسائلـه لنفس الاعيان الـذ يـن وضعهم غوردون في مراكز السلطة ليقضـوا تحت رايته • فما كان من هـؤلاء الا ان عبروا النيل الى الشاطئ الاخر ، حيث كانت ترابط قوات المهـدى ، وانضموا اليهم دون ادنى اعتبار للالتزام بسياسة غوردون (١) •

ولعـل هذا التصـرف كان نابعا من تقديرهم لـقــوة المهـدى بالمقـارنة الى نفـوذ الحكومـة • فـقـد اصبح جليـا ان الحكومـة تفـقد كـل صباح ارضـا جـديدة وتـعد جاء غـوردون وهـو يحمـل معـه الامنيـات الدلبية ونصحـة حملات ذ هبيـة لم تكن لتساوى شيئـا امام جحافل الانصـار •

بـالاضـافة الـى هـذا ، فـقد كـان اعـلان فرمان الانـخـلاء

---

(١) Guzzi, p. 56.

في غير مصلحته اذ ان الاعيان الذين اراد ان يخدعهم به قد ايقنوا بانتهاء نفوذ الحكومة فلم يترددوا في اخطار ذويهم بهذا (١).

فتقاطر مشايخ القرى الواقعة جنوبي بربر لاعلان تأييدهم لعمال المهدى وفي المتمة لم يتردد شيخ مشايخ الجعليين علي ود سعد الذى عرف بأمر الفرمان من غوردون من الانضمام الى المهدى ليخبره بنفسه (٢).

---

(١) Ohrawlder, p.124.

(٢) Ibid.,

الفصل الرابع

مخططات غوردون والمهدي للسيطرة على الخرطوم

تنفيذ الخطة الاصلاحية في الخرطوم

وصل غوردون الخرطوم في الثامن عشر من فبراير ١٨٨٤ وما زالت افكاره الرئيسية حول مهمته تتوافق تماما مع السياسة التي سبق ان اعلنها ونفذها في بربر، اذ كان يرى فيها الوسيلة الفعالة لجذب الاهالي نحو حكومته . كان اعتقاده ان ثقة السكان في الحكومة المصرية لم تتزعزع وما زالت رغبتهم في بقائها اكيدة ولا يجد المهدي بينهم تجاوبا او عطفا (١) . وممن ثم استقر رأيه على مساندة تلك الفئة التي قدرها بثلثي سكان الخرطوم والتي كشفت عن رغبة حقيقية في استتباب الامن (٢) .

ولقد ابتهجت المدينة التي قدر عدد سكانها ب ٤٢٠٠٠ نسمة تقريبا بوصول غوردون (٣) ولا بد ان اغلبيتهم رأت في مجيئه انقاذا لها ولسلطاتها وممتلكاتها من الثورة التي اوشكت ان تسيطر على المدينة لا سيما

---

(١) غوردون الى بيرنج ٢٦ فبراير ١٨٨٤ ، PRO., FO 78/3667

(٢) غوردون الى بيرنج داخل رسالة بيرنج الى جرانفيل PRO.,FO, 78/3667

(٣) Nushi Pasha, P. 61.

قدر ابراهيم الجورديني عدد سكان الخرطوم في ذلك الحين ب ٦٠،٠٠٠ نسمة .

وان الخرطوم كانت ،بوصفها عاصمة للبلاد ، مقرا لعدد كبير من الاجانب • ولا بد ان هؤلاء كانوا يشكلون قسما كبيرا من الفئة التي وصفها غردون بثلثي السكان الذين لا يجد المهدي بينهم تأييدا او تعاطفا • ومن ثم استمد من موقفها هذا تفاؤله واستند على مشاعرها في اقرار السياسة النهائية لتصفية الثورة •

كان سكان الخرطوم خليطا من ثلاث مجموعات ، مجموعة اوروبية وثانية شرقية واخرى سودانية (١)• شكل الاغريق والايطاليين والنمساويين اغلبية الاوربيين (٢)• اما الشرقيون فقد كانت اغلبيتهم من المصريين والسوريين الذين كانوا يمثلون اكبر مجموعة من الاجانب على الاطلاق اذ قدر عددهم في عام ١٨٨٠ بسبعمائة الف تقريبا (٣)، ولكن يبدو ان اعداد منهم كانت قد غادرت البلاد بعد اندلاع الثورة وعلى الخصوص بعد هزيمة هكس باشا (٤)• وشكل الجعليون والدناقلة اغلبية السودانيين الذين كانوا يمثلون في مجموعهم خمس سكان المدينة (٥) • ولكن هذا العدد كان قد تقلص في مطلع عام ١٨٨٤ اذ هجر بعض الدناقلة منازلهم واستقروا بقرية الكلاكلة جنوب الخرطوم (٦) •

يشكل السودانيون المقيمون في المدينة الطبقة الفقيرة عموما

---

(١) ابو سليم ، " مدينة الخرطوم في التاريخ " ، الخرطوم ، يناير ١٩٦٦ ص ٨
(٢) المصدر السابق
(٣) ابو سليم ، " معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم " ، ص ١٤
(٤) Cuzzi, p. 41
(٥) ابو سليم ، " مدينة الخرطوم في التاريخ " الخرطوم ، يناير (١٩٦٦) ص ١٩
(٦) Nushi Pasha, P.4

ان استطاع الاجانب السيطرة على ميدان التجارة بخبرتهم وعلمهم فكان الافريقي من اصحاب المقدح المعلى في هذا المجال • اما الخدمة المدنية فقد سيطر عليها المصريون كموظفين موفدين من قبل حكومتهم ، في حين حظي الاتراك بالوظائف الكبرى في جهاز الادارة (١) •

وجد غوردون اذن عند وصوله ان الاجانب يمثلون اغلبية السكان وفي ايديهم الثروة والسلطة وكانوا يرون مصلحتهم في بقاء المدينة تحت هيمنة الحكومة القائمة مهما كلف الامر ، ولعل غوردون قد لمس الحقيقة حين قال ان المهدي لا يجد تأييدا بينهم • ففي رسالة لمراسل صحيفة التايمس من الخرطوم تذكر ان فئة التجار من هؤلاء ترغب بطبيعة الحال في مقاومة المهدي والتمسك بالحكم المصري لآخر لحظة (٢) • ولعلهم لهذا السبب توسلوا لغوردون كي لا يشرع في تنفيذ خطة الاخلاء (٣) • اذ ايقنوا ان سياسته السلمية التي اعلنها لن تنجح بأية حال في قلب ميزان القوى لصالحه • وكان واضحا بعد معركة شيكان ان الخرطوم ستكون الهدف المقبل للمهدي ، الامر الذي اثار موجة من الذعر بينهم (٤) واصبح جليا ان الحكومة بامكانياتها تلك لن تتمكن من خلق شبكة دفاعية فعالة للمدينة فأتجه التجار الى تصفية اعمالهم تأهبا لمغادرتها متى ما بدأ الخطر ماثلا على الابواب •

وقد عبيت كل جهود دي كتلوجن في تهدئة الخواطر ادراج الرياح اذ فقدت الاغلبية ثقتها في الحكومة ولم يعد بامكان رجالها اخفاء حقيقة الموقف الذي يحيط المهدي ، فقد كان يكسب كل يوم اراضي جديدة وتتصاعد باستمرار موجة الكراهية ضد الحكومة والاجانب بصفة عامة (٥) •

---

(١) ابو سليم ، " مدينة الخرطوم في التاريخ ، الخرطوم ، يناير ١٩٦٦ ص ١٩

(٢) The Times, 21st January 1884.

(٣) مذكرات ستيورت ٢٣ فبراير ١٨٨٤ ، PRO, FO, 78/3669.

(٤) Cuzzi, P. 46

(٥) Ibid.,

ولكن مجيء غوردون بعث في نفوسهم املا جديدا ، غير انهم كانوا يرون من الضروري تطبيق خطة عسكرية لحماية الخرطوم ومن هنا جاء توسلهم له للابقاء على حصون المدينة (١) ورغم ان غوردون قد شرع في بادئ الامر في تنفيذ خطته الاصلاحية لاجهاض الثورة سلميا الا انه اضطر فيما بعد الى الامتثال الى رأى تلك الفئة في مواجهة المهدى عسكريا .

ورغم قلة السودانيين داخل الخرطوم فقد عمل غوردون على استمالتهم واستمالة اولئك الذين يقيمون في المنطقة بأكملها ، فجاء في خطابه الاول الذى أملاه على ابراهيم بك لبيب مأمور الضبطية قوله : " انكم لا تجهلون شفقتي عليكم ومحبتي لكم وقد ساءني ما سمعته عنكم حيث نشبت الحرب بينكم وتعطلت تجارتكم وسفكت دماؤكم ومنعتم من تأدية فريضة الحج التي هي من اركان الاسلام وزيارة قبر النبي (ص) وقد ساء هذا الحال كل من جلالة الملكة وسمو الخديوى المعظم " (٢) . ثم برهن على حسن نواياه باتخاذ جملة قرارات ، فأعلن عن تخفيض الضريبة المقررة الى النصف مع الغاء المتأخرات حتى نهاية عام ١٨٨٢ (٣) . كما قرر اطلاق سراح جميع السجناء باستثناء القتلة (٤) ، وأعلن ايضا الغاء الاتفاق الخاص بعتق الرقيق (٥) . وكان غوردون يهدف من وراء هذا الى تغيير الصورة السابقة التي عرفها السكان عن الحكم التركي . فهذه ادارة جديدة متعاطفة معهم وتتخذ موقفا يختلف كثيرا عن مواقف الادارات السالفة . وما دام الحال كذلك فقد يقتنع البعض انه ليس هناك ما يبرر مناصبتها العداء بالانضمام الى المهدى .

---

(١) ابراهيم فوزى ، ص ٢٧٦

(٢) محمد عبد الرحيم ، ص ٨ ، يذكر نعوم شقير ص ٧٦٥ ان تاريخ الخطاب كان حسين المجدى .

(٣) Nushi Pasha, p.5.

نعوم شقير ، ص ٧٦٧ يذكر انه الغى الضرائب كلية لمدة سنتين ابتداء من اول ١٨٨٤ .

محمد عبد الرحيم ، ص ٩ يذكر انه الغى الضرائب لمدة ثلاث سنوات ابتداء من ١٨٨٤

(٤) Nushi Pasha, p.7. محمد عبد الرحيم ، ص ٩

(٥) Nushi Pasha, P.8.

شرع غوردون بعد ذلك في تكوين ادارة محلية قوامها مجلس للاعيان كما فعل في بربر ، ويلاحظ انه لم ينشر الفرمان الخاص بالاخلاء هنا الا انه قد اشار اليه في خطابه الاول حينما ذكر انه منتدب " من قبل حكومة صاحبة الجلالة الملكة لاكون واليا على السودان ومرخصا لي فوق العادة وقد صار فصل السودان عن مصر فصلا تاما وفوض الي الحكم المطلق " (١) .
وفي هذا اشارة صريحة الى مضمون الفرمان الا انه لم يذكر مسألة انسحاب الجند ربما تخوفا من رد الفعل السيء الذى أحدثه الاعلان في بربر ، وقد بعث برقية الى الخديوى يخطره فيها انه لم يكشف عن امر جلاء العساكر المصريين خوفا من الاضطرابات التي قد يثيرها الاعلان (٢).

وذكر غوردون للاهالي انه ينوى تشكيل حكومة من الوطنيين حتى يستطيع السودان ان يحكم نفسه بنفسه ، وقد كانت فكرته هي سحب الجند والموظفين المصريين وتعيين حكومة جديدة يمكن ان تقف في وجه المهدى وتحتفظ بالخرطوم في قبضتها وهي حكومة سودانية في مظهرها الا انها تدين بالولاء للحكومات التي اتت بها الى السلطة .

عين غوردون عند وصوله عوض الكريم ابو سن ، رئيسا لمجلس الاعيان ومديرا للخرطوم في ذات الوقت (٣) وقد اختار ابو سن وانعم عليه بلقب

---

(١) محمد عبد الرحيم ، ص ٩

(٢) المصدر السابق

(٣) عوض الكريم باشا احمد أبو سن (ت ١٨٨٦) الابن الاكبر لاحمد بك ابو سن ، عين ناظرا للشكرية في ١٨٧٢ ، بعد موت والده ترك النظارة ليلتحق بوظيفة في الحكومة بالخرطوم فعين اخوه علي ناظرا مكانه .
الا ان عوض الكريم عاد مرة أخرى للنظارة عند اندلاع الثورة المهدية وناصر الحكومة . لم يتمكن من الحضور الى الخرطوم خلال فترة الحصار فعاش في منطقة ريره الى أن سقطت المدينة . اعتقله الخليفة عبد الله فيما بعد ومات سجينا .
Hill, A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, pp.63-4

الباشوية لانه كان شيخا ذا نفوذ وسط قبيلة الشكرية التي تشكل اكبر تجمع قبلي في منطقة الخرطوم اذ قدر عدد افرادها ب ٢٥ الفا تقريبا (بالمقارنة مع ستة الاف من البطاحين واربعة الاف من الحسنات وبضعة مئات من كل من الحسانيه والاحامده والترابات) ، فانحياز ابو سن الى جانب الحكومة سيعني كسب أعداد كبيرة من افراد تلك القبيلة ، هذا بالاضافة الى انه حتى ذلك الحين لم يزل في ولائه للحكومة المصرية ، فقد حارب مع قوات جيجلر باشا ضد الانصار في عام ١٨٨٢ ، وعند بداية حصار صالح المك في جزيرة فدا سي سار ابو سن لنجدته وحاول احتلال موقعا مقابلا للجزيرة الا ان ابنه عبد الله الذى اعلن انضمامه للمهدى سبقه الى هناك فأحتل الموقع (١) جاء اذن اختيار غوردون لابي سن بمثابة الاغراء ليبقى في ولائه للحكومة وقد يجر من ورائه بعض بطون الشكرية • وقد ضمت عضوية المجلس السعيد باشا حسين وهو جعلي عمل في الجيش المصرى وعرف باخلاصه لغوردون منذ ولايته الاولى في السودان ، اذ نبهه انذاك الى مؤامرة كان يحيكها سليمان الزبير بدارفور فأنعم عليه غوردون برتبة البكباشي •

ويبدو انه كان يتمتع بقدر من الكفاءة العسكرية اذ عين في عام ١٨٨٣ قائدا لقوة الدويم • ولعل غوردون كان يسعى لتمثيل بعض الضباط في المجلس حتى يساهموا بخبرتهم في الامور الحربية التي قد تواجه المدينة ، فبالاضافة الى السعيد باشا عين حسين باشا ابراهيم الشلالي ومن موظفي الحكومة جاء ببابكر افندى المباركوك ومحمد باشا حسين وهو مصرى الجنسية عين في ذات الوقت مديرا للمالية • ولم يرغوردون في تعيينه خرقا للمبدأ تكوين حكومة من السودانيين اذ أن محمد باشا قد حضر الى الخرطوم منذ طفولته ومارس التجارة واستقر بها فأصبح من كبار التجار في عام ١٨٨٣ (٢) •

---

(١) بابكر بدرى ، ص ٢٨

(٢) نعوم شقير ، ص ٦٩٣

وفي نطاق سياسة الاستمالة بزعماء القبائل ليكسب ذوي عشيرتهم اشرك في المجلس سليمان اغا ود الملك والحاج ناصر ابوحسوس كما قرب اليه رجال الدين والفقه املا في الاستفادة منهم فيما بعد في اصدار الفتاوى التي تدحض ادعاءات المهدى فمثلهم بالشيخ محمد الامين الضرير رئيس ومميز علماء السودان وحسين المجدى الذى كان مدرسا بالجامع والشيخ عبد القادر ابراهيم المعروف بقاضي الكلاكلة (١) .

اراد غوردون ان يفوز ايضا بولاء تلك الفئات من سكان المدينة التي تتعاطف سرا مع المهدى فتعرض للرسالة التي بعث بها اليه في الخطاب الذى القاه يوم وصوله الى الخرطوم بقوله " وقد خابرت السيد محمد احمد المهدى بفحوى مأموريتي واعترفت له بالسلطة على السودان الغربي برمته على شرط ان لا يمد يده لغيره ... ولي الامل بان العلائق ستصبح بيني وبين سلطان الغرب وثيقة العرى" (٢) .

هدف غوردون من وراء هذا بلا شك الى كسب تلك الفئة التي اوشكت ان تقف في الخط المعتاد له ، ولا بد ان تصريحه ذاك سيجعلها تتخلى بصورة نهائية عن اي تفكير في خلق قاعدة للمهدى وسط العاصمة نفسها . فالمهدى لم يعد عدوا للحكومة تتوجب محاربته بل وجد الاعتراف الرسمي ولم يعد هناك ما يبرر رفع راية العصيان سواء في السر او العلانية .

---

(١) Nushi Pasha, p.5

(٢) محمد عبد الرحيم ، ص ٩ ، ابراهيم فوزى ، ص ٢٦٧

القول بأن المهدى قد عين سلطان على الغرب غير صحيح ، اذ كان التعيين على كردفان فقط ويؤيد هذا رد المهدى لغوردون حيث يقول " انك تزعم ارادة اصلاح المسلمين ... وان تجعلنا سلطانا على كردفان " انذارات ب ص ١٠١ - ١٨

وعمل غوردون على كسب فئات من مجتمع المدينة عن طريق الاغراء المادى فقرب اليه العلماء وجعل لهم رواتب عينية ونقدية ، واستطاع ان يستغلهم في خلق جبهة دينية مناوئة المهدى ، فكانوا يلقون الخطب في المساجد يكذبون فيها دعوة المهدى ويصورونه كعدو للمسلمين (١)

ويبدو ان غوردون قد طلب منهم تحرير الخطاب الذي أرسل الى الشيخ عبد القادر وحيد الرحمن النجومي بتاريخ ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ . وقد تعرضوا فيه الى دحض اقوال المهدى بنصوص من الاحاديث والفقه الاسلامي ، ووصفوه بأنه مرتد لانه فارق الجماعة " وشق عصا الاسلام وخرب ديار المسلمين ونهب اموالهم وهتك اعراضهم وسلط بعضهم على بعض بما يوجب ارتداده ثم حيث استحلوا قتل المؤمنين وهتك اعراضهم ونهب اموالهم وسموهم الكفرة يعدون وجه مع اقامتهم شعائر الدين وسلوكهم الطريق المتين "(٢) .

وقد ذيلت هذه الرسالة بامضاء كل من الشيخ محمد الامين والشيخ حسين المجدى والشيخ محمد خوجلي قاضي عموم السودان ، والشيخ شاكر افندى مفتي الاستئناف والشيخ موسى محمد مفتى مجلس الشرطلو .

وكانت هذه محاولة لاضعاف التأييد الذى يلقاه المهدى من اولئك الذين يثقون في مقدرة العلماء يمكن ان يسروا فيه رجلا خارجا على اصول الدين وتقاليده .

استغل غوردون ايضا طبقة "الفقرا" والمتصوفة ذات النفوذ وسط

---

(١) ابراهيم فوزى ، ص ٢٤٦

(٢) العلماء الموضحة اسماءهم ادناه الى الشيخ عبد القادر وولد النجومي ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ل .

الاهالي وطلب منهم التوجه الى الله بالدعاء ليعين المدينة ، وكانوا يتقاضون على هذا أجرا ثابتا من خزينة الدولة (١) . وعمل ايضا على مراعاة العادات والتقاليد الاسلامية ليدحض اتهامات المهدى للادارة التركية بجهلها وتجاهلها للدين وانشغالها بغير الله .

كما حاول ايضا استمالة فئات أخرى، وذلك بالانعام على افرادها بالرتب والالقاب ، فبدأ في توزيعها يمنة ويسرة حتى " وصلت رتبة البيك والباشا الرفيعة الشأن الى اوباش الناس كالحجام والجزار " (٢).

كانت سياسة غوردون ، اذن محاولة كسب السكان عن طريق اعطائهم بعض السلطات الادارية وتخفيف الضغط الاقتصادى الذى كان من مخلفات الحكومات السابقة ، بالاضافة الى بعض الاجراءات الاصلاحية الاخرى . وكان يعتقد ان الحكومة التي سيكونها لتخلف الحكومة المصرية ستلقى التأييد الذى يمكنها من مواجهة المهدى . فكتب لبيرنج يطمئنه على امكانية اخلاء الجند والموظفين المصريين من المدينة ذاكرا له في نفس الرسالة انه كان يخشى من اضطرابات قد تثيرها العناصر المدنية ولكنه كسب تأييدهم بواسطة بعض الاجراءات الاصلاحية (٣) .

ولكن يبدو أن تخوف غوردون هذا ظل قائما ولم تنجح تلك الاجراءات تماما في استمالة السكان ، فأخذ يستعين بسلاح الارهاب . فأعلن في المدينة انه لولا تعاطفه معهم لكانوا الان تحت رحمة قسوة

---

(١) Nushi Pasha, p.30

(٢) احمد العوام ، ص ٢٤

(٣) غوردون الى بيرنج ، داخل رسالة بيرنج الى جرانفيل ١٢ فبراير ١٨٨٤ ، Egypt.12.

عسكرية ترسل خصيصا لاخضاعهم • وقد أصبح سلاح الارهاب جزءا من مخطط غوردون لاقرار السلام • فاذا كان في الامكان تبليغ الاهالي بصورة غير رسمية عن احتمال ارسال قوات تركية فقد يدفعهم هذا الى هجر المهدى (١) •

وكان يعتقد أيضا انه من المفيد نشر اشاعة فحواها ان هناك اتجاها لارسال قوة انجليزية للسودان ، فهذا امر بلا شك سيثير الفزع وربما ساعد في جذب بعض العناصر المناوئة نحوه فاصدر منشورا

بهذا المعنى بعد اسبوع تقريبا من وصوله يقول فيه انه " لعدم اقبال الاهالي عليه مع ما ازاله من المظالم والمضارم واطلاق السجناء واحراق دفاتر الاحوال المتأخرة جميعها قد يضطر لاستحضار عساكر انكليزية لقمع الثائرين " (٢) •

---

(١) غوردون الى بيرنج فبراير ١٨٨٤ PEO. FO 78/3662.

(٢) احمد العوام ، ص ٥٥

استراتيجية الحصار في تاريخ المهدية

انحصر نشاط المهدي الشخصي حتى اواخر ١٨٨٣ في كردفان ، في حين اوكل لاتباعه مهمة رفع رايـة الثورة في انحاء متفرقة من البلاد ولم يستثن منطقة اواسط السودان من هذا النشاط فعقد لواء قيادتهـا لمحمد الطيب البصير • كان تقليد المهدي ان يزود عماله بالرسـائل والمنشورات الموجهة الى رجال القبـائل والعلماء يدعوهم فيها الى مساندته ويبدو انه قد ارسل مع ود البصير بعضا من هذه لسكان منطقة الخرطـوم • ويعود تاريخ اول رسالة لهؤلاء معروفة حاليا الى ١٠ محرم ١٣٠١ (١١ نوفمبر ١٨٨٣) اي انها قد كتبت بعد ستة ايام من معركة شيكـان في ٤ محرم (١) ومن المرجح ان يكون المهدي قد بعث اليهم بعـدة رسائل قبل هذا التاريخ • فهو ينبههم لهذا في الرسالة المشار اليهـا انفا • ولعل هذه الاخيرة قد استحوذت على اهتمام خاص لاختلافها عـن سابقاتها من حيث انها اشارت صراحة الى ضرورة اعلان الحرب علـى الحكومة في عاصمتها • ويستطيع القارئ ان يجد تفسيرا منطقيا لهذا الاتجاه الجديد الذي برز في نشاط المهدي ، لم يعد يدعو الناس للهجرة اليـه وحسب بل لالقاء حصار على الخرطوم تقفل به جميع المسالك ويمارس بواسطته ضغطا على السكان حتى يستسلموا او يهلكوا بداخلها جوعا (٢) جاء هذا النداء بعد اندحار جيش هكس باشا امام الانصار ، وهي هزيمة امنت لـه السيطرة على السودان الغربي برمته • كما كان ذلك الجيش يختلف في عدة نواحي عن الجيوش التي سبق للمهدي ان سحقها •

---

(١) المهدي الى فلان وفلان من اهالي الخرطوم ١٠ محـرم ١٣٠١ فيوضات ج ٢/ ٧٩ •

(٢) المصدر السابق

فهذه قوة ارسلت خصيصا من مصر بغرض القضاء نهائيا على الثورة فهزيمتها تعني مقدرة المهدى الفائقة على دحر الجيوش التي تنظمهـا حكومة الخديوي نفسها ، بالاضافة الى هذا فلقد جلس على قمة القيادة • مجموعة من الضباط البريطانيين الذين تلقوا تعليما وتدريبا عسكريا منتظما (١) وكان من الطبيعي ان تتضاعف ثقة المهدى في نفسه واتباعه بعد هـذا الانتصار ويبدأ تفكيره ينفتح جديا على السيطرة الكلية •

ومن ناحية اخرى فقد اهتزت بعد شيكان الصورة التي عرفت بها مصر وبريطانيا كمثال للقوة والجبروت ، واذا كان هذا هو الحال بالنسبـة للدولتين الكبيرتين ، فلا بد أن تكون هيبة حكومة الخرطوم قد زالت تماما • ولم تعد هي تلك الحكومة المهابة التي كان جندي واحد من جنودها " يرهب رهطا من الاهلين " (٢) ولقد كان في هذا تهيئة نفسية من الدرجة الاولى للمهدى ليقود حملته الختامية •

ولقد صحبت تلك التهيئة النفسية اطمئنان لموقفه العسكري ، فاذا كانت حامية الخرطوم ستدافع عن نفسها بالاسلحة النارية فقد غنم المهدى من جيش هكس باشا الكثير من تلك الاسلحة •

كانت امام المهدى وسيلتان للسيطرة على الخرطوم ، اولاهما حشد كل قواته في المنطقة والانقضاض على الحامية في هجوم مباشر ، والثانية القاء حصار حول المدينة وممارسة حرب استنزاف بطيئة يفقد فيرون خلالها

---

(١) كان مع هكس باشا من البريطانيين : الميجور مارتن ، الميجور فارقوار ، كابتن ماس ، كابتن وارنر ، كابتن اقانس
محمد عبد الرحيم ، ص ١٣٤ — ٥

(٢) المصدر السابق ، ص ٩١

اعدادا من قواته المحاربة وعتاده ومؤنه ويضطر في النهاية اما الى التسليم او الى الدفاع الشكلي • ويبدو ان المهدي قد عزم منذ البداية على انتهاج الطريق الثاني كما كشفت رسالته المؤرخة ١٠ محرم ١٣٠١ • ولعله استند في تقديره هذا على تجاربه السابقة ، فلم تزل محاولة الهجوم الفاشل الذي شنه على الابيض ماثلة في الاذهان في حين كانت حصيلته وافرة من الانتصارات التي تمت عن طريق الحصار •

ارتكزت خطة الحصار — كما مارسها الانصار — في مواقع كثيرة في الغرب على قاعدتين • الاولى عزل الموقع المحاصر عن العالم الخارجي بصورة تامة بحيث يستحيل على حكامه ايفاد اي مبعوثين لطلب الانقاذ من مراكز اخرى ، كما يستحيل على اية قوة آتية من الخارج الوصول اليه دون ان تتعرض هي نفسها لهجوم عنيف قد تقاومه وتمنى بالهزيمة او تؤثر التسليم بلا اراقة دماء • اما القاعدة الثانية فهي الرقابة المشددة على دخول اي مواد غذائية للمحاصرين حتى يجبروا على استهلاك مخزونهم ومع الايام تنخفض مقدرة الجند على القتال وتنهار معنوياتهم وحينما يوجه الانصار ضربتهم فاما ان يرفع هؤلاء الراية البيضاء او يواجهوهم بمقاومة هزيلة لا تشكل بأي مقياس خطرا على المهاجمين •

يكشف تاريخ فتوحات المهدي في الغرب ان اول تجربة للحصار قد نفذت بنجاح في موقعة البركة في مايو ١٨٨٣ حينما بعث المهدي بعبد الله ود النور لاستنفار قبائل الحمر والجديرية والحوازمه لوضع ذلك الحصار (١) ثم اعقبه حصار الطيارة في شرق كردفان بقيادة المنا اسماعيل

---

(١) MacMichael, The Tribes of Northern and Central Kordofan, p.27.

وجند له بني قومه من الجوامعه فدام من ٢ يوليو الى ٦ اغسطس ١٨٨٢ . (١)

ولعل تجربة الهجوم المباشر الذى شنه رحمة محمد منوفل على بارا في ٢٤ يوليو وصدها لذلك الهجوم قد اقنعت الانصار اكثر بايجابية سياسة الحصار فشرعوا في محاصرتها باحكام وتمكنوا من تقل جميع الدروب المؤدية اليها ، وبعد صمود دام خمسة اشهر اضطرت بارا للتسليم لنفاد موادها الغذائية (٢) .

ولقد جاء حصار الابيض في منتصف ١٨٨٢ ليزيد من تجارب المهدى في هذا الميدان ، تلك التجارب التي كان لها ابلغ الاثر في كيفية التصدى لحامية الخرطوم فيما بعد والاستيلاء على المدينة .

تعود صلة المهدى بالابيض الى ما قبل الجهر بدعوته ، فقد دأب على زيارتها بانتظام ووطد علاقته باصحاب النفوذ فيها من الاعيان ورجال الدين . وكان يتشرب بينهم تعاليمه الداعية الى العودة لحياة فجر الاسلام بما فيها من نقاء في الروح وصفاء في السيره والسريره .

ويبدو ان تفكير المهدى قد انحصر في تلك الاونة في غرب السودان ، الذى تمثل الابيض قلبه النابض ، كهدف مرحلي لدعوته . عرفت المدينة بصراقتها في الميدان التجاري فاهتمت بها الحكومة التركية عند الفتح وجعلتها مركزا اداريا هاما شيدت فيه دارا المديرية وثكنات للجيش وفتحت مدرسة ابتدائية واقامت مستشفى (٣) وقد قدر عدد سكانها

---

(١) Holt, The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, P. 52.

(٢) MacMichael, The Tribes of Northern and Central Kordofan, p. 38-40.

(٣) نعوم شقير، ص ١١٦

بحوالي خمسين الفا يبلغم اعداد كبيرة من تجار الجعليين والدناقلة والمحس ، الذين اقاموا بها بصفة دائمة جنبا الى جنب مع قبائل تلك الجهات ، كما عرف بين ساكنيها تجار من الهند والشام ودول اوروبا (١)•

ولم يكن خافيا على المهدى ان استيلائه على الابيض سيكون قفزة كبيرة بالدعوة لمهد طريقه بالزيارات المتكررة لاهلها ووطد علاقاته بالتجار والاعيان امثال اولاد محمد يعين الحريق ، واولاد عربي ، والفكي مكاوي الركابي ، وولد ابو صفيه ، والياس باشا ام بريره ، وبانقا الرازقي ، وحاج خالد العمرابي • ويبدو انه قد ترك انطباعا حسنا في المدينة فقد اخذوا بحلمه وتواضعه وطلاقة لسانه (٢) •

لم يتجه تفكير المهدى نحو الخرطوم في ذلك الوقت ولم تشر الوثائق الى انه قد اقام اى صلات مع اهلها ولعله لم يفعل كي لا يقدم نفسه فريسة سهلة للحكومة وهو اعزل من المؤيدين • فاختار مكانا بمنأى عنها حتى تتسنى له فرصة تكوين جبهة جماهيرية عريضة تملك المقدرة للتصدى لاى هجوم قد تدبره الحكومة •

ولم تقتصر اتصالاته على الابيض فحسب ، بل نشط اتباعه في الطواف على كل اجزاء المديرية فانتشرت خطاباته بين القبائل ، تكسب تأييد زعماء الحمر والجوامعه ، الذين شكلوا رأس الرمح لقواته واحرزوا له جملة انتصارات فتحت له الطريق نحو الابيض • وقد استخدم نفس الاسلوب قبل انطلاقته صوب الخرطوم فلعب الشيخ العبيد ود بدر والشيخ مصطفى الامين ادوارا مماثلة لتلك التي قام بها المنا اسماعيل ورحمة منوفل •

---

(١) يوسف ميخائيل ، ص ٤٢

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٤

احدثت انتصارات المهدى في البركه والجليساره رد فعل في الابيض يشبه الذى احدثته معركة شيكان في الخرطوم • فانقسم السكان الـى فريقين ، فريق التجار من الاجانب والجعليين والدناقلة والمحس الـذى انتابه موجة من الذعر فهاجر على اثرها الى الخرطوم ، ثم فريق الاهالـي امثال الياس باشا ام برير وباشا الرازقي وحاج خالد العمرابي ومحمد بن الصريق وود سوار الدهب الذى قرر الانضمام للمهدى •

وسارع محمد باشا سعيد ، مدير الابيض ، الى تحصين المدينـة بحفر خندق حولها شيد عليه الابراج ووضع عساكره على طوله الا انه جوبـه بقلة الامكانات البشرية اذ اتضح ان خط النار يحتاج الى ٢٠,٠٠٠ رجل تقريبا لحمايته (١) في حين لم تتعد قوته ٤٠٠٠ رجل (٢) بالاضافة الى ان الخندق لم يكن بالعمق ولا بالعرض الذى يشكل تحدلية عقبة فـي وجه المهاجمين •

فقــرر المسؤولون وفقا لذلك حصر الاستحكامات حول المكاتـب الحكومية والمديرية والثكنات ومنازل الموظفين والتجار السوريين والاغريـق الذين ما زالوا في المدينة (٣) •

كان اتجـاه محمد باشا سعيد اذن هو الاستعداد لمقاومـة المهدى بالقوة • الا انه بذل في ذات الوقت محاولة لصده سلميا حيـن استصدر فتوى من رجال الدين تدحض دعوة المهدى • ولقد حـاول غوردون استخدام نفس الاسلوب فيما بعد •

---

(١) Ohrawlder, p. 20

(٢) Cuzzi, p.33

قدرتهم شقير الحامية بـ ٦٠٠٠ رجل

(٣) Ohrawlder, p.36.

ويبدو ان هذه الفتاوى قد بلغت مسامع المهدى فاشار اليها فـي احدى رسائله بقوله " ... ولا تغتروا بالخطب التي الفها في ذمنـا وتكذيبنا علماء السوء كاحمد بن اسماعيل الولي ... فهؤلاء ممن ادخل في قلوبهم النفاق بحب المال والجاه .. " (١) .

مهد المنا اسماعيل وعبد الله النور الطريق للمهدى ليستولي علـى الابيض كما سبق ان ذكر .

فوصل بجيوشه الى منهل كابا آتيا من قديرفي ١٧ شوال ١٢٩٩ ، (١ سبتمبر ١٨٨٢) وبدا جليا بأنه سيوجه ضربته القادمة للابيض .

وحسب التقليد الذى درج عليه حينئذ في معاركه ، والتزم بـه فيما بعد ، فقد اوفـد مبعوثين هما جابر ود جلي الزياد ابي ومحمد المصربـي يحملان رسالة لمحمد باشا سعيد واخرى لاعيان المدينة . ومن المرجـح ان المهدى لم يكن قد قرر بعد الكيفية التي سيستولي بها على الابيـض ، بل كان في انتظار رد الفعل لرسائله .

ورغم ان المحتوى الحرفي لهذه الرسائل غير معروف ، يبدو انهـا كانت تحمل نداء للتسليم . لم يكن المهدى قد قرر مهاجمة الحامية ولعلـه لم يكن ليفعل لولا استفزازه باعدام الرسولين شنقا . ولم تكد تمضي ثـلاثـة ايام على الحادث حتى انقض رجاله على الابيض في معركة كان تفوق المهدى فيها واضحا فوصفها احد شهود العيان بقوله : " كانت جيوش المهـدى دافقة لها صوت الخاوية هجموا علينا وصبرنا عليهم حتى قربوا علينا وضربت الاربع ابراج المتيقر دفعة واحدة وانصبت عليهم نيران الحرب مـن المدافـع والصواريخ وسلاح الرمنغتون ونحن بجميعنا على قدم واقفيـن صفوف صفوف الكتف على الكتف وقد اطلقنا القدير السباب والصبر على البلا

---

(١) المهدى الى كافة العلماء والتجار والفقراء والمساكين القاطنين بمدينة الابيض ، ذو القعدة ١٢٩٩ - انذارات ب، ص ٢٨ ـ ٤٥

النازل من السماء حتى انا تتلنا منهم المائة والالوف وما زالوا نازلين علينا بلا خوف وبنا وهناهم بالرصاص ٠٠٠ " (١) ٠

ولم تنته تلك المعركة بهزيمة المهدي وحسب ، بل باستيعابه درسا كان ذا فائدة عظيمة له في معركة الخرطوم فيما بعد ٠ لقد تأكد لـــه انه ثمة صعوبة حقيقية في انزال الهزيمة بجنود الحكومة الذين يحسنـون الرماية بالاسلحة النارية من خلف حصونهم المنيعة ٠ ولم تفلح كل تلـك الجموع المؤلفة المسلحة بالحراب والسيوف من دحر حفنة ضئيلة من العساكر الشلاليين ٠ فقرر المهدي لتوه ايفاد الرسل لاحضار الاسلحة النارية التي غنمها من راشد ايمن ويوسف الشلالي وتركها في جبل قدير تحت حراسة محمود عبد القادر ٠ وحال وصولها تم تكوين فرقة قوامها الاسرى من الجهادية السود المدربين على استخدام تلك الاسلحة واوكل امر قيادتها لحمدان ابي عنجه الذي حفل تاريخه بالقتال مع جيش الزبير باشا وابنـه سليمان ٠ وكان واضحا ان المهدي يسعى الى خلق فرقة على نمط قـوات الحكومة فأتى بالرجال الذين تلقوا شيئا من التدريب العسكري والخبـرة الحربية حتى يكونوا عضدا لاولئك الذين لا يحاربون الا بالسيوف والعصـي الداخل وهي اسلحة برهنت الاحداث انها وحدها لا تكفي ٠

ولقد ازداد المهدي يقينا بعد المعركة بأن دفع قواته في هجوم مباشر حتى لو كان بالاسلحة النارية قد يفقده الكثير وان حصار حاميـة الحصار هي اكثر ملاءمة فاستقر رأيه عليها ٠

فوجه بعد يومين من المعركة نداء آخرا لسكان الابيض يدعوهم فيه الى مراجعة موقفهم وموالاته خارج الخندق ، ويلاحظ هنا انــه

---

(١) يوسف ميخائيل ، ص ٥٠

يخاطب العلماء والتجار والعمد والفقراء والمساكين ، وقد استثنى الحكام من قصد . فلقد سبق ان خاطبهم فردا عليه بقتل رسله .

ولم تكن فكرة توجيه الانذارات مستحدثة هنا فقد درج عليها منذ معاركه الاولى ، وواظب عليها حتى سقطت الخرطوم . كما ان محتوى تلك الوسائل لا يختلف في جوهره عن بعضه البعض . فهو يستعمل اسلوب الترغيب حتى يحصل على تأييدهم فيقول " اني قد كاتبتكم لظن الخير فيكم واعلمتكم بالحقيقة التي لا كذب فيها . ولست فيها بمتحيل ولا متصنع وانما هو الحق الصدق الاتي من الله ورسوله ومعلوم انه لا يكذب على الله ورسوله الا من لا خلاق له عند الله تعالى ومن يعلم علم اليقين ان متاع الدنيا قليل لا يزن عند الله جناح بعوضه لا يؤثره على ما عند الله تعالى ولو اثره عليه لزال كان لم يكن واعقب عليه حسره لا آخر لها فلا يؤثر جاه الدنيا على التقوى والاقتداء بالانبياء والاصفياء الا من لا عقل له واني عبد مسكين لا طاقة لي بقوام ادنى شيء فلولا اني على نور من الله وتأييد من رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدرت على شيء ولا ساغ لي ان احكي بشيء ... " (١) وقد حذرهم من الاستماع لاراجيف الحكام فهؤلاء هم الظالمون الذين قال الله فيهم " (ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار) والمصيبة اذا جاءت تعم " (٢).

وهو يحثهم على التسليم بقوله " فأن اتيتم وسلمتم الامر لنا في الله ورسوله فأتركوا جميع اولادكم وعائلتكم واخرجوا لملاقاتنا خارج البندر من غير سلاح وكونوا من جملة الانصار فمن فعل ذلك فقد احرز نفسه وماله

---

(١) المهدي الى كافة العلماء والتجار والعمد والفقراء والمساكين ٢٦ شوال ١٢٩٩ (١٠ سبتمبر ١٨٨٢) انذارات ب ، ص ٣٨ — ٤٤

(٢) المصدر السابق .

وعليه امان الله ورسوله ويكون له ما تركه من الاموال والاولاد وان لم تعملوا ما ذكرناه توكلنا على الله وعضرنا لجهادكم جهادا لتبديد شملكم وخراب دياركم " (١) .

بقي المهدى ثلاثة ايام في انتظار استجابة الاهالي لتلك الرسالة ثم اعلن بعدها قراره بمحاصرة المدينة " بأمر من سيد الوجود " حتى يستسلم اهلها او يهاجموا بداخلها جوها . وهو انما يسير بهذا وفق الخطة التي طبقها بنجاح في مواقع متفرقة من انحاء كردفان وربما كان ينوى تنفيذها في الابيض . ولكن مقتل مبعوثيه كان داعيا للانتقام السريع . فقرر ان يستولي على المدينة في هجوم مباشر . اما القول بأنه حاصر الابيض بناء على نصيحة الياس باشا ام برير وبعض اهل الابيض ففيه شيء من المبالغة (٢) فهو ينفذ خطا عسكريا غير مستعد له هنا ولا يخرج عن نطاق ما درج عليه سابقا .

ولقد قام ٤٠٠٠٠ رجلا تقريبا بينهم ٥ ألف من الفرسان بالقاء الحصار بعد ذلك مباشرة —اى قبل نهاية شوال ١٢٩٩ (سبتمبر ١٨٨٢) . وطبق المهدى خطة خلق معسكرات حول المدينة تماما كما فعل بالنسبة للخرطوم فيما بعد .

قاد المنا اسماعيل حوالي ١٠٠٠٠ محاربا وعسكر من جهة الشمالي الشرقي وامتد خط القوات جنوبا حتى يقي المهدى في نهايته من الجنوب الشرقي (٣) ورغم ان رقابة دقيقة قد فرضت على مداخل المدينة حتى لا تتسرب اليها المواد الغذائية ، الا ان المحاصرين تمكنوا

---

(١) المهدى الى قاطبة العلماء والتجار والعمد والفقراء والمساكين ٢٦ شوال ١٢٩٩ (١٠ سبتمبر ١٨٨٢) الذكريات ، ص ٣٨ — ٤٤ .

(٢) Cuzzi, p.34.

(٣) Ohrwalder, p.39.

في بادئ الامر من سلب بعض الماشية من اصحابها اثناء مرورهم باطراف المدينة • وقد فطن الانصار الى هذا فوجهوا الاعراب باتخاذ طريق يمرفي وسط معسكراتهم ويجنبهم بالتالي قناصة الحامية •

ويبدو ان بعض الانصار قد حاولوا ادخال المواد الغذائية سرا للمدينة بهدف بيعها باسعار مرتفعة فأصدر المهدى منشورا حذر فيه من انزال عقوبة قصوى على كل من تثبت عليه التهمة •

وقد نفذ بالفعل حكما بقطع ايدى بعض الاعراب لانهم تجاهلوا هذا المنشور (١) •

لم تكن قوات المهدى ترابط خارج الخندق مغلولة الايدى بل كانت تسعى لاستنزاف طاقة الحامية البشرية بالمناوشات والاشتباكات الصغيرة وذلك هو الاسلوب نفسه الذى اتبع من بعد في حصار الخرطوم • وقد تمكن الانصار عند حصار الابيض من احتلال المنازل التي اخلاها اصحابها وصاروا يطلقون قذائفهم في عمق دائرة الاستحكامات حتى ان احدى هذه القذائف اصابت احد القومندانات امام باب دار المديرية نفسها (٢) •

وكان لا بد ان يتناقص مخزون الحكومة من المؤن فرأى محمد باشا سعيد وضع خطة تساعد على الاقل في تأجيل حدوث الازمة وبلاحظ ان غوردون قد نفذ ذات الاجراء عندما واجهته المشكلة في الخرطوم فيما بعد • جمع محمد باشا كل الذره من التجار واشتراها بالسعر الجاري على ان يتم الدفع بعد رفع الحصار (٣) • وكان من ابرز ردود الفعل التي

---

(١) اسماعيل بن عبد القادر ، ص ٢١٥

(٢) المصدر السابق •

(٣) يوسف ميخائيل ، ص ٥٧

احدثها الحصار في المدينة هو ارتفاع اسعار الذرة بشكل غير مألوف " الربع من بعد ما كان بعشرة ريال صار بثلاثين ريال وثاني يصبح بخمسين ريال وعلى هذا الحال في الشهر الخامس حصل مايتين ريال وفي السادس مايتين وخمسين الغاية ما بلغ ثلثمائة خمسة وعشرون ريال " (١) • ثم تعذر الحصول على الذرة حتى بهذا السعر المرتفع فلم يعد امام السكان سوى " العجلين والشجر وقش الرجله الناشفه والصمغ واولاد القرش " (٢) • ولم يصمد الكثيرون ازاء هذا الحال فبدأوا يتسللون خارج الخندق ليلا وكان بعضهم يقوم برشوة الحراس حتى يغضوا الطرف عنهم (٣) •

نجح الانصار في عزل المدينة كلية عن العالم الخارجي ولم يكن في الامكان ارسال اية مكاتبات من الابيض واليها • اما القوة التي ارسلت من الخرطوم فقد اضطرت قائدها الى التسليم فلم تكن ثمة وسيلة للوصول الى هدفه اذ ان مقاومة ذلك الجيش كانت بمثابة الهلاك المحتم •

ولا بد ان تكون حالة المدينة قد تركت بصماتها على اجساد اولئك الذين درجوا على التسلل ليلا ، وليس بمستبعد ان يكون بعضهم قد نقل الصورة بحذافيرها الى المهدى فما كان منه الا ان مارس مزيدا من الضغط في مجال الرقابة والنشاط العسكرى • حتى تم له ما توقعه وخطط له طوال اربعة اشهر •

---

(١) يوسف ميخائيل ، ص ٥٦

(٢) المصدر السابق

(٣) اسماعيل بن عبد القادر، ص ٢٢٦

ولقد جاء استيلاء المهدي على الابيض ليؤمن سيطرته التامة على السودان الغربي فقد انهارت مواقع الحكومة في دارفور تباعا واصبحت سلطة الحكم التركي في بحر الغزال كذلك آيلة للزوال •

ولقد احتل سقوط الخرطوم مكانا ماثلا ، فبعده اكتملت سيطرة المهدي على السودان الشمالي وكان لا بد ان تنهار المقاومة الحكومية في كل من كسلا والنيل الازرق •

التمهيد للاستيلاء على الخرطوم

جاءت معركة شيكان لتضاعف من ثقة المهدي في نفسه ، فهما تحـــرر " بطل الانجليز وفارسهم الذي كان يخشو منه بعض من كان ليس لـــه ايمان ، حتى بوماروح في الميدان .. " (١) ، فبدأ يخطط من توه للسيطرة على الخرطوم كما نقل احد الرواة قولته " الحمد لله تعالى ان كـــافت الترك الذين بكردفان والذين في الغرب سلموا لنا — اننا قتلنا مديريـــة كردفان وجماتها وجردت هكس الحملة وليس فاضل لنا الا فـــوردون وفتح الخرطوم .. " (٢) .

(١) يوسف ميخائيل ، ص ٦٤

(٢) المصدر السابق ص ٦٦

هاجم المهدي " الترك " في منشوراته منذ بداية الدعوة بوصفهـــم الحكام الذين شوهوا وجه الاسلام لانشغالهم بملذات الدنيـــــا وشهواتها . ولا يبدو واضحا اذا كانت التسمية تشمل المصريـــين ايضا . فقد درج اهل السودان على مناداة كل من هو اجنـــبي " بالتركي " حتى انهم سموا الفترة التي سيطر خلالها الانجليـــز على السودان بالتركية الحاضرة قياسا على التركية السابقة المهدية . وبعد مجيء هكس باشا وغوردون ايقن المهدي ان الانجليز وراء محاولات قمعه فبدأت تظهر سخامة في رسائل قادته ، محـــاولات لاستمالة الاتراك المسلمين لصفهـــم ضد النصـــارى من الانجليـــز الذين استولوا فعليا على مصر نفسها .

(ملاحق حـ ـ ط ـ ى ـ ز) .

شرع المهدى في تمهيد طريقه نحو العاصمة باجراء اتصالات مع اهالي المنطقة فجاءت الرسالة المشار اليها سابقا بتاريخ ١٠ محرم ١٣٠١ . وكانت هذه منشورا عاما تعززها باجراء اتصالات شخصية مع رجال القبائل وعلماء الدين . فكتب لمميز علماء السودان محمد الامين الضرير خطابا رغم انه يحمل تاريخا لاحقا لذلك المنشور ، الا انه لم يكن اول مكتوب يبعث به المهدى اليه . اذ جاء فيه قوله " واني قد عددت وكررت لك الانذارات والمواعظ التي تشهد حقيقتك بها وخاطبتك سابقا قبل كل الناس ونصحتك بالحقيقة التي لا بعدها وندبتك للاجابة لداعي الله فلم تجب دعوتي ، ونظرت الى الثقل والعلايق المحرقة القاطعة عن الله لحسن ظني فيك ومحبتي لك في الله وارادتي لك البر والخير الدايم والنعيم السرمدى والملك الكبير عند الله لم ايئس عن مخاطبتك ولم اتوقف عن دعوتك ... " (١) ويلاحظ هنا ان المهدى لم يطلب من محمد الامين الجهر بعداوة الحكومة واعلان نفسه عاملا له هناك ، كما هي عادته ، بل يطلب منه ان يهاجر اليه " فلم نوض عليك الا بالهجرة فقط دون امر اخر ".

ولعله قد فضل هذا لتشككه في امكانية فتح جبهة له في عقر دار الحكومة . ولم يكن اهل الخرطوم قد كشفوا عن بادرة تأييد له بعد ، ولعل هذا يعود الى عدة عوامل . فلا بد ان بعض الاهالي قد ابتهجوا عند سماع انباء انتصارات المهدى في الغرب الا انهم لم يجرؤوا على اعلان هذا خوفا من بطش الحكومة وهي على قاب قوسين منهم . ولقد كان سكان الخرطوم — بحكم ظروفهم — اقل اهل السودان حماسة لتنصيب المهدى حاكما على البلاد . فقد نعم هؤلاء بمجيء الحكومة التركية فتوفرت لهم بعض سبل الحياة الرغدة ووجد بعضهم الفرصة لكي يعمل في دواوين الحكومة او بين قواتها المسلحة . وهم في ذات الوقت لم يتعرضوا لبطش جباة الضرائب الذين كانوا يتصيدون ضحاياهم في الغالب الاعم بعيدا عن اعين السلطة المركزية . فلم تكن الخرطوم تعكس صورة فساد الحكم التركي كما تعكسها الاقاليم . ومن هنا جاءت استجابتهم لدعوة الثورة

---

(١) المهدى الى محمد الامين .. ربيع آخر ١٣٠١ ، انذارات بحمة ٩٤ — ٨

فاترة مترددة ولم يكن بينهم من يرى ضرورة احداث تغيير سياسي في البلاد • ولهذا فقد اراد المهدي ان يجمع انصاره حول معسكره بعيدا عن مقر الحكومة قبل ان يقرر مواجهتها •

ولقد اتصل المهدي ببعض الاعيان القاطنين في القرى المنتشرة حول المدينة ليبادروا الى اثارة القلاقل في وجه الحكومة قبل وصوله اليهم ، فكتب عدة خطابات للشيخ العبيد ود بدر في ام ضبان وابنائه وبعض جيرانه (١) •

ويلاحظ ان اهالي تلك القرى قد تحفظوا في ابداء رأيهم في الاحداث الجارية حتى اوائل ١٨٨٤ • وربما كان مرد هذا المصلحة المشتركة التي تربطهم بالخرطوم وسكانها • فقد عرفت مناطق الجريف والحلفايه بازدهار منتوجاتها الزراعية والتي كانت العاصمة مجالا رئيسيا لتسويقها • فقيام اهلها بالدعوة ضد الحكم التركي ستثير من الاضطرابات ما يتهدد معه كسب رزقهم الاساسي • فظلوا على الحياد حتى كشفت لهم الاحداث ان حكومة الخرطوم قد اصبحت مهددة بالزوال •

لم يشر المهدي — صراحة — في اولى خطاباته للشيخ العبيد الى ضرورة العمل المباشر ضد الخرطوم بل يقول " ••• وبوصول جوابي هذا اليك اجمع شملك في الله وارسل لجميع اتباعك واحبابك واهلك وعشيرتك في الله وجاهد في معاداة الكفره واقطع المملك وبارز بالعداوة ظاهرا وباطنا وبالقتل والاسر والرباط والحصار ولا تتوقف ابدا الامر ما ان

---

(١) الشيخ العبيد ود بدر (عرف ايضا بود ريا) (١٨١٠ — ٨٤) ينتمي الى الابراهيماب احد بطون قبيلة المسلمية • من مشايخ الطريقة القادرية فرع تاج الدين البخاري • اشتهر بالتقوى والصلاح فتقاطر عليه الناس افواجا من مختلف ارجاء البلاد وقد اصبحت خلوته التي اسسها في قرية ام ضبان اكبر مركز للقرآن في منطقة الخرطوم •

كنت ممتثلا مصدقا بمهديتنا ولا تبالي حكم ما فصل محمد الطيب ود البصير وان خشيت فانضم اليه وهاجر من محلك الذى انت فيه واتحد معه كيد واحدة " (١) .

وعندما تأكد للمهدى ان نفوذه في المنطقة قد توطد واشتد عوده كتب مرة اخرى للشيخ العبيد مشيرا له بوجوب القضاء الحصار على الخرطوم " ... فاذا بلغك جوابي هذا فأما ان تهاجر انت ومن معك من الاصحاب والمحبين وما يطلب ما عند رب العالمين من غير نظر الى علاقة ، واما ان تحاصروا الخرطوم وتجاهدوا من اغترتهم الدنيا ومنعوها عن الصدق مع الحي القيوم حتى نأتيكم ولا رضينا لنا عنكم الا بهذين الامرين فاذا فعلتم رضينا عنكم " (٢) .

ولم يمض وقت طويل حتى اثمرت هذه الخطابات الا ان الشيخ العبيد اختار ان ينفذ الامر الثاني فأعلن نفسه داعية للمهدى في نهاية فبراير ١٨٨٤ .

كتب المهدى ايضا لزعماء الشكريه ولعله فطن الى نفس الحقيقة التي اخذها غوردون في الاعتبار عندما عين عوض الكريم ابى سن رئيسا لمجلس الاعيان في الخرطوم ، اذ كانت قبيلة الشكرية اكبر قبيلة تعيش في منطقة الصراع ولا بد ان يؤثر انحيازها لاحد الفريقين تأثيرا مباشرا وجذريا في ميزان القوى .

دعا المهدى الشكريه الى الاخذ بمفاهيمه التي طالما نادى بها

---

(١) المهدى الى العبيد بدر ، قبل ٤ جمادى اول ١٣٠١ (١٣ مارس ١٨٨٤) انذارات ص ١٢٧ – ٩

(٢) المهدى الى العبيد بدر ، انذارات ب ص ١٢٩ – ٣٢ .

وهي في الاساس نبذ مباهج الدنيا من مال وديار والاسراع للانضمام اليه حيث كان بالغرب . ويبدو انهم قد ردوا على رسالته معلنين تأييدهم له دون ان ينفذ احد منهم امر الهجرة (١) . وازاء تباطؤهم هذا كتب لهم المهدي رسالة اخرى يحثهم من همة الهجرة على ان يرفعوا راية الدعوة في مناطقهم . فجاء في تلك الرسالة قوله " ... شدوا ازركم على اقامة الدين والجهاد على اعداء الله الكافرين والخروج عن طاعتهم وتشتيت شملهم وتفريق جماعتهم وبارزوهم بالعصيان لتنالوا كمال الرضوان وقاتلوهم فأنهم مخذولون وجماعتهم فأنكم عليهم منصورون وشمروا في ذلك عن ساعد الجد والاجتهاد " (٢) .

ويبدو ان الشكريه قد انقسموا حول هذا الامر فاعلن جزء منهم تأييده للمهدي واشترك بقيادة عبد الله عوض الكريم ابي سن في حصار قداسي في اول يناير ١٨٨٤ (٣) .

بالاضافة الى مجهودات المهدي هذه كان هناك نشاط عامله محمد الطيب ود البصير في المنطقة .

فقد نجح ود البصير في تجنيد قبائل الدباسيين

---

(١) المهدي الى عوض الكريم احمد ابي سن ، انذارات ب ص ٨٦ ، ٩ ذكرت بعض المصادر ان الشكريه كتبوا تلك الرسالة فقط ليأمنوا شر البطاحين الذين درجوا على سلب ماشيتهم .

(٢) المصدر السابق .

(٣) بابكر بدري ، ص ٢٨

والخوالده للعمل على نصرة المهدى (١) ثم استولى على قريـة العلاويين وتقدم نحو المسلميه (٢) .

---

(١) ابراهيم فوزى ، ص ٢١٥

محمد الطيب ود البصير ، من قبيلة العلاويين يمت للمهدى بصلة النسب . اشتهر والده في المنطقة وعرف بحسن السيرة . كان محمد الطيب ود البصير من اوائل الشخصيات التي اسرلها المهدى بدعوته في ذي القعدة ١٢٩٧ وفي شعبان ١٢٩٨ اوفده لاخذ البيعه من اهالي الجزيرة . ثم شارك في حصار الخرطوم فيما بعد وتولى مهمة امداد الانصار بالغذاء . بعد سقوط المدينة عمل في الحدود الحبشيه الا ان القت القوات الانجليزية القبض عليه في تلك المنطقة وبعد ما افرج عنه عاد للجزيرة وتوفي بها ١٩٠٨ .

(٢) The Times, 12th January 1884.

رد الفعل لمخطط غوردون

بيد ان هزيمة صالح المك لود البصير في واقعة ود مدني في ١٧ يناير ١٨٨٤ لم تغضب الاهالي بالانفضاض من حول الانصار • وقد حاول صالح المك ان يحمي طريق الخرطوم -- سنار فتقدم الى جزيرة فداسي وحصن نفسه فيها • وارسل في طلب المعونة العسكرية من سنار فأتته الباخرة " محمد علي " محملة ببعض الجند والذخيرة (١) •

ولكن ود البصير سارع بوضع حصار على الجزيرة من الشمال ودعا عبد المحمود الأمين ابي سن المنزول من جهة الجنوب (٢) •

وقد تمكن هؤلاء من عزل الخرطوم عن المنطقة الجنوبية بقطع اسلاك التلغراف ونزع اعمدته نهائيا وتأكد في ذلك الحين انضمام كل شيوخ القبائل في القرى ما بين الخرطوم وسنار الى المهدى ، فلم يكن بالامكان ارسال اى فرق من الجنود او المكاتبات جنوب العاصمة وقد اجبرت بعض البواخر التي كانت في طريقها الى سنار على العودة بعد مغادرتها المدينة بوقت قصير (٣) • كان بقاء الطريق الى سنار تحت سيطرة قبائل تدين بالولاء للحكومة امرا حيويا للخرطوم ، اذ انها كانت تعتمد على مزارع تلك المنطقة في الحصول على غذائها (٤) •

ولقد وضع المهدى خطته منذ اوائل عام ١٨٨٤ بحيث تقوم معسكرات الانصار في انحاء متفرقة من المنطقة المتاخمة للمديرية وتبدأ نشاطها بالدخول في معارك ضيقة النطاق ضد رجال الحامية • فشن

---

(١) نعوم شقير ص ٧٦٨

(٢) بابكر بدري ص ٢٨

(٣) The Times, 15th January 1884.

(٤) Ibid, 14th January 1884

اتباع العبيد ود بدر بقيادة ابنه ابراهيم أول هجوم على عساكر الشايقيه المرابطين في منطقة الحلفايه في منتصف مارس ١٨٨٤ • وبعد انـــزال الهزيمه بهم تمكنوا من اسر مائة وخمسين عسكريا وغنموا بعض الاسلحـــة والذخيرة (١) وقد توالت بعد ذلك هجمات تلك المجموعات علـــى الخـــرطوم •

كتب المهدى الى دفع الله ، حوار الشيخ العبيد ، الذى كـــان يقيم بقريـــة القبة شمـــال العاصمة ليبدأ في الهجوم من ذلك الموقع ، قـــائلا : " ••• بمجرد وصول جوابنا اليكم صحبة رافعه محمد النـــاير تحزبوا في الله احتزابـــا احتزابا وجهزوا مالكم واستعدوا للقتال والجهـــاد الاكبر بكل ما امكنكم وانضموا الى العبيد بدر بمجرد سماعكم حلولنـــا بالبحر الابيض تقوموا بكامل رجالكم خفـــافا وثقـــالا وقابلوا الخرطوم بجهتكم التي يقال لها القبـــة وحاصروا اعداء اللـــه وضيقوا عليهم فأن اللـــــه يغرقهـــم وينصركـــم عليهـــم" (٢) •

ورغـــم ان هذه الرســـالة لا تحمل تاريخـــا الا ان بعض المصادر قـــد ذكرت ان قـــافلة غوردون قد تعرضت للمنـــاوشة من قبـــل الانصـــار فـــي حوالي منتصف فبـــراير ١٨٨٤ (٣) • وربمـــا كان هؤلاء هـــــم اتبـــاع دفع الله الذين استنفرهم المهدى •

ونجـــح الانصـــار في كسب تأييـــد الشيـــخ عبد القـــادر ابراهيـــم الـــذى عينـــه غـــوردون عضـــوا في مجلس الاعيـــان المنوط به الاشـــراف

---

(١) المهدى الى محمد خالد ٤ جمادى اول ١٣٠١ (٣ مارس ١٨٨٤) زقل ٣

(٢) المهدى الى احبابه في الله خصوصا دفع الله تلميذ العبيـــد ود بدر انذارات بعض ١٢٩ — ٤٠

(٣) ابراهيم فوزى ، ص ٢٧٢

على ادارة المديرية • (١) • كان الشيخ عبد القادر قد صاحب ستيورت في احدى رحلاته التفقدية على النيل الابيض جنوبي الخرطوم وقد اعترف ان شعور الاهالي تجاهنا رغدا ثيا لدرجة أن أية محاولة منهم للمسؤول كانت ستقابل بلا شك باطلاق النار عليهم (٢) • ولعل الشيخ عبد القادر قد اقتنع بعد هذه الجولة ان معركة الحكومة خاسرة بلا ريب وان نفوذ الانصار في تصاعد فجمع حوالي ثلاثة الاف من اتباعه واستقر في قريبة الكلاكله (٣) •

وقد أثمرت خطابات المهدى للشيخ مصطفى الامين ام حقين بجزيرة اسلانج في اقناعه بالانضمام اليه فعسكر في خورشمبات مع حوالي الفي محارب، كما استطاع الشيخ احمد ابو ضفيرة ان يجمع بعض قبائل الجموعية والفتيحاب وعسكر في ديم ابي سعد جنوبي ام درمان •

واما من الجبهة الشرقية فقد استنفر الشيخ المضوى عبد الرحمن المنسي اتباعه فاجتمع له حوالي عشرة الاف اوكل امر قيادتهم لاحد ابناء الشيخ العبيد وقاد ابناء المحسي منهم احمد الفريع والشكرية القدوراب احمد ود عماره والمغاربة محمد عبد السلام والبطاحين طه عبد الباقي والحسانية سليمان ود كاسر (٤) •

ويبدو ان عمال المهدى قد حاولوا اتباع منهجه في مخاطبة المعارضين للدعوة ، فكتب الشيخ المضوى الى غوردون يقول " •• بلغني

---

(١) عبد القادر ابراهيم (- ١٨٩٣) من احفاد حمد ود أم مريوم • شارك في حصار الخرطوم وبقي حتى سقوطها • اوكلت اليه بعد ذلك قيادة جيش الانصار في شكا جنوب دارفور وقتل في اشتباك مع قبائل الدينكا •

(٢) ستيورت الى بيرنج ١ مارس ١٨٨٤ PRO, FO, 78/3669.

(٣) نعوم شقير ، ص ٧٧٥

(٤) محمد عبد الرحيم ، ص ١٤

انك تزعم ان معظم اهل السودان مجبورون على اتباع محمد احمد المهدى وليس لهم الرغبة فيه باطنا وانك تحب خلاصهم منه ، فأعلم ان جميع اهل السودان خاصة بهم وعامتهم قد اتبعوا محمد احمد قلبا وقالبا ودليل ذلك بذلهم ارواحهم بين يديه في الحروب ، واني انصح لك ان تفعل احد امرين اما ان تسلم للمهدى فتسلم بمن معك من اهل الخرطوم فيؤتك الله اجرك مرتين او ان ترحل الى بلادك فتنجو من هذه المهالك فأنه لا خير لك في البقاء هنا على هذه الحال لانك ان بقيت، فلا بد من هلاكك انت وجميع رجالك والسلام " (١) .

ولم يقتصر نشاط الانصار على منطقة الخرطوم وحدها بل اتسع نطاقه وامتد شمالا فتمكنوا من قطع الاتصال التلغرافي ببربر ولم يكن بالامكان المخابرة الا عن طريق الرسل (٢) . وقد ارسل كوزى/الذى عينه غوردون حاكما على بربر رسالة الى بيرنج فحواها ان الاتصال التلغرافي بين مدينته والخرطوم قد قطع نهائيا (٣) وبعد ايام قلائل كتب حسين باشا خليفة الى نوبار باشا يخطره بعزل الخرطوم ، وانها قد اصبحت في حالة حصار بواسطة الانصار الذين يتزايد عددهم حولها بانتظام (٤) هكذا كان الموقف في مارس ١٨٨٤ - أى بعد حوالي شهر من وصول غوردون .

كانت المنطقة الجنوبية تحت قبضة الانصار ومن الشمال قامت معسكراتهم من شلال السبلوقة حتى مشارف الخرطوم (٥) واتضح جليا أن اى محاولات

---

(١) نعوم شقير ، ص ٧٧٧

(٢) The Times, 12 February 1884.

(٣) كوزى الى بيرنج ١٩ مارس ١٨٨٤ PRO, FO 78/3669

(٤) حسين خليفة الى نوبار ، Egypt,12

(٥) كوزى الى بيرنج ٢٤ مارس ٨٨٤ PRO FO 78/3669,Enclosure No5

للاتصال بمصر تواجهها صعوبات عملية وقد كان بيرنج على علم بهذا فنقل الى جرانفيل تخوفه من خطورة عملية الانسحاب (١) • ولم يكن لسياسة غوردون الاصلاحية اى اثرفي كسب تأييد الاهالي القاطنين حول المدينة في حين وجد المهدى بينهم تعاطفا واسع النطاق لم تفلح سياسة المهادنة في زعزعته ، كما ان التهديد باستخدام قوات اجنبية لم يأت أكله فقد ايقن الاهالي ان المهدى يملك المقدرة للانتصار حتى على مثل تلك الجيوش •

بل ان سياسة غوردون لم تجد استجابة حتى بين الاهالي داخل اسوار المدينة حيث كان المهدى مواظبا على اتصاله بهم فخاطب " كافة اهالي الخرطوم " بقوله " ••• نعرفكم ان الله تعالى غني عن العباد يهدى من يشاء الى طريق الرشاد ويضل من يشاء ومن يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وقد طالما تكررت منا النصائح واردنا نجاة عباد الله وسلوكهم لطريق الله فأناب الى الله من اراد الله سعادته وخالف من خذله الله فأصمه وأعمى بصره فلا ادرى ما الداعي لعدم الانقياد •• وقد طالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده وحذرتكم من وعيده فالى متى الغفلة والتسويف والى متى مبارزة مولاكم بالعداوة لم يأت لكم ان تميل قلوبكم الى ما ينفعكم في آخرتكم ويجلب لكم الخير ويصرف عنكم الشر " (٢) •

كما ارسل مكتوبا آخر الى اهالي حلة "سلامة الباشا" يستحثهم فيه الى القيام لنصرة دين الحق (٣) ومن الجدير بالملاحظة انه خاطب اهالي هذا الحي بشكل خاص دون سائر الاحياء لان "سلامة الباشا" كان موطن فقراء السكان الذين لا تربطهم مصلحة شخصية من مال او سلطة بالحكومة ويقع على عاتقهم العبء الضرائبي الذى كانت تفرضه الادارة التركية • وتسم

---

(١) بيرنج الى جرانفيل ١٨ مارس ١٨٨٤ PRO, FO G/D 29/126

(٢) المهدى الى كافة اهالي الخرطوم ، انذارات بخش ، ٢٥٥ — ٦

(٣) المهدى الى اهالي حلة سلامة الباشا خصوصا حاج حضره ومحمد حسن واخوانهم ١ جمادى ثان ١٣٠١ (٢٤ مارس ١٨٨٤) فيوضات ٢/ ١٧ موقع هذا الحي حوالي مكان شمبات الحالية •

لهذا يملكون الاستعداد الطبيعي للمبادرة لتأييد المهدى . ومن هنا جاء ردهم لنداء المهدى ايجابيا ولعل احمد العوام كان يعنيهم حين كتب " لله دراخل السودان فأنه لم يتيسر لغوردون باشا ومن معه مع ما اجروه من الحيل السياسية والمكايد التركية كحرق دفاتر متأخرات الاموال الاميرية عن السنين الماضية وتنزيل جميع الضرائب والعشور والعوايد الى نصف قيمتها الاصلية وحل معاهدة الرقيق وبذل العطاء والاحسان الى جميع الفقراء والمساكين ان يحول وجه واحد من الاهالي عن قبلته الوطنية او يتعده عن مساعدة جيش المهدية " (١) ولم تفلح سياسة الارهاب في اثارة الفزع وسط الاهالي ولعلها قد اصبحت حافزا لهم لمساندة المهدى ضد القوات الدخيلة التي سوف ترسل لاخضاع بلادهم " فازدادت بذلك حميتهم الدينية والتهبت نيران محبتهم الوطنية فأغلقوا جميع المنافذ والطرق" (٢) وقد كانت موجة الانعطاف نحو المهدى بين سكان المدينة في تصاعد حتى أعرب غوردون عن خشيته من مؤامرة داخل الخرطوم اكثر من تخوفه من الحشد و المرابط خارج الاسوار (٣) .

وقد لوحظ انتشار هذه الموجة حتى بين الطبقة التي كان غوردون يعتمد عليها في تنفيذ سياسته فكان بعض معاونيه من الاداريين والضباط والعلماء يتظاهرون له بالولاء ويخططون لتقويض حكمه من وراء ظهره .

---

(١) احمد العوام ، ص ٥٤

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٦

(٣) غوردون الى بيرنج ٢٦ فبراير ١٨٨٤ PRO,FO,78/3667. No.2

Cuzzi, p.121.

كما كان بعض الاهالي يبعثون برسائل الولاء والتعضيد للمهدى بين الفينة والاخرى (١) وقد اكتشف غوردون فيما بعد مكاتبة مثل هذه موقعة بخمسة عشر اسما بينها اسماء بعض اولئك الذين عينهم حكاما على المدينة (٢) كما كان منهم احمد بك علي جلاب ، مدير الخرطوم ، والفضل افندى ابراهيم باشكاتب محكمة الاستئناف ومحمد سرور كاتب الضابطيه وابو بكر الجاركوك واحمد بك دفع الله واد ريس النور اعضاء محكمة الاستئناف . ومن التجار ظهرت اسماء ابراهيم شاكر ومحمد عبد الرحمن البشير وعثمان بك مكوار .

ووقع من الاعيان الحاج ناصر ابوحسوس والخليفة ود ارباب ثم زمزمي بك علي جلاب عضو المحكمة الاهلية ومحمد الامين الضرير شيخ الاسلام . وقد بعث الموقعون مع الرسالة مبلغا من المال مع وعد بالالمام بالانصار حينما تعين المحلة المناسبة (٣) .

لم تعد في سياسة غوردون اذن جدوى في نفوس الاهالي وكانوا " يتسللون ليلا للخروج بكل سهولة حتى ان بعضهم يرشي الخفراء الذين حول الخندق حتى يتغافلوا عنهم " (٤) .

---

(١) Ohrwalder, p.132.

(٢) Journals of Gordon, Vol. IV.12th October 1884.

(٣) Nushi Pasha, p.166

(٤) اسماعيل بن عبد القادر ، ص ٣٢١

الفصل الخامس

مشاكل الحصار

ايقن غوردون بعد مضي شهر تقريبا على وصوله ان عليه ان يستعد لمعركة عسكرية اذا اراد بقاء الخرطوم تحت سيادة حكومته ، فقد اتضح ان الحل الاصلاحي لا يجد من التأييد ما يبشر بنجاحه اذ بدأت جموع الانصار تزحف نحو الخرطوم في محاولة لفرض حصار حولها • وكان لا بد ان تنجم من جراء هذا عدة مشاكل للفريقين المتنازعين يعتبر التصدى لها ومعالجتها عاملا هاما في كسب المعركة • ولعل نقطة الضعف الاساسية في موقف غوردون والتي لم يملك لها دفعا هي انه كان في موقف المحاصر•

فلم تقتصر تلك المشاكل - التي ظهر بعضها بعد مجيئه مباشرة - على المسائل الادارية والعسكرية الوارد ذكرها في غير هذا المكان بل تعدتها لتشمل قضايا اخرى منها الاتصال ، والمال ، والغذاء • وكان لا بد ان تتدهور كل من هذه مع تقدم الحصار وحتى اصبحت تهدد المدينة تهديدا فعليا ومباشرا •

اما الفريق الاخر فقد كان يتمتع بوضع مريح الى حد كبير الامر الذى قلل من حدة المشاكل التي كان عليه ان يواجهها •

وقد ساعده هذا بلا شك على الاحتفاظ بثقة جماهيره ودفعها الى تصعيد عملياتها حتى تمكنت في النهاية من فرض الحل الذى تبغيه •

عـــزل الخـــرطـــوم

رغم ان سكان السودان الشمالي والشرقي لم يلعبوا دورا مبـاشـرا في حصار الخرطوم الا انهم تمكنوا حين رفعوا راية المهدية في مناطقهم من عزل المدينة عزلا يكاد يكون شاملا عن مصر ، وبالتالي عن العالم ، فـقـد كانت مصر هي النافذة التي يطل منها السودان على الدنيا والباب الذى يأخذه اليها في تلك الايام • واثبتت اسلوب المهدى في استنفار الزعمـــاء المحليين لتبنيي دعوته في مناطقهم فعاليته وايجابيته في هذا المجال • ففي الوقت الذى كان انصاره يعملون للسيطرة على منطقة جنوبي الخرطوم كـان عماله في شمال وشرق السودان يعملون بنفس القدر لقطع وسائل الاتـصـــال بين الخرطوم والخارج • فجاء عزل الخرطوم نتيجة مباشرة للنشاط الــذى قام به محمد الخير عبد الله خوجلي وعثمان بن ابي بكر دقنه • فقد كانـت الطرق البرية والنهرية المؤديه الى مصر بالاضافة الى خط التلغراف تمـــــر عبر اراضيهما •

تمكن غوردون خلال شهر فبراير ومارس من استخدام الخـــــــط التلغرافي الذى يربط الخرطوم بالقاهرة عن طريق وادى حلفا ، دنـقـــلا العرضي ، مروى ، بربر ، شندى ويمتد عبر مسافة قدرت بـ ٧٨٩ ميلا تقـريبا (١)
وكان بقاء هذا الخط تحت سيطرة الحكومة امرا حيويا بالنسبة لمهمة غوردون فقد جاء للسودان موفدا من قبل حكومتي مصر وبريطانيا فأصبح لزاما عليـه ابلاغ الحكومتين بتطور الاحداث في حينها بصورة مستفيضه • وهذا هو عين ما دون عليه طوال الفترة التي ظل فيها خط التلغراف صالحا للاستعمال • وقد كان بيسرنج ، من ناحية اخرى ، منتظما في السـرد

---

(١) Leverson, " Insurrection of the False Prophet ", see p. 217

على تساؤلات غوردون وآرائه بعد عرضها على الحكومتين المصرية والبريطانية اذن فقد كان الاتصال المنتظم السريع بالقاهرة ضروريا حتى يتمكن غوردون من تنفيذ مهامه التي كانت تتحكم فيها ظروف خارجية متشعبه • وبمرور الزمن تضاعفت الحاجة لهذا الاتصال ، فقد اصبحت المدينة في حالة حصار وكان من الضروري ان يطلع اولئك الذين بعثوا به بدقائق الموقف حتى يتخذوا الاجراءات التي تتناسب وذلك الظرف •

ظل الاتصال التلغرافي بالقاهرة ممكنا الى ان بدأت ثورة القبائل في الشمال في مطلع عام ١٨٨٤ • ربما يعود احتفاظ تلك المنطقة بهدوئها حتى ذلك التاريخ الى بعدها عن قلب الثورة في اقاصي الغرب ، كما ان علائقها التجارية مع مصر والحكومة القائمة آنذاك في الخرطوم قد جعلت اهلها يترددون في اتخاذ موقف ايجابي مبكر من المهدى • الا ان هذا الهدوء لم يقدر له ان يدوم طويلا اذ سرعان ما لاحت بوادر الثورة في الافق • ويمكن تأريخ بداية هذه المرحلة بعودة احمد حمزه السعدابي ، احد مشايخ الجعليين وهو من بيت الملك نمر ، من عند المهدى في اول عام ١٨٨٤ • وقد توافق وصول غوردون الى بربر مع ذلك الحدث ، الا ان هذا لم يقف عائقا في سبيل انضمام رجال القبائل الى السعدابي ، بل على العكس ساعد انتشار محتويات فرمان الاخلاء في دفع عجلة الانصار اسيالا الى الامام • فحسم ، بناء عليه ، كثير من المترددين ومؤيدى الحكومة موقفهم ، اذ تأكد لهم ان لا مناص من سيطرة المهدى على البلاد (١) •

ومن ثم بدأت معسكرات الانصار في الانتشار شمالا وجنوبا من بربر منذ اواخر مارس ١٨٨٤ فشمل نشاطهم كل المنطقة الواقعة ما بين شندى وبربر حتى انهم في حوالي ٢٥ منه تمكنوا من قطع

---

(١) Cuzzi, p.56.

الاتصال التلغرافي بين المدينتين (١) في حين ان الخط التلغرافي بين الخرطوم وشندى كان معطلا منذ ١٢ مارس بعد ثورة القبائل شمالي العاصمة (٢) • ورغم ان الاتصال بين بربر ومصر ظل مفتوحا بعض الوقت الا انه كان مهددا بالانقطاع في اي لحظة بعد ١٨ ابريل • وكانت سيارة الانصار فيه شاملة على كل المنطقة الواقعة شمال بربر حتى ان بعض المسافرين الى القاهرة قد وقعوا في قبضتهم بعد مسيرة يوم واحد منها (٣) •

اذن فقد رأينه قوردون مشكلة الاتصال بالقاهرة وهو لم يكمل شهره الاول في الخرطوم بعد • ولم تكن هناك اية بادرة تشير الى ان الوضع قد يتطور في مصلحته ، بل على النقيض من هذا بدأت جموع الانصار تزحف نحو بربر لتسيطر على تلك المدينة ذات الاهمية البالغة بالنسبة للخرطوم •

ظل محمد الخير عبد الله خوجلي في بربر يوازن بين الحكومة من جهة وتلاميذه السابق من جهة اخرى لفترة طويلة رغم ان المهدى كان قد اسر اليه بدعوته في عدة مكاتبات شخصية • وفي فبراير ١٨٨٤ قرر حسم موقفه بالهجرة الى المهدى حتى يقف على حقيقة الاحداث بنفسه • وقد عاد في نهاية ابريل محملا بالايمان القاطع بصدق دعوة المهدى وببعض الرسائل لمشايخ تلك الجهات وقد فوضه المهدى لاخذ البيعة منهم (٤) • فانضم اليه احمد حمزه السعدابي باتباعه في المتمة وعند

---

(١) Cuzzi, p.56.

(٢) Holt, The Mahdist State in the Sudan.1881-1898,p90

(٣) Cuzzi, p.64-5

(٤) نعوم شقير، ص ٧٨٦ - ٧

وصوله الى الدامر بايعه احمد المجذوب (١) فاتخذ بربر وجهته بصحبة جيش قوامه ٤٠ الفا من الجعليين والرباطاب والبشارين من المشاة والفرسان وقد تسلح بعضهم بالاسلحة النارية • وعسكر محمد الخير حول المدينة ومن هناك بعث بجملة رسائل الى رجال الحامية والاعيان يطالب منهم التسليم دون اراقة دماء • فاستجاب له البعض وعبروا النيل الى حيث تقوم معسكرات الانصار (٢) وقد جاء سقوط بربر في ايدى محمد الخير واتباعه في ٢٣ رجب ١٣٠١ . (١٩ مايو ١٨٨٤) ليضع النهاية لاى امل لغوردون في اجراء اتصالات تلغرافية بمصر •

لم يعد امام غوردون خيار بعد ذلك سوى الاستعانة بالاشخاص المتنقلين على ظهر البواخر او الدواب او الوسيلتين معا لنقل رسائله الى مصر • ولقد كانت هناك صعوبات عملية تجعل الاستفادة الفعلية من هذه الوسيلة امرا متعذرا • فقد كانت الطرق التي يتحتم على الجواسيس عبورها محفوفة بالمخاطر فكانوا نظرا لهذا يطلبون مبالغ خيالية من المال (٣) وقد كان وقوع احدهم في ايدى الانصار متوقعا في اى لحظة ومن هنا كان لا بد ان تأتي الرسالة في شكل مقتضب اقتضابا قد يخل في بعض الاحيان بالمعنى • ويشكل طول المسافة الحقة الرئيسية ، اذ كان الطريق الذى يربط بين مصر والسودان يمر ببربر ومنها شمالا او شرقا • من الشمال كانت هناك عدة طرق : طريق كورسكو - ابو احمد - بربر - الخرطوم عن طريق النيل ويبلغ طوله حوالي ٨٧٢ ميلا ، طريق وادى حلفا - مروى عبر النيل ثم طريق الصحراء الى بربر فالخرطوم (خط التلغراف)

---

(١) نعوم شقير ، ص ٧٨٦ - ٧ •

(٢) Cuzzi, p.59

(٣) Ibid., p.56

ويبلغ طول هذا حوالي ٧٨٢ ميلا ، طريق وادى حلفا - ام بحول عبر النيـل ثم عبر الصحراء الى شندى فالخرطوم ويبلغ طوله حوالي ٦٥٦ ميلا (١) كـان على غوردون ان يبحث برسوله ليتفادى أيا من هذه المثالات من الاميال ويتحمل مخاطرها . ولقد كان اقصر الطرق ، ٥٧١ ميلا ، طريق كورسكو - ابوحمد - بربر - الخرطوم يمر في وسط منطقة يسيطر عليها الانصار كليه ، الامر الذى حتم على حاملي تلك الرسائل اما المجازفة بعبور هذه المنطقة او اختيـــار طريق آخر اطول منه .

اما من ناحية الشرق فهناك احتمالان : طريق سواكن - بربر - الخرطوم ويبلغ طوله ٤٤٥ ميلا تقريبا ثم طريق مصوع - كسلا - ابوحراز - الخرطوم - ويبلغ طوله ٦٥٣ ميلا تقريبا (٢) كان يمكن ان يكون الطريـق الاول مثاليا لولا سقوط بربر واندلاع نار الثورة في السودان الشرقي . لقـد ظل ذلك الجزء من البلاد هادئا حتى منتصف ١٨٨٣ . كان عثمان دقنه يتسقط اخبار المهدى على البعد ، الى ان قرر اخيرا ان يشد الرحال اليه . فأسبغ عليه المهدى برتبة وعينه اميرا على الشرق وحمله خطابات للاهـالـي والاعيان يدعوهم للقيام لنصرته . فاستجابت له قبائل الحسانات والبدندوه والارتيقة وتوجهوا لحصار الحاميات المصرية في مواقعها الثلاثة في طوكر وسنكات وسواكن في آن واحد (٣) .

وفي مطلع عام ١٨٨٤ تمكنت قوات عثمان دقنه من السيطرة على طريق سواكن-بربر (٤) كان لهذا الطريق اهمية خاصة بالنسبة للخرطوم ، فرغم عدم وجود خط تلغراف عليه الا انه اقصر طريق سواء من الشـــرق او الشمال يصل بين الخرطوم والعالم الخارجي ، وفقدانه بلا شك يعد فـــح

---

(١) Col. Frazer, "Relief of Khartoum", see p. 217

(٢) Ibid.,

(٣) نعوم شقير ، ص ٧٤٨ - ٩

(٤) Holt. <u>The Mahdist State in the Sudan 1881-1898</u>, p. 77

المدينة اكثر واكثر نحو منتصف دائرة الحصار • ولقد حاولت الحكومة المصرية استعادة سمعتها في المنطقة الا ان نشاطها اقتصر على بعض الاجراءات الدفاعية ولم تفكر في شن اى هجوم ضد الانصار • فاشتدت قبضتهم على كل من سنكات وطوكر ، وما حولهما من قلك يقى طريق سواكن - بربر تحت سيطرتهم ولم يكن بامكان اى جاسوس اختراق صفوفهم ليصل برسائل ما الى سواكن حيث ترابط القوات المصرية •

بعد مضى خمسة اشهر على الحصار وانقطاع الاتصال التلغرافي ايقن غوردون ان تلك القصاصات الصغيرة من الورق التي يحملها الجواسيس وان وصلت لا تكشف ابدا عما يدور بخلده وعن الوضع على حقيقته • فاستقر رأيه على ارسال مساعده ستيوارت باشا على ظهر الباخرة "العباس" حتى يتمكن بشخصه وما يأخذه من وثائق من ابلاغ المسئولين بالحقيقة • فغادر الخرطوم في ٩ سبتمبر ١٨٨٤ وبصحبته قناصل انجلترا وفرنسا والمانيا وبعض التجار والموظفين من السوريين والاغريق • فزوده غوردون بمجموعة كبيرة من الخطابات الى بيرنج والخديوى بالاضافة الى مذكرات يومية بالاحداث وعريضة رفعت الى الجناب العالي ووقعها اربعة وثلاثون من الضباط ورؤساء الدراويش والعلماء يتوسلون فيها اليه ان يرسل جنده لاستقلال البلاد وكسر شوكة العصيان (١) •

اصدر غوردون اوامره لا ثنتين من البواخر لتصحبا "العباس" الى ان تتعدى مناطق الخطر ثم تعودا ادراجهما • ورغم ان الاسطول الثلاثي قد تعرض لهجمات الانصار منذ مغادرته الخرطوم الا انهم تمكنوا من اجتياز بربر دون خسائر في الارواح •

ومن هناك عادت الباخرتان المرافقتان طريقهما جنوبا ولم يكن خافيا على الانصار الذين كانوا يتابعون تقدم الاسطول من الشواطئ

---

(١) المهدى الى غوردون ، ٢ محرم ١٣٠٢
٢٢ اكتوبر ١٨٨٤ .. ملحق و

ان " العباس " قد اصبحت بمفردها • ولعلهم ايقنوا انها في سبيلها الى مصر فأنتشر التبرينهم بضرورة منعها من مواصلة رحلتها • ولقد درج الانصار على اصطياد الجواسيس ومؤيدى الحكومة فكيف اذا كان بين هـــؤلاء بعض الاجانب الذين لا تعطلهم العين • ولقد ذكر المؤرخ محمد عبـــد الرحيم ان الحماس كان " يتأجج في نفوس الثوار ولا يمكنوا رجلا ابيض اللون شاحب البشرة ان يفلت من بينهم ولو اتخذ نفقا في الارض او سلما في السماء " (١) •

وقد واتت الانصار الفرصة عندما اصطدمت " العباس " بصخـــرة في شلالات ود عمراني ارض المناصير (٢) فسارع شيخ قرية هبه ، السفتيه ود عثمان ، بتبليغ امر السفينة الجانحة الى سليمان نعمان ود قمر فما كان من هذا الا ان نصب كمينا لقافلة ستيورت فأبيدت في غمضة عين • وقد استولى سليمان على كل المكاتبات التي كانت على متن الباخرة وارسلها الى بربر لتبعث من هناك الى المهدى (٣) •

وبهذا جاءت خسارة غوردون مزدوجة تلك فشلت مهمة ستيـــورت ووقعت وثائقه السرية في ايدى خصمه • ولقد استفاد المهدى بدرجـــة كبيرة من هذه في توقيت هجومه على المدينة (٤) •

ويلاحظ انه قد تسلم تلك الرسائل في الوقت المناسب ، وذلـــك بعد وصوله لمنطقة الخرطوم مباشرة • فأمدته بقاعدة متينة يرتكز عليها فـــي تقرير خططه بصورة محددة ونهائية • فقد استفاد من يوميات ستيورت في

---

(١) محمد عبد الرحيم ، ص ٨—٩

(٢) يقول سلاطين ان القبطان كان انصاريا ، وقـــد اوقع الاصطـــدام عن قصـــد •

(٣) Slatin, p.323.

(٤) ابراهيم فوزى ، ٢٦٢

معرفة قوة الحامية وتوزيعها ومواطن الضعف في خط النار من حيث نوعية الجنود والاستحكامات • ووقف على حقيقة شعور السكان ومدى التحاسد الذي يجده بينهم • وعرف كل شيء • تأكد له موقف المدينة التمويني والوسائل التي يتخذها حوردون لمواجهة الازمة الغذائية • فكان ان وطد عزمه علـى تشديد الضغط على الخرطوم واخضاع كل منافذها للمراقبة الدقيقة حتـى يضطرها الى استهلاك مخزونها •

ولعل المهدى قد اعتمد على هذه الوثائق في تقدير المدة التـي عليه ان ينتظرها قبل ان يوجه ضربته • فقد كان يسعى الى امتصاص الحياة من رجال الحامية حتى يجبروا على التسليم او تصبح مقاومتهم لهجومه ضربا من المستحيل •

المشكلـة المـاليـة

ان جاز لنا ان نعتبر الجنـود في المرتبة الاولى من سلسلـة احتياجات غوردون ، فان المال بلا شك يأتي في المرتبة الثانية •

ولقد تمكن كل من بيرنج والحكومة المصرية لهذه الحقيقة فوعـدوا غوردون باطلاق يده ليصرف اى مبالغ يرى انها ضرورية • ولكن يبـدو ان هذا الوعد كان حبرا على ورق ، اذ سرعان ما اخطره بيرنج ان يقتصد في النفقات الى اقصى حد ممكن اذ ان مصر بوضعها حينئذ لم تكـن تستطيع ان تتحمل اى اعباء مالية في السودان (١) •

غادر غوردون القاهرة وبحوزته ٤٠٠٠٠ جنيه ولقد اضطـرت سلطات القاهرة محافظ اسيوط ان يدفع له مبلغ ١٠٠٠٠ جنيه اخرى(٢) ولكن غوردون قرر الا يحمل معه كل هذا المبلغ تحسبا لاخطار الطريق فـي رحلة طويلة عبر صحارى ومناطق غير آمنة تماما • فترك المبلغ في اسوان على ان يرسل له بصورة متخفية فيما بعد لا تثير انتباه احد • واكتفى في رحلته بمبلغ الفي جنيه (٣) •

وقد تمكنت سلطات اسوان من ارسال ٥٠٠٠ جنيه بالفعل الا ان هذا المبلغ لم يقدر له ان يصل الى الخرطوم •

لم تكن بربر قد سقطت بعد ، ولكن كان الطريق الى الخرطـوم محفوفا بالمخاطر وارسال كل تلك الاموال ربما يعرضها للضياع • فضـلـ

---

(١) بيرنج الى غوردون ٦ مارس ١٨٨٤ Egypt 12, Enclosure II in No.299

(٢) بيرنج الى جرانفيل PRO, FO 78/3667.

(٣) بيرنج الى جرانفيل ١٣ فبراير ١٨٨٤ PRO, FO 78/3667

الحكام الاحتفاظ بها في خزينتهم بانتظار ظروف اكثر ملاءمة • ورغم كل هذا الحذر فقد وقع المبلغ في ايدي الانصار عندما سقطت بربر واستولى محمد الخير على الخزينة وما لبث المهدي ان بعث بابراهيم ود عدلان لينقل محتوياتها اليه (١) •

ولم يكن مبلغ الالفي جنيه الذي اخذه غوردون من القاهرة ليساوي شيئا امام احتياجات مدينة في حالة حرب • فبالاضافة الى بنود المصروفات الثابتة ، كان لا بد ان تنشأ مع الحصار جملة التزامات يعتبر الوفاء بها امرا حيويا لاستمرار صمود المدينة • وجد غوردون ازمة مالية في انتظاره تعود ذيولها الى ثلاثة اشهر خلون ، فلقد كانت الخزينة خاوية وسبق ان طلب دي كتلوجين من سلطات القاهرة ان تبعث له ب ٠٠٠ر١٤٠ جنيه ليدفع رواتب الموظفين والجنود المتأخرة (٢) •

ولعل الملابسات والظروف التي احاطت بمعالجة مسألة السودان قد انست الحكومة المصرية الامر تماما وربما تجاهلت الطلب نهائيا بعد تقرير سياسة الاخلاء لاعتقادها انها لم تعد في حاجة لخدمات اولئك الموظفين والجند • وقد كان على غوردون ان يتحمل نتائج تقاعس السلطات المصرية اذ وجد ان ابقاء هؤلاء المستخدمين في خدمته امرا لا بد منه ، وعليه فمن الضروري ان يجد المخرج ليفي بالتزامات الحكومة المالية تجاههم ، فاضطر الى الاستدانة من بعض التجار ولم يمض على وصوله الى الخرطوم شهر واحد • (٣) •

لم يغب عن باله من ناحية اخرى ان السياسة السلمية التي رسمت

---

(١) نعوم شقير ، ص ٧٦٠ •
يقول ابراهيم البوردينى ان المهدي بعث بالنور ابراهيم الجريفاوى لهذا الغرض •

(٢) Parr, "Outline of the History of Gordon Notes",
see p. 218

(٣) ابراهيم البورديني ، ص ٢

عزمه على انتشاجها من اجل كسب المؤيدين لحكومته كانت في حاجة الى المال لتثبيت اركانها • فشرع منذ وصوله في توزيع العملات الذهبية على كل من يتقدم له بشكوى او ظلامة (١) • كما كان يدفع مكافآت لاولئك الذين يمدونه بمعلومات عن تحركات الانصار ويدفع اعانات مالية منتظمة للعلماء والفقراء مقابل قيامهم باقناع الاهالي ببطلان دعوى المهدي (٢) •

وقد كان من حين لآخر يضطر لدفع بعض التعويضات للسكان الذين يرى استخدام منازلهم في اغراض عسكرية (٣) •

وكان ايضا بحاجة الى المال لمواجهة جملة مشاكل اخرى ، من ذلك مثلا اغراء الجواسيس بمبالغ كبيرة لحمل رسائله الى مصر (٤) • وكان عليه ان يبتاع كميات من الاغذية لسكان المدينة ، من سنار وبعض القرى المجاورة •

لجأ غردون كما سبق ان ذكر للاستدانة من التجار والضباط الذين لديهم بعض المدخرات لايجاد حل للازمة المالية • وكان يحرر لكل مدين ايصالا بالمبلغ على امل ان يتمكن من سداده حالما تتوفر لديه الاموال او على أسوأ الفروض ان تقوم سلطات القاهرة بدفعه اذا ما قدم اليها الايصال • وبدوانه على سبيل الاغراء كان يدفع لهم

---

(١) Cuzzi, p.51

(٢) Nushi Pasha, p.26.

(٣) Ibid,

(٤) Cuzzi, p.56.

ربحا قدره قرش واحد على كل مائة قرش (١) وتحدثنا بعض المصادر ان احدى السيدات ، وهي ارملة التاجر الشركسي مصطفى تيرانس ، امدت غوردون بمبالغ كبيرة فأنعم عليهم " بنجمة الحصار" (٢) الا ان بعض التجار الذين هبوا لمساعدته في بادئ الامر قد احجموا عن مساندته الى ما لا نهاية ربما لاقتناعهم بأن موقف الحكومة يضعف يوما بعد يوم واصبحت امكانية وصول اى اموال اليها بعيدة التحقيق •

ومن ثم حاول غوردون وسيلة اغراء جديدة لعلها تنجح في استمالة التجار وهي توزيع الالقاب الباشوية والبكوية عليهم كل حسب وضعه الاجتماعي ، غير ان هذه لم تحرز نجاحا بعيد المدى اذ بدا التجار يتساءلون عن ماهية هذه الالقاب اذا استمر الوضع كما هو ووقعوا بنهاية الامر في ايدى الانصار • فأستقر رأى غوردون على اصدار عملة ورقية محلية عرفت " باوراق البون " ولعل تاريخ اصدار هذه العملة ٢٥ ابريل - يكشف ان غوردون كان يعاني فعلا من ازمة مالية بعد مرور شهرين تقريبا على وصوله • وكانت "اوراق البون" عبارة عن امر دفع يصرف في القاهرة ويحمل توقيع غوردون وختمه بجانب ختم الحكمدارية • حملت كل ورقة نمرة مسلسلة وعبارة نصوها ان هذا "المبلغ مقبول وسيدفع من الخزينة في الخرطوم او القاهرة في اى وقت بعد مرور ستة اشهر على هذا التاريخ ٢٥ ابريل ١٨٨٤ " (٤) •

كانت جملة الاوراق التي طبعت في بادئ الامر تساوى ٥٠٫٠٠٠ جنيها من فئات ١ - ١٠ جنيها الا ان مبلغ ١٠٫٠٠٠ جنيها قد طبع فيما بعد من الفئات الصغيرة ذات القروش الخمسة والعشرة •

واظب غوردون بعد ذلك على توفير كل ما يحتاجه من مال بهذه

---

(١) المهدى الى غوردون ٢ محرم ١٣٠٢ (٢٢ اكتوبر ١٨٨٤) ملحق و

(٢) Ohrawlder, p.143

نجمة الحصار هي ميدالية قد تكون فضية او ذهبية صكها الصاغة بناء على رغبة غوردون ليسجل بها حصار الخرطوم وتاريخه •

(٣) Nushi Pasha, p.25.

(٤) Ibid, p.127.

الوسيلة . فأصدر ذات مرة ٠٠٠ر٦٠ جنيه ثم ٠٠٠ر٧٠ جنيه فيما بعد . يقال انه دفع منها زيادات في مرتبات المستخدمين وارسل جزءا منهـــــا لحامية سنار (١) ويقدر جملة المبلغ الذي طبعه غوردون ب ٠٠٠ر٢٢٠ جنيه .

وكان استقبال اهالي الخرطوم لاوراق البون متفاوتا يعكس الـى درجة كبيرة مدى ثقة كل فئة منهم في الحكومة : فقد تشكك السودانيـون عموما في قيمة العملة الحقيقيـة وكان الاتجاه بينهم هو محاولة التخلـص من اية كمية تقع بايديهم (٢) في حين ان طبقة التجار بما فيهم الاغريـق والسوريون والمصريون وربما بعض السودانيين قد ابدوا استجابة طيبة وقبلوا التعامل بها على امل ان تساعد هذه في تقوية مركز الحكومة المالي وبالتالي تتمكن من الصمود في وجه الانصار . ولكن يبدو ان فئة منهم رفضـــت التعامل بها الامر الذى دفع غوردون الى اعلان عقوبات صارمـة بحــق هؤلاء تتفاوت بين التسليم للعدو والاعدام رميا بالرصاص (٣) . وقــد اضطر لحبس اربعة عشر تاجرا في طابيه السرايـا الشرقية في مواجهــة مدافع الانصار عقـابا لهم على رفضهم العملة الجديدة ولم يطلق سراحهم الا بعد ان قطعوا وعدا بالاعتراف بها .

غير ان كل هذه الاجراءات لم تجعل تداول العملة امـــرا يسيرا ، اذ سرعان ما بـرزت مشكلة التزوير . فبعد طبعها بفتـــرة وجيزة اكتشف احد رجال الحكمدارية ورقـة مزورة من فئة العشريـن قرشا وقد اثبتت التحريات انها من فعل احمد وصابرابني الشيخ عبد الغني السلاوي فقدما للمحاكمة .

---

(١) ابراهيم فوزي ، ص ٣٥٣

(٢) Nushi Pasha, p.127

(٣) نعوم شقير ، ص ٨٠٩

بالاضافة الى هذا فقد حاول بعض التجار شراء كميات كبيرة من اوراق البون بمبالغ زهيدة اقل كثيرا من قيمتها الرسمية حتى يتمكنوا من استبدالها متى ما توفرت النقود بقيمتها الحقيقية(١) الا ان غوردون تمكن من كشف حؤلاء وكان بينهم السيد محمد طه وعلي اغا بريازي، ومحمد، سعيد الدباغ ومحمد حسن خير الله • وقد عاقبهم بالحبس في السرايا الشرقية وهددهم بالتسليم الى الانصار اذا ما هم عادوا لفعلتهم تلك •

الا ان الخطر الحقيقي الذي كان يهدد تداول العملة الجديدة هو هبوط قيمتها • فلقد لوحظ بعد حوالي شهرين من اصدارها ان قيمة الجنيه قد هبطت الى ٨٠ـ ٩٠ قرشا •

ولم يكن ارتفاع الاسعار هو السبب في هذا بل على الارجح ان عدم الثقة في اوراق البون هو الذي ادى الى هبوط قيمتها (٢) • وباشتداد الحصار حول المدينة اخذت هذه المشكلة تتخذ شكلا اكثر حدة حتى ان قيمة الجنيه هبطت الى ١٥ ـ ٢٠ قرشا فقط • وكان من الطبيعي ان يخلق هذا الوضع موجة تذمرعاتية في صفوف الجند والموظفين (٣) ولتلافي هذا عمل غوردون على اعطائهم اجورا اضافية وهبات مالية فوق الرواتب حتى يعوضهم عن الفرق بين القيمة الرسمية للعملة وقيمتها الحقيقية في الاسواق(٤) •

---

(١) Nuṣḥi Pasha, p.132.

(٢) Parr, " Outline of the History of Gordon Notes "

(٣) ابراهيم فوزي، ص ٢٥٦

(٤) Parr, "Outline of the History of Gordon Notes."

مشكلـة المـؤن

كان لا بد ان تواجه الخرطوم ، شأنها شأن اى مدينة في حالة حصار ، مشكلة المواد الغذائية • وقد اضافت هذه الى غردون عبئـا جديدا اذ اصبح لزاما عليه توفير الطعام الى ما يقارب الخمسين الـف شخص الى اجل غير محدود • فاضطر الى خوض معارك ضارية ضد جمـوع الانصار حتى يجبرهم على التراجع ويبقي الطرق المؤدية الى المنـاطـق الزراعية التي تعتمد عليها المدينة مفتوحة له •

وكان الانصار يرون من ناحية اخرى ، ان تحقيق مجاعة فـي الخرطوم هو هدف رئيسي ووسيلة فعالة لحملها على التسليم •

نجح انصار الشيخ العبيد وود البصير منذ البداية في عـزل الخرطوم عن مناطق تموينها التقليدية • وجاء ابو قرجه ليفرض مزيدا من الرقابة على ابواب الجزيرة حتى لا يدخلوا اليها شيئا من الغلال والابقار • وواظبوا في ذات الوقت على شن هجمات على بواخر غردون متى ما ظهرت علـى مرمى البصر • وعند وصول انصار النجومي اكتملت لهم السيطرة على كـل المناطق المتاخمة للمدينة سواء من جهات الجريف والحلفايه او الجـزيرة وتمكنوا بالتالي من فرض حظر شامل على دخول اى مواد غذائيـة الـى المدينة •

رغم ان الخرطوم كانت تحوى ضمن تخطيطها جملة اراض صالحـة للزراعة يمكن استغلالها في وقت الشدة ، الا انها كانت تعتمد فـي تموينها على المناطق التي تحيط بها من الجنوب والشرق وعلى منـاطـق الجزيرة الممتدة الى سنار • ولقد بدأت ازمة الخرطوم حينما قامت القبـائل القاطنة في تلك الجهات لنصرة المهدى • فهجر بعضهم الزراعة تلقـائيـا لايمانه بأن الجهاد افضل • وثمة بعض آخر استنفر بواسطة دعاة المهـدى لنبذ مباهج هذه الدنيا الزائلة والمساهمة في اقامة دين الحق • فتركـوا

مزارعهم تحت رعاية صغار الابناء والرقيق (١) . وقد فطن المهدى منـــذ البداية الى الدور الذى يمكن ان تؤديه هذه القبائل في امداد الخرطوم بالغذاء فأصدر لهم منشورا يأمرهم فيه بقطع علاقاتهم التجارية مع اهـالي العاصمة والامتناع عن تسويق الغلال بداخلها (٢) .

وقد تمادى بعض دعاة المهدى في تحذير رجال تلك القبائـــل بالقول ان من دخل الخرطوم فهو كافر يؤخذ ماله واولاده غنيمة (٣) ولعل الاجراء الذى اتخذته الحكومة بشأن شراء كميات من الغلال فـــي آخر ١٨٨٣ واول ١٨٨٤ كان رد فعل لهذا المنشور ، فعند انسحـــاب حاميتي الكوه والدويم سارع رجال الحكومة الى شراء كميات من الذره من قرى النيل الابيض جرى تخزينها بالشونه . كما تمكن حاكم سنار من الحصول على كميات اخرى بعث بها الى العاصمة في مطلع ١٨٨٤ (٤) .

اذن وجد غوردون عند وصوله ان موقف المواد الغذائيـــــة لا غبار عليه ، فقد قدرت كمية الذرة بحوالي ٢٣٫٠٠٠ اردب ، بالاضافة الـى ١٠٠ أردب من القمح وكميات من الارز والبقسماط و ١٤ قنـطارا من العسل و ١٠٠٠ قنطار من الزيت و ١٠٠ قنطارا من الزبد (٥) .

ولقد كانت هذه الارقام مسجلة في دفاتر الحكومة الا ان غوردون اكتشـــف فيما بعد اختلاسا في المواد قام به حسين سرى المخزنجي واتضح ان

---

(١) بابكر بدرى ، ص ٣٠

(٢) The Times 25th November 1883.

(٣) ابراهيم فوزى ، ص ٣٠٦

(٤) المصدر السابق

(٥) Nushi Pasha, p.4.

الكميات الموجودة تقل كثيرا عما هو مقيد في الدفاتر (١) قدر غوردون استهلاك الجنود اليومي بحوالي سبعين اردبا من الذرة (٢) ، ولو اقتصر الصرف الحكومي عليهم لامكن تدبيره خاصة وانه قد تمكن من الحصول على كميات اضافية فيما بعد . ولكن غوردون كان مضطرا لاعاشة فئات اخرى .

فما ان وصل الى الخرطوم حتى بعث بـ ٦٠٠٠ اردب من الذرة الى بربر بيد وان حسين باشا خليفه كان قد طلبها منه (٣) . ولعله كان يغرى المدنيين ليبقوا على تأييده عن طريق صرف المواد الغذائية لهم من مخازن الحكومة حتى انه كان ينفق على حي بأكمله قدر سكانه باربعة الاف شخص تقريبا (٤) . ولهذا كان لا بد من اخذ الاحتياطات اللازمة لتوفير الغذاء في المدينة حتى تتمكن من الصمود . فمهما كان تعداد رجال الحامية وما يحملونه من سلاح فأنهم لن يتمكنوا من صد هجوم يشنه الانصار وهم جوعى . بالاضافة الى انه ليست ثمة مدني يتمسك بحكومة عاجزة عن توفير اول متطلبات الحياة له .

ومن هنا جاء قرار غوردون الذي اتخذه حال وصوله الى الخرطوم بعدم استهلاك المواد المخزونة في الصرف اليومي والاحتفاظ بها لوقت الشدة وحاول في ذات الوقت ايجاد مصادر لتموين المدينة باحتياجاتها اليومية .

ولما اتاحت له الظروف ثلاثة من اذه بذل جهدا خارقا في استغلالها لاقصى درجة .

---

(١) ابراهيم فوزي ، ص ٣٨٢

(٢) Nushi Pasha, p.126.

(٣) Journals of Gordon, 19th October,1884.

(٤) ابراهيم فوزي ، ص ٣٨٢

أ - الغارات على مواقع الانصار

شكلت معسكرات الانصار التي بدأت في الظهور على مشارف الخرطوم منذ مطلع شهر مارس اول مصادر غوردون التموينية ، اذ قام اهالي المناطق الزراعية المتاخمة للخرطوم بمد المحاربين بكميات وافرة من الذرة بري تخزينها داخل المواقع العسكرية • فحرص جنود غوردون اثناء هجومهم على الاستيلاء على تلك المخزونات • فاصبحت لتلك الحملات فائدة مزدوجة ، فهي بالاضافة الى هدفها العسكري الذي يتمثل في اجبار الانصار على التراجع تقدم حلا جزئيا لازمة الغذاء في المدينة •

وعند وصول قوات ابي قرجة واتخاذ مواقعها قبالة طابية بري بعث غوردون قوة لمهاجمتها ، فنجحت هذه في انزال الهزيمة بها فتراجع الانصار مخلفين وراءهم كميات من الذرة قدرت باربعمائة اردب (١) •

وفي اغسطس ارسل غوردون فرقة لتتعقبهم في معسكرهم الجديد الذي اقاموه في الجريف فتمكنت من الاستيلاء على ٦٠٠٠ اردب من الذرة وبعض الابقار (٢) • اما هجمات ساتي بك فقد تركزت على تجمعات الانصار في النيل الابيض حتى تمكن من القبض على ١٠٠٠ رأس من الابقار (٣) ونتج من جراء العمليات العسكرية حول الخرطوم ان هجر اهالي الضفة الشرقية للنيل الازرق ديارهم في محاولة لايجاد مأوى آمن فبعث غوردون احد قادته ، محمد علي باشا ، ليستكشف ما اذا كان الاهالي قد خلفوا وراءهم اي مواد غذائية •

---

(١) Nushi Pasha, P.41

(٢) ابراهيم البورديني ، ص ٤

(٣) Nushi Pasha, p.41

وقد صدق حدس غوردون اذ تمكنت القوة من وضع يدها على كميات من الاغذية بينها بعض الزيوت وكمية من الذرة قدرت بالف اردب (١) .

كانت منطقة الحلفاية فيما مضى مركزا لتجمع القبائل وسوقا لبيع الغلال الا ان تصاعد العمليات العسكرية فيها قد ادى الى شل حركة تلك السوق فلم يعد بامكان الاعراب الحضور ببضائعهم ولم يكن بامكان اهالي الخرطوم الخروج لشراء احتياجاتهم منها . وقد تفاءل غوردون بعد ارغامه ابي قرجه على التراجع فحاول ان يعيد الحياة الطبيعية الى المنطقة فاوفد كلا من محمد علي باشا وفرج الله بك على رأس قوة تهدف لاجبار العباس العبيد على اخلاء السوق فانجزت الحملة هذه المهمة وعادت محملة بكميات من الذره والمواد الغذائية (٢) . ونتيجة للهدوء النسبي الذي ساد المنطقة فقد ظهرت الغلال مرة اخرى وتزاحم اهالي الخرطوم على شرائها وهبطت الاسعار الى مستواها العادي لاول مرة منذ بدء الحصار (٣) .

وفي احدى الهجمات على منطقة ام درمان استولت قوات الحكومة على ما يقارب التسعين رأسا من البقر . وفي معركة اخرى تم الاستيلاء على ثمانين منها . (٤) .

---

(١) Nushi Pasha, p. 41

(٢) ابراهيم اليوزبكي ، ص ٩

(٣) المصدر السابق

(٤) Nushi Pasha p.116

كان الانصار يستعملون الابقار كدرع يقيهم نيران العدو .

ب - الحملات العسكرية الى الجزيرة

كانت سنار وما جاورها من قرى هي المصدر الثاني الذي اعتمد عليه غوردون في امداد المدينة بالغذاء . ولهذا فقد كان يترقب تصاعد العمليات العسكرية في تلك المنطقة بكثير من القلق ، اذ ان سيطرة الانصار على الطريق سيعجل بوقوع ازمة غذائية في الخرطوم بسبب نفاد مخزونها (١) ولعل كولونيل دي كتلوجين قد فطن الى هذه الحقيقة قبل وصول غوردون فبعث بصالح المك على رأس قوة من الباشبوزق الى فداسي فحفر خندقا هناك وتحصن به ليحمي طريق سنار - الخرطوم (٢) .

ورغم ان هذه القوة قد صمدت بعض الوقت امام هجمات الانصار الا انها استسلمت اخيرا لقوات ابي قرجه وانقطع منذ ذلك الحين اي اتصال بين الخرطوم وسنار ولم يتمكن غوردون من ايفاد اي بعثات الى سنار الا في اغسطس ١٨٨٤ حينما دحر انصار ابي قرجه واضطرهم الى التراجع فأصبح الطريق آمنا بعض الشيء . فأرسل غوردون قوة تحت قيادة محمد علي باشا لبعض قرى النيل الازرق في محاولة لشراء مواد غذائية . وقد توجهت من توها الى قرية ابي حراز التي عرفت بثرائها لكونها مركزا هاما لتجارة الحبشة وقد نجح محمد علي باشا في رفع الحصار عنها واستولى على ١٨٠٠ اردب من الذرة ، و ٨٥ قنطارا من البن و ٢٢ قنطارا من السمسم قبل ان يعود ادراجه الى الخرطوم (٣) .

---

(1) *Journals of Gordon*, Vol.I, 14th September 1884

(٢) محمد عبد الرحيم ، ص ١٤

(٣) *Nushi Pasha*, p.66.

بعث غوردون بعد ذلك بخيت بك بطراكي الى سنار بهدف الحصول على كميات اخرى من الذرة وبعض المؤن التي كانت سنار غنية بها ، ويبدو ان اهالي سنار كانوا على علم بازمة الخرطوم التموينية فتمادوا في ارسال المواد الغذائية لذويهم في العاصمة فعادت السفن محملة بها ، الا ان نصيب الحكومة لم يتعد الالف اردب من الذرة (١) ولهذا اوقع غوردون الجزاء ببخيت بك ففقد وظيفته (٢) .

وكان مدير سنار ، حسن بك صادق ، يعي تماما دور مدينته في تموين الخرطوم بالغذاء فبذل غاية جهده لمقابلة تلك الاحتياجات رغم ان سنار كانت تحاول هي الاخرى الفكاك من قبضة الانصار ومع هذا فقد امر السكان بضرورة جمع الذرة من القرى المحيطة بهم كلما سنحت لهم الفرصة (٣) واخذ يقوم من جانبه بين الفينة والاخرى بالهجوم على معسكرات الانصار المنتشرة حول المدينة ليستولي على ما يجده فيها من مؤن . وفي ذات مرة ارسل فرقة من الجهادية بقيادة اربعة من السناجك الى شاطىء النيل الازرق الشرقي حيث كان الانصار قد خزنوا كمية من الذره وبعد مناوشات دامت ثمانية عشر يوما نجحت قوة سنار في الاستيلاء على تلك المخزونات (٤) .

وفي سبتمبر ارسل غوردون محمد نصحي باشا في بعثة على الباخرتين " البوردين " و " تل الحوين " الى سنار فأمده حسن

---

(١) ابراهيم فوزي، ص ٣٥٣

(٢) Nushi Pasha, p.67

(٣) عبد الله افندي محمد ، تقارير وافادات عن حصار الخرطوم وسنار .

(٤) المصدر السابق

بك من تلك الكمية التي تم الاستيلاء عليها (١) فأخذ حمولة بلغت ثلاثة الاف اردب • كان نصيب الحكومة منها الفان وما تبقى كان هدايا من الاهالي عنارالسي ذويهم في الخرطوم مع كميات من الزيوت والسمسم (٢) •

الا ان ذلك الوضع لم يقدر له ان يستمر فما ان وصل عبد الرحمن النجومي حتى مضى مرة اخرى المسيطرة على الطريق فشيد طابيه في الجريف وجعل عليها قوة من رجاله لا تستهدف شيئا سوى بواخر غوردون متى ما ظهرت في الافق (٣) • ومنذ ذلك الحين فشلت كل محاولات غوردون في اختراق ذلك الحصار ففقد بالتالي مصدرا من مصادر التموين الرئيسية •

ج — حملات داخل المدينة

واضطر غوردون لاتخاذ جملة اجراءات لتفادى خطر المجاعة التي اصبح حدوثها وشيك الوقوع ، فعين بعض ضباطه للاستيلاء على كل الغلال الموجودة في المدينة • واصبحت الحكومة تبيعها بدورها للمستولت

---

(١) اسماعيل اغا ابراهيم ، تقارير وافادات عن حصار الخرطوم وسنار •

(٢) Nushi Pasha, p. 77

ابراهيم فوزى ، ص ٢٥٣ قدر نصيب الحكومة بألف وخمسمائة •

(٣) Nushi Pasha, p.80

الذى يقدر على الدفع (١) . ثم امر سكان جزيرة توتي بزراعة اراضيهم وجلب المحصول الى الشونة . وكذلك كون لجنة خاصة لمتابعة هذا الامر برئاسة فرج باشا الزيني وقد تم حصد حوالي ٢٠٠ اردب من الذرة (٢)
وفي آخر نوفمبر ١٨٨٤ تأزم الموقف بشكل حاد اذ ان كل ما امكن جمعه من مؤن قد نفد تماما من مخازن المحاصرة . فشكل غوردون لجنة اخرى برئاسة القنصل اليوناني نكولا ليونديدس ليقوم من جديد بحملة تفتيش شاملة في المدينة تأتي بكل ما تجده في حوزة السكان الى الشونة تاركة لهم مؤنة عشرين يوما .

وقام غوردون من جانبه بتحرير ايصالا لكل من صودرت غلاله يقضي بدفع ١٢ جنيها للاردب حالما وصلت القوات الانكليزية . ورغم ان هذه اللجنة قد واظبت على القيام بمهمتها يوميا لمدة شهر كامل الى ان كل ما امكن الحصول عليه بلغ حوالي ٢٠٠ اردب فقط .

دعا غوردون قادته للتشاور في كيفية تدارك الامر فاستقر الرأى على الاكتفاء بنصف التعيين المقرر للجنود (٣) . ثم كونت لجنة اخرى برئاسة احمد بك علي جلاب وعضوية ابراهيم فوزى ، وابراهيم المورديني ونكولا ليونديدس والمعاون فتح الله ونكولا بك الطبيب اليوناني ، لتجرى بحثا دقيقا في المدينة عن اى مأكولات مخزونة لدى السكان .

وكان نتيجة هذا البحث حوالي ٦٣ اردبا من الذرة وبعض الابقار الخائرة القوى (٤) .

---

(١) ابراهيم المورديني ، ص ٨

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠

(٣) Nushi Pasha, p.140

(٤) Ibid, p.145.

لجأ غوردون بعد ذلك الى الطبيب يستفسر عما اذا كــــان هنالك عائق صحي في سبيل تغذية الجنود بالصمغ المخلوط بجمـــــار النخيل • وقد افتى الطبيب بأن لا ضرر من هذا • ولعل غوردون كـــان اول العارفين بأن هذا لا يمكن ان يكون غذاء لحامية مطلوب منهـــا ان تـــدافـــع عــن مدينـــة يقـــف على ابـوابهـــــا الـــوف مؤلفة • واتضح في ذلك الحين ان غالبية الجنود قد فقدوا المقـــدرة حتى على حمل السلاح ناهيك عن استعماله •

وازاء هذا الوضع كان لا بد ان تتفشى ظاهرة التمرد والعصيان وتكثرت حوادث الفرار الى معسكرات المهدى (١) •

وفي ١٦ يناير ١٨٨٥ كانت المدينة قد قضت تماما على كل ما يمكن ان يؤكل سواء باستشارة الطبيب اوبدونها (٢) • كان الجنـــود يتقاتون من الصمغ منذ اول يناير لفقد معظمهم الحد الادنى من اللياقـة التي تؤهلهم لخوض معركة ما لدرجة ان غوردون اصدر مرسوما يعفيهـــم من الوقوف لتحيته (٣) • وقد وصلت صحتهم درجة من الوهن بمكان لـم تكـن لتسمح لهم بصد اى هجوم يشنه الانصار لاقتحام ابواب المدينـة وخطوط دفاعها (٤) •

اصبح امل غوردون معلقا بوصول فرقة الانقاذ ، ولعله كان امـــلا يرتكز على عدم معرفة حقيقية بحجم الحملة هذه • فلم تكن سوى باخرتين عليهما بضعة مئات من اراد ب الذرة •

---

(١) متولي كامل ، تقارير وافادات عن حصار الخرطوم وسنار •
(٢) شهادة عبد القادر حسن في المحكمة التي عقدت في القاهرة في ابريل ١٨٨٧ لتعاقم حسن بك بهنساوى Wingate, Mahdiism and the Egyptian Sudan, pp.556-90 •
(٣) حسن بك بهنساوى ، تقارير وافادات عن حصار الخرطوم وسنار
(٤) شهادة سيد افندى امين في المحكمة المذكورة •

ولا بد للمرء ان يتساءل ما اذا كانت هذه الكمية الضئيلة كافية لتمهيد الحياة الى جند العامية لدرجة تمكنهم من الصمود امام المقروات التي اقتحمت اسوار المدينة عشية السادس والعشرين من يناير • ولقد اجاب احد قادة غوردون بالنفي القاطع عندما سئل ان كانت مساهمة حملة الانقاذ - في حالة وصولها قبل سقوط المدينة - ستساعد باى صورة من الصور في تغيير مجرى الاحداث (١) •

لقد كانت الخرطوم تعاني من ازمة حادة واصبح سقوطها نتيجة لتفشي المجاعة امرا يكاد يكون مؤكدا • ولعل حملة الانقاذ لم تكن لتفعل سوى القليل • كانت مشكلة الجنود هي الانهاك الجسدى الذى تعرضوا له في الاونة الاخيرة وفقدوا من جرائه لياقتهم ومقدرتهم على الحرب ولهذا فمن الصعب قبول الرأى القائل بأن المدينة سقطت لان حملة الانقاذ قد وصلت متأخرة اولان الانصار قد علموا بواسطة الجواسيس ان هناك فتحة في التحصينات يمكن اجتيازها بيسر الى الداخل •

لقد حشد المهدى قواته حول المدينة قرابة عام كامل مارس خلاله حرب استنزاف بطيئة انهكت قوى جنود الحكومة لدرجة انه لم يكن في مقدورهم الصمود اكثر من يوم واحد على الاكثر تقديرا بعد ٢٦ يناير (٢) •

واذا ما افترضنا انهم قد هاجموا المدينة من الجانب المتهدم من الخندق فان المجاعة هي التي تسببت في بقائه على ما هو عليه فقد رج غوردون على امر جنوده بترميم كل جزء تجف عنه الماء الا انه اضطر الى اهماله عندما تدهورت حالة الجنود الصحية • اذن فقد كان مصدر الضعف الاساسي هو المجاعة التي لا بد ان تكون اثارها قد انعكست على اداء الجند سواء في صد الهجوم او تقوية وسائل الدفاع • كان الحصار المضروب حول المدينة شاملا وطويلا اضطر السكان خلاله الى استهلاك كل ما وقع بين ايديهم •

---

١) حسن بك بهنساوى ، تقارير وافادات عن حصار الخرطوم وسنار •

٢) المصدر السابق •

مشـاكل المهـدى

كان لا بد أن يواجه الفريق الاخر مشاكل شبيهة بتلك التـي واجهها غوردون • الا ان هناك عدة عوامل ساعدت في تخفيـف حـدة الازمة عند الانصار • وتأتي فـي مقدمة هذه طبيعة الدعوة نفسها •

فهي نداء لكل مسلم ليدير ظهره لهذه الدنيا الفانية فلا يلتفت لجمع اموال ولا يلهث وراء سلطان ويكتفي في مأكله بما يسد الرمق ، وفي ملبسه بما ينم عن التواضع الجم •

اما العامل الثاني فهو الانتصارات المتعددة التي حققها المهـدى في جملة معارك قبل تقدمه نحو الخرطوم • ويأتي العامل الثالث في حجم وطبيعة نفقات الانصار • فلم يكن المهدى يملك جيشا من العسكريـين والمدنيـين يضطر الى دفع رواتبهم شهريـا حتى يحفظون له الولاء •
اما العامل الرابع فهو نجاح المهدى في كسب تأييد الرجالة مـن قبـائل كردفـان الذين لم يشدوا من عضده ليسيطر على مديريتهم فحسـب بل ساروا معه حتى تمت له السيطرة على الخرطوم •

المشكلــة المـاليـة

بدأ المهدى معركته في جزيرة ابا وهوخال الوفاض يملاءه الايمان الصادق بالدعوة واحتقارعنيف للملذات الدنيويه من مال وجاه ومنصب الا ان هذه الاسلحة لم تكن وحدها كافية لانزال الهزيمة بقوات الحكومة على الدوام • فاستعان انصاره بسيوفهم وحرابهم لمواجهة نيران قوات رؤوف باشا •

ولم تبرز في ذلك الوقت مشكلة امداد الانصار بالمال لمعيشتهم فقد كانوا بضعة مئات يعيشون مع اسرهم بالوسائل التي درجوا عليها •

الا ان الهجرة الى الغرب وما تبعها من تكاثر اعداد مؤيديه وتوسع نشاطهم قد حتم عليه ان يجد وسيلة ما لتمويل الدعوة • فلكي تبقى تلك الجموع المؤلفة في معيته كان لا بد ان يوفر لهم سبل الحياة اذ هاجراغلبهم من دياره وفقد بالتالي مصدر معيشته •

لم يكن امامه وسيلة سوى استنفار الموسرين من اتباعه ليجودوا بما يفيض عن حاجتهم ، فوجه لهم المنشورات والرسائل التي تحثهم على نبذ مظاهر البذخ والترف والاكتفاء بالقليل الذى لا بد منه • وقد جاء في احداها قوله " ••• انكم بايعتم الله ورسوله وبايعتموني ورضيتم بي وبيعتي على نصرة الدين فقد قبلتكم ونسأل الله ان يقبلكم ولكن لازم ان تعطوا بما يرضي من البذل للنفس والغيبة عنها لله ورسوله فأنه على قدر الغيبة عن الحس يزيد العبد من الملكوت القدسي فأقللوا من النظر الى ظاهركم لترتوا من القدسي الملكوتي الذى يدوم لكم وليكن نظركم في خدمة ربكم فقط فحسن حب المال والجاه الذى هو اصلاح ظاهركم فان وعلى قدر الامل فسي ذلك والاكثار يظلم القلب ويشترك في النصيب الشيطاني كما ورد ان حب المال والجاه ينبتان النفاق في القلب كما ينبت

المـاء السبيل ٠٠ " (١) وكـان يكـرر لهم د و مـا قوله تعالى " هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بـالله ورسوله وتجاهدون فـي سبيل اللـه باموالكم وانفسكم " فالتضحيـة بالمال تأتي قبل النفس • وعليهم ان يتخذوا من اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم امثال عبد الرحمن بـن عوف وعثمان بن عفان قدوة يحتذون بها في هذا المجال • فقد كانوا يصرفون مـن مالهم الخاص لتجهيز الجيوش " وكـان المـقتدى لا يقـدر على ذلك يجهـز المـايه وبعضهم الاثنين والثـلاثة حتى يكون البعض الذي لا تطوله ايدي الصحابه يجهز من بيت المال ٠٠ " (٢) •

ولم يكـن المهدي يستولي على اموال اتباعـه عنوة بل كان يسعى عـن طريق الوعظ والمنشورات لاقناعهم بتقديمها لبيت المال مـن تلقـاء انفسهم • ولكـن هناك حالة واحدة اعتبر فيها الاستيلاء على امـوال الانصـار مباحا ، وهي تنطبق على اولئك الذين اقاموا في احدى المواقـع التي تعرضـت للحصـار ، الا انهم خرجوا للمهدي قبل سقوط الموقع • في هذه الحالة " تغنم جميع اشياءهم التي بالبقعة وتترك التي خرجت معهم كـثرت او قلـت " (٣) •

ورغـم ان المهدي اعطى تجـرد اصحابه من ثرواتهم الخاصـة بعض الاهميـة ، كما تـدل رسـائله ، الا انـه بـلا شـك لـم يكـن

---

(١) المهدي الى احبابه المذكورين ومن تبعهم جمادى آخر ١٣٠٠
انذارات ب ص ٦٥ — ٦

(٢) المهدي الى حبيبه تي الله عمر الياس واخرون ١٣ جمادى آخر ١٣٠٠
انذارات ب ص ٦٧ — ٩

(٣) المهـدي الى محمد الخيـر عبـد اللـه خوجـلي ،
احكـام ، ص ٢١٦ — ٢٢

مصدر تمويله الرئيسي • كان من الطبيعي ان يواكب انتصاره العسكري على قوات الحكومة في عدة مواقع امتلاءا في خزينته • ولقد جاء اول الغيث مع هزيمة راشد ايمن حين تمكن من الاستيلاء على ما كان بحوزة الحملة من مال (١) •

وعندما جهز جريدة يوسف الشلالي غنم منها " شيئا كثيرا من النقود " (٢) •

ولعل كسب المهدي الاكبر قد جاء بعد سقوط الابيض حيث استولى على خزينة الحكومة ، بالاضافة الى الاموال الخاصة ، اذ كانت الابيض مركزا تجاريا هاما جذبت عددا كبيرا من الاجانب الذين تمكنوا من جمع ثروات واستوطنوا بالمدينة •

ويصف احد شهود العيان الاموال التي استولى عليها الانصار عند دخولهم بقوله " اما من جهة الغنايم التي جمعها احمد ولد سليمان بخلاف الذي اخذ والاعراب من الذهب الخشيم والفضه شي لا يوصف واما من العملة من الجنيهات والفرنك والبندقي والمجر والمحمود يه والمجيديه والخيريه والريحيه عملة الذهب شي كثير خلاف عملة الفضة المجيدي وابو شنيكو والمصري وابو مدفع وابو مسلا والطاهر والدمج مما ل لا يأكله التراب جميعه بيد احمد سليمان امين بيت المال بخلاف سلاسل الذهب الكيس في الكيس لغاية سقف المربوعة " (٣) •

ويبدو ان بعض اتباع المهدي قد تمكنوا عند سقوط المدينة من الاستيلاء على بعض الاموال كما ذكر هذا المصدر •

---

(١) نعوم شقير، ص ٦٥٧

(٢) المصدر السابق، ص ٦٦٦

(٣) يوسف ميخائيل، ص ٦١

وما لبث المهدي ان اصدر منشورا يعذرهم فيه من مغبة هذا الفعل " فتابوا ورجعوا عن ذلك واوردوا بيت المال كثيرا من الاموال والرقيق والمصاغات " (١) .

وكان المهدي صارما في مسألة الغنائم هذه وحريصا اشد الحرص بأن تعود بكاملها لبيت المال وقد كتب في تحرير هذا مدة منشورات ورسائل فهو يخاطب مجموعة من قادته في هذا الامر قائلا " احبابي انه لا يخفى ما كررنا عليكم فيه والامور كلها بيد الله وهو القائل لاحد انه لا انتم ولا غيركم وانما سائكم للجهاد ... " (٢) . وقد تشدد معهم في هذا الى درجة انه قال " ... من خبأ شيئا من الغنائم ولو قليلا فليس من اصحابنا وانما هو من اصحاب ابليس والدجال " (٣) .

تمكن المهدي ايضا من الاستيلاء على الاموال التي كانت بحوزة حملة هكس باشا وتلك التي وجدت في خزينة بربر (٤) . ويبدو ان ما حدث في الابيض من أمر استيلاء بعض الاشخاص على الغنائم تكرر في بربر . فما كان من المهدي الى ان ارسل اوامره المشددة لاسترجاع تلك المبالغ التي قدرها معاوفه امين بيت المال بمائة وواحد وستون الف ريال وثلثمائة وخمسة وسبعون .

وقد امر المهدي الا يترك في حوزة من استولوا عليها دينارا او درهما " ومن أخر شيئا من ذلك يؤخذ منه كرها ويخرج اسمه من دفاتر انصارنا " (٥) .

---

(١) المهدي الى محمد الخير بن عبد الله خوجلي ٣ صفر ١٣٠٢
انذارات ب ص ٢٠٢ — ١٢
(٢) المهدي الى محمد عثمان ابي قرجه وعمر الياس وآخرين محرم ١٣٠١
انذارات ب ص ٧٩ — ٨١
(٢) المصدر السابق
(٣) نعوم شقير ص ٧٢٤
(٤) المهدي الى محمد الخير بن عبد الله خوجلي ٣ صفر ١٣٠٢
انذارات ب ص ٢٠٢ — ١٢

كانت نفقات المهدى تنحصر اساسا في اعاشة المحاربين من اتباعه الذين يثبته فعلا انهم لا يملكون ما يقتاتون به فيقوم بيت المال بالتكفل بضرورياتهم من مأكل ومشرب وملبس (١) . اما الاسلحة فلم يكن يصرف عليها كثيرا اذ انه استفاد من تلك التي غنمها من المعارك السابقة والمواقع التي استسلمت له وديا وكان بدوره يقوم بتوزيعها على من يستحقها من المجاهدين شريطة ان يكون ايمانه بالمهدية لا يرقى اليه الشك (٢) .

---

(١) المهدى الى محمد الخير عبد الله خوجلي مامنظام ص ٢١٦ - ٢٢

(٢) المصدر السابق

مشكـلة الغـذاء

لـم تبرز قضية الغذاء عند الانصار كأزمة بالصورة التي عانتها سكان الخرطوم طوال مدة حصارهم للمدينة • وهذا يعود الى موقف المهدي المبدئي من مسألة ملذات الدنيا واغوائها • اذ آمن بـأن المسلم الحق هو ذاك الذى يكرس جل وقته لذكر الله ورسوله ولا يجعل قضايا الرزق وكيفية الحصول على الطعام تشغله عن هذه الغاية (١) •

وما فتئ المهدى يذكر اتباعه بهذه التعاليم حتى اصبح امر ماذا يأكلون او كيف يأكلون لا يستحوذ الا على قدر قليل من الاهتمام • لـم يكـن المهدى يدعوهم بالطبع الى الموت جوعا بل الى الاكتفاء بالقليل الذى يسد الرمق • وبذلك الغذاء البسيط الذى لا يتطلب توفيره جهدا يحرفهم عن الغرض الاساسي من الدعوة (٢) •

ولقد حرص قادته اشد الحرص على الالتزام التام بتلك المبـادئ حتى انهم كانوا يستشيرونه متى ما اجبرهم طارئ على الحياد عنها •

فكتب له نفر منهم ذات مرة يقول ، " ••• ثم سيدى اننا حضرنـا بجهة مندريان اخواننا الفقرا لما رأينا مأكولهم البليله فقط اذناهـم بتعاطى قليل من العجل والويكه والسمسم ومع ذلك انه ليس موجودا وقد رأينا ذلك ليس مخلصا عند الله تعالى بلا رفع الامر لسيادتكم وحيث ان الاخوان حاصل لهم التعب ولا معنا هنا سوق يشترون منه الملاح والملح والان معنا ابنا ر قليلة فالتزمنا بتحرير هذا العرض لسيادتكم راجيـن الاذن في راحة الاخوان مما عندنا الان من البتر القليله وفيما يـوجـد

---

(١) المهدى الى عبد الرحمن النجومي ، عبد الله النور ، محمد عثمان ابو قرجـه ، ذو الحجه ١٣٠١ (قبل ٢٠ اكتوبر ١٨٨٤)•انذارات ب ٤ص ٢٢٥ — ٢٧

(٢) Cuzzi, p.83

من الان فصاعدا من الاصناف المذكورة والمسامحه فيما مضى وان تبينـــوا لنا الجايز تعاطيه منها والممنوع لسلوك طريق الرشاد " (١) •

تكشف هذه الرسالة حزم وصراحة المهدى في الا يقتات اتباعه الا بأبسط الغذاء حتى ان قادته يستشيرونه ويطلبون الاذن اذا ما ابتغوا ادخال بعض العناصر الى وجبة طعامهم • ونلاحظ التزام المهدى مرة اخرى في الرد الذى بحث به " ••• واما البصل والسمسم والويكـــه وغيرها من المأكولات فجايز للمجاهد ان يأخذ لضروره من غير ادخار وتحول الاكل في بطنه له جايز كما فعل ذلك اصحاب رسول الله صلى اللـــه عليه وسلم بأذن منه واما البقر فأنها متموله فاذ بعوا للاكل بالاذن لـــزوم الضروره •• " (٢) •

وكذلك حرص المهدى على التشديد على قادته بالا ينصرفـــوا الى امر تدبير الطعام ويهملوا تنفيـذ ما امرهم به ، اذ ان من شأن ذلك ان " يدخل في قلوب الاصحاب الالتفات الى غير الله من حيـــــث لا تقصدون ذلك لانكم مقتدى بكم ومتبعون وللناس حسن ظن بكم لانكم من الاولين السابقين المشار اليكم من حضرتنا كثيرا " (٣) •

وعندما اشتكى له عبد الرحمن النجومي وعبد الله ود النور ومحمـــد عثمان ابي قرجه من ان اولاد ود البصير لم يستجيبوا للامر الذى وجهـــوه اليهم بجلب الذره لمعسكرات الانصار كتب المهدى رسالة مطولة يلومهم

---

(١) عبد الرحمن النجومي وحمدان ابي عنجه الى المهدى
احكام ، ص ٣٦ - ٧

(٢) المهدى الى عبد الرحمن النجومي وحمدان ابي عنجه ، رجب ١٣٠١
احكام ، ص ٣٧ - ٦

(٣) المهدى الى عبد الرحمن النجومي ، عبد الله النور ومحمد عثمان ابي قرجه
انذارات ب ٤ ، ص ٢٢٥ - ٣٧

نبهنا على طلب الرزق من غير الله • " ••• وتعلمون احبابي انا لما كنـا في ابـا ما كانت لنا جهة نعرف اتيان رزقنا منها حتى هاجرنا منهـــا الى قدير بأمر سيد الوجود صلى الله عليه وسلم فكان يأتينا رزقنا من اللـه من حيث لا نحتسب كما جعل الله رزق المتقين من حيث لا يحتسبون كمـا قال الله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وكذلك على طريق الهجره الى قدير حيث نزلنا به فلا نعرف وجهـــة اتيان الرزق الا من الله وان حبس الله علينا الرزق حمدنا ايثارا لمـــا عند الله واقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم •• فعلى ذلك حتى اتينا بالابيض فما رأيتم انى طلبت قوما عينتهم لان تأتي ارزاقنا منهم ومع ذلـك فنفر عن الدنيا ومن الالتفاف اليها ويأتينا رزقنا من حيث لا نحتسب "(١) •

ومن الواضح ان المهدى لم يكن يرمي من وراء هذا الى القـــول بأن السماء ستمطـر لهم غلالا لاعاشتهم وعليهم الا يحركوا ساكنا في انتظار هذا الرزق الموعود ، بل كان يرمي الى الا تكون قضية الطعام امرا يقتتـل عليه ، وتصبح مجالا للشكوى بين القادة • كان يسعى دوما لتذكير اتباعه بالا تستحوذ مسألة توفير الطعام على تفكيرهم حتى لا تعطى الاسبقيه علـى الجهاد والقيام لنصرة دين الحق • فتعرض لهذا في ندائه للقبائـــل لتشارك في الزحف نحو الخرطوم بقوله " بادروا واسرعوا للسفر ولا يهمكـم شيء من الزاد بل يرزقنا الله الملك الخلاق " (٢) •

فاذا كان المهدى قد اهاب بالمجاهدين بصرف النظر عن كيفيـة اعاشتهم ، فقـد تصدى بنفسه لمعالجتها • فكان يحرر الرسائل لقادتـه الـذين يوفدهم للجهاد مبينا وسيلة تأمين الرزق • بين هذه رسالته

---

(١) المهدى الى عبد الرحمن النجومي ، عبد الله النور ، محمد عثمان ابوقرجة ، انذارات ب ، ص ٢٢٠ — ٢٧

(٢) يوسف ميخائيل ، ص ٦٦

التي بعث بها الى عبد الرحمن النجومي يطلب منه الاستعانة بأبي قرجه ومحمد عثمان حاج خالد ليوجهوا اتباعهم لجلب الذرة الى معسكرات الانصار حول الخرطوم (١) .

وقد استجاب ابو قرجه لهذا النداء فأخذ انصاره يجمعون الذره من القرى الواقعة على ضفتي النيل الازرق بواسطة الباخرة " محمد علي " التي استولوا عليها عند تسليم صالح الملك في فداسي (٢) .

ولقد واظب بعض دعاة المهدى في سنار على جمع الغلال الموجودة في منطقتهم وارسالها الى القوات المرابطة حول الخرطوم (٣) .

ومن هنا جاء وقوع منطقة الجزيرة تحت سيطرتهم عاملا هاما في وفرة الغذاء في معسكراتهم . ولم تنشأ اية ازمة في الغلال الا بعد وصول تلك الجموع الهائلة التي صاحبت المهدى .

ورغم هذا لم تختف من الاسواق بل ارتفعت اسعارها بصورة خيالية لم تألفها البلاد من قبل .

اما العامل الحاسم الذى جنب المهدى شرور المجاعة فهو استنفاره لبقاره كردفان فساروا في ركابه بكل ما يملكون من مواشي . فكان ان توافرت اللحوم بأسعار زهيده طوال اشهر الحصار وكانت خير تعويض لهم عن ندرة الغلال .

---

(١) المهدى الى عبد الرحمن النجومي ، فيوضات ٢/ ١٧٨

(٢) Nushi Pasha, p.39.

(٣) عبد الله افندى محمد ، تقارير وافادات عن حصار الخرطوم وسنار

الفصل السادس

عوامل حاسمة في تقرير نتيجة الحصار

لم يكد يمضي زمنا طويلا على وصول غوردون حتى تحددت معالم القضية التي يصطرع حولها الفريقان ، تلك القضية التي هي في جوهرها محاولة كل فريق ليسيطر على السودان باكمله عن طريق استلامه مقاليد الحكم في الخرطوم •

ورغم ان العوامل التي من شأنها ان تحسم الصراع تكمن بالدرجة الاولى في المسائل الادارية والعسكرية الا ان هناك عاملين لا يجب اغفالهما : اولهما هو الاسلوب الذى اتبعه كل من غوردون والمهدى لتدعيم موقفه بكسب مزيد من التأييد مع المحافظة على قواعده الجماهيرية وتوثيق العلاقة بينه وبينهما ، هذه العلاقة التي من شأنها ان تخلق نوعا من الترابط والالفة لا غنى عنهما لكل من وجد نفسه في ذلك الموقف • اما ثاني هذه العوامل فهو المسلك الذى اتخذه كل فريق تجاه الاخر ، ذلك المسلك الذى لعب دورا بارزا في تعقيد الازمة والوصول بها الى نقطة يستحيل التراجع منها و.ان لا بد ان تستخدم القوة لتحسم الصراع •

غـورد ون واعـوانـه

كان غورد ون يستمد قوته من التأييد المعنوي والمادي الــــذى تسبغه عليه حكومتا الخديوى وصاحبة الجلالة ، بالاضافة الى الـدعــم العسكرى الذى يلقاه من القوات الاجنبية والسودانية التي كانت مــا تزال تحفظ الولاء القديم لحكام الخرطوم ، وبعض المدنيين من الاهالــي ورعايا الامبراطورية العثمانية • ورغم ان هذا الوضع قد امن له السيطـرة على الخرطوم في بادئ الامر الا ان فشله في استقطاب اى تأييد خــارج المدينة جعل تلك السيطرة امرا موءقتا • ولقد شرع غورد ون فور وصولـه في توزيع المنشورات على مشايخ قبائل المنطقة والزعامات الدينية فيهــا موضحا لهم تفاصيل الخطة الاصلاحية التي ينوى تنفيذها •

ثم أوفد ستيورت في رحلة الى منطقة النيل الابيض لذات الهدف • ورغم ان هـذه المنشورات قد فقدت الا ان الوثائق تثبت ان المهدى كان اقدر على بسط نفوذه بين تلك الجماعات • ولا يستبعد ان يكون اسلـوب غورد ون في مخاطبة هوءلاء ضمن الاسباب التي ادت لذلك الفشل ، اذ تميز اسلوب معاملته لاعوانه داخل الخرطوم بالتحامل وعدم التقدير فقد كان يعتقد ان في مقدوره التصدى بمفرده لكل مشاكل الحصار ، وجاءت - بالتالي - استفادته مــن الاخرين وتجاربهم ضئيلة • بل انه سعى في حالات بعينها للتخلص من شخصيات كانـت بلا شـك ستلعب دورا فعالا وعمليـا في صمود المدينة والمدفاع عنها •

جـاء غورد ون الى الســودان وهو لا يصحب معه من الجنـــــد او الاداريين ســوى ستيورت باشـا وابراهيم فوزى ولـم تكن المهمة التي اوكلله امر انجازها من اليسر بحيث يمكن تنفيذها بواسطة هذا العـدد الضئيل • ربما توقعت حكومة الخديوى ان يجند غورد ون لخدمته بعـض الرجال الذين ما زالوا في الخرطوم امثال الكولونيل دى كتلوجن الـذى وجده غورد ون قائما بأمر وكالة الحكمدارية خلفا لحسين باشا سرى•

الا ان غوردون سارع بعد يومين من وصوله يأمره بمغادرة البلاد اذ ان خدماته لم تعد مرغوبة (١) • وقد برر هذا الاجراء بأن العمليات العسكرية التي كان يسهم فيها دى كتلوجن قد اوقفت • ولعله قد تسرع في اقرار هذه الحقيقة اذ انها ما لبثت ان استؤنفت بعد اقل من شهر من صدور هذا الامر • وحتى اذا اعتبر رأى غوردون هذا سليما ، فقد كان بامكانه الاستفادة من دى كتلوجن في النواحي الادارية التي لا بد ان تتطلبها عملية الاخلاء بكل تعقيداتها ومشاكلها •

ولم يكن بالخرطوم ، من ناحية اخرى ، كثير من اصحاب المعرفة والخبرة في هذا المجال ، فلم تستوعب حملة هكس باشا كل من له مقدرة على القتال فقط بل اولئك الذين يمكن ان يؤدوا مهام ادارية (٢) •

كان من بين الذين صحبوا هكس باشا وقتلوا معه كل من علاء الدين باشا وكيل الحكمدارية الذى خلف عبد القادر باشا حلمي ، محمد بك احمداني مدير الخرطوم وساطي بك المحسن باشكاتب المديرية (٣) • بقى في المدينة كل من حسين باشا سرى وكيل الحكمدارية وابراهيم حيدر باشا لواء العسكريه • ولكن غوردون ابرقهما قبل وصوله الخرطوم يامرهما بالتوجه فورا الى مصر •

لم يكن دى كتلوجن الرجل الوحيد الذى شاء غوردون الا يستفيد من خدماته فقد تجاهل عدة عروض تقدم بها بعض الاوربيين الذين كانوا مع المهدى للعمل معه • وقد اتخذ هذا الموقف على اساس انه لا يثق في الشخص الذى يتخلى عن دينه من اجل انقاذ حياته •

---

(١) غوردون الى دى كتلوجن باشا ٢٠ فبراير ١٨٨٤

(٢) The Times, 22nd, March, 1884.

(٣) نعوم شقير ، ص ٧١٨

وكان مفهوما ان اولئك الاوربيين قد اعتنقوا الاسلام وساروا في ركاب المهدى من اجل حماية انفسهم من الهلاك (١) فأصبح الدين بالنسبة لهؤلاء رداء يمكن استبداله في اى لحظة وفي الوقت المناسب • ولم تفلح كل المحاولات التي بذلوها لينالوا فرصة لشرح وجهة نظرهم • فبحث له سلاطين بثلاثة خطابات قوبلت بالتجاهل التام ولم تشفع له قولته انه قد حارب سبعا وعشرين معركة ضد الانصار ولم يرتكب في حياته ما يشين الى الحد الذى يمنع غوردون من الرد على رسائله (٢) •

كان يمكن ان يؤدى سلاطين خدمات جليلة للمدينة سواء من الجانب الادارى اوالعسكرى ، اذ عاصر المهدى لفترة مكنته من الالمام بتفاصيل اساليبه الحربية ونفوذه المعنوى وعدته وعتاده (٣) •

ومع تقدم الحصار واشتداد ضغط الانصار واجهت غوردون مشكلة جديدة تتمثل في صعوبة ايجاد شخص مؤتمن يحمل رسائله الى مصر • وهنا طلب سلاطين من غوردون ان يبعث له بمكاتباته وسيجد هو وسيلة ما لارسالها لوجهتها (٤) الا ان غوردون قرر الا يتيح له هذه الفرصة •

وشاء غوردون ايضا الاستغناء عن رجل كان بمثابة ساعده الايمن ، وهو ستيورت باشا ، فدفعه لمغادرة المدينة في وقت حرج ولا بد انه لم يضع في الاعتبار احتياجات الخرطوم البشرية في ذلك الوقت

---

(١) Journals of Gordon, Vol.I, 12th September, 1884.

(٢) Ibid, p.519

(٣) Ohrawlder, p.153.

(٤) Journals of Gordon, Vol.IV, 19th October, 1884

بالذات ، اذ كان شهر سبتمبر بداية لمرحلة اكثر عنفا في تاريخ الحصار• فقد وصل عبد الرحمن النجومي بجيوشه وعسكر خارج بوابات الخرطوم فـي انتظار جموع اخرى في طريقها اليه • فتضاعفت بهذا مشاكل غـــوردون واصبحت فوق مقدرته وحده كما اعترف بنفسه فيما بعد • وربما كان رائـــده في ارسال ستيورت هو محاولة انقاذ الاخرين من مصير مجهول ولا يبدو مشرقا ولا يستطيع المرأ — بالطبع — الا ان يقدر هذا الشعور ولكن لم يكن الامــر يتعلق بشخصه بل بحياة الالوف من السكان وكان لا بد لغوردون ان يجند كل الطاقات الموجودة لديه حتى يتمكن من ايجاد مخرج لهم •

ولقد علق غوردون بعد سفر ستيورت مباشرة بأنه يحمل فوق اكتافه كل مسئولية الحصار ، فهو يشرف على الجنود وتدريبهم ويقوم بتفتيـــش الطوابي ويخطط العمليات العسكرية ويراقب التموين والمالية ويشرف علـى المرضى (١) وكان يحس انه في حاجة ماسة للمعاونة الا انه لا يجـــد بين موظفيه من يمكن الاعتماد عليه في اداء واجب ما خارج عملـــــــــه الروتيني (٢) وقد كشف غوردون في عدة مواقف عن رأيه في اعوانه ، ففي الواقع لم يكن يضع ذرة من الثقة في العسكريين منهم بل اعلنها صريحة انه خلال تجاربه الطويلة لم يلتق بضابط او جندي اكثر صفعة مـــــن الجندي المصري (٣) اما الباشبوزق الاتراك فهم عديمي الفائدة ولا امـــل يرجى منهم على الاطلاق (٤) ثم وصف عساكر الشايقيه بأنهم يفتقرون الـــى الحد الادنى من الشجاعة المطلوبة في الجندي (٥) وهم فوق هـــــذا مترددون متخاذلون ولا توجد فئة من البشر في العالم بأسره يمكن ان تستنفذ الصبر مثلهم (٦) •

---

(١) Journals of Gordon, Vol.I, 12th September 1884.

(٢) Ibid.,

(٣) Ibid, Vol.IV, 19th October, 1884.

(٤) Ibid, Vol.II, 24th September, 1884.

(٥) Ibid, Vol.I, 19th September, 1884.

(٦) Ibid, Vol.III, 9th October, 1884.

ولا بد للمرء ان يتساءل اذا كان هذا هو رأى غوردون في قـرارته المحاربة اما كان الاجدر ان يخضع الامر برمته للمراجعة ، اذ لا يستقيم تقييمه لهؤلاء مع تصميمه على القتال ، ولا بد انه لم يكن يرى بارقة امل في احراز النصر وكان الاجراء المنطقي في هذه الحالة هو قبول دعـــوة التسليم التي كثيرا ما وجهت اليه ٠

الا ان اصرار غوردون على الاحتفاظ بالمدينة والدفاع عنها ، يثير ظلالا من الشك حول عدالة تلك الاحكام التي اطلقها ٠ ولعل الموضـوع بنهاية الامر هو مبالغة في مقدرته الذاتية واعتقاده الشخصي بأنه ليس هناك من يستطيع ان يؤدي عملا بالوجه الاكمل كما يفعل هو ٠ ولقـد اثبتت الوقائع بعض الاشراقات لجنوده الذين خاضوا معارك كثيرة ضـد الانصار وتمكنوا من الانتصار في بعضها رغم كل النقائص التي تعاني منهـا الشامية ٠ كذلك اظهر بعض الضباط من الشجاعة والبأس ما جعـل غوردون ينعم عليه برتب والقاب مختلفة من بين هؤلاء محمد نصحي باشا ومحمد بك طلعت وحسين بك بهنساوي وابراهيم بك فوزي ٠ كما ان رجالا مثل خشم الموس بك لا يمكن ان يوصف بالتردد او التخاذل فقـد عمل بهمـة في الدفاع عن المدينة اثناء وجوده فيها وادار ظهره لكـل المحاولات التي بذلها اعوان المهدي في منطقة الخرطوم وشندي لحملـه على هجر معسكر الحكومة والانضمام اليهم ٠

لم يسلم رجال الحكومة البريطانية بما فيهم ممثلها في القاهرة مـن حملات التشهير العنيفة التي كان يشنها غوردون ، ولعل هجومه المتواصل على بيرنج قد خلق نوعا من التوتر استحال معه التعاون المثمر ٠ " لا بد انـه قد اختفى برفياتي " هكذا كتب غوردون مشيرا لبيرنج "وهذا على اية حـال لا يدهشني " (١) ٠

---

(١) Journals of Gordon, Vol. I, 19th September 1884.

ولم يخف غوردون حقيقة مشاعره تجاه رجال وزارة الخارجية ، وكتب يقول انه لا يتصور وجود مجموعة من الرجال عديمة الفائدة كهؤلاء بما فيهم " كلارندون دربي ، دلكن ، جرانفيل واني اتعجب كيف تنقسم سياسة بريطانيا العظمى الخارجية على اكتاف هؤلاء "(١) .

كان غوردون يتمتع بميزة شخصية جعلته يميل دوما الى التقليل من شأن الاخرين ، رؤساء كانوا او مرؤوسين ، فجاءت ثقته فيهم ضئيلة وتباعدت الشقة بينه وبينهم وفقد عاملي التضامن والتعاطف النفسي اللذين من شأنهما ان يساعداه كثيرا خاصة في ذلك الظرف الذى وجد نفسه متورطا فيه .

Vol I
Journals of Gordon, 17th September 1884. (١)

اسلوب المهدي

درج المهدي منذ بداية دعوته على انتهاج اسلوب تميز بالتواضع واحترام الغير فهو يسعى الى ترغيب الاخرين في المهدية بلا ارهاب او عنف لذلك تمكن من استقطاب تأييد جماهير القبائل السودانية التي حققت له انتصاراته على راشد ايمن ويوسف الشلالي ، وتضاعفت اعدادها كرد فعل لاستيلائه على مراكز الحكومة في كردفان ودارفور فدحرت حملة هكس باشا في شيكان وواصلت نشاطها في اجزاء اخرى من البلاد • ولم تغير تلك الانتصارات المهدي بل التزم بنفس المسلك حتى يحتفظ بمشاعر مؤيديه الى ان يستكملوا المهمة بفرض السيطرة الكلية على البلاد •

كانت وسيلة المهدي الاعلامية لبث الدعوة هي المنشورات العامة والرسائل الخاصة يبعث بها للجماعات والافراد سواء كانوا من الذين عرفوا بتعاطفهم معه ام بعداوتهم له • وبمراجعة نماذج من هذه الخطابات يتضح ان المهدي لم يلجأ فيها لاسلوب الارهاب او الاستفزاز بل كانت وسيلته الكلمة الطيبة التي لها - في اغلب الاحيان - سحر لا يقاوم • وقد اثبت هذا الاتجاه فعاليته وايجابيته فأقتنع كثير من مشايخ القبائل وزعماء الدين بصدق الدعوة عند استلامهم لتلك الخطابات •

وكان من بين الذين اتصل بهم المهدي عن هذا الطريق محمد عثمان بن محمد الحسن المرغني زعيم الختمية المقيم بكسلا الذي عرف بمعارضته له ، وظل الوحيد من بين رجال الدين في السودان الذين وقفوا ضد المهدي وقاوموا دعوته الى النهاية (١) • ولم يكن رفض الختمية للدعوة سلبيا بل حاولوا القيام علنا بنشاط مضاد • فاستجابوا لدعوة الانكليز عندما فطن هؤلاء الى امكانية زج النعرات الطائفية في المعركة ، فرافق محمد سر الختم المرغني - الذي كان مقيما بمصر - بيكر باشا في رحلته الى

---

(١) نعوم شقير ، ٩٠٦

شرق السودان في ديسمبر ١٨٨٣ • وهناك طلبوا منه القيام بجولة يحـــاول خلالها اثناء رجال القبائل بالطرق السلمية عن مناصرة المهدى فأرسـل هـــو وخلفاؤه " الى جميع العربان كتبا يخبرونهم فيها بأن هذا الامر ليست هـــو الا فتنة محضة وليست هنالك المهدى وأمرهم بالرجوع عن هذه الحالة " (١) • وقد وجه رسالة شخصية لعثمان دقنه بذات المعنى فرد عليه هذا الاخير معرضا عن النصيحة ، وبعث بكل هذه الخطابات الى المهدى حتى يتمكن من الوقوف على حقيقة الامر (٢) •

بالاضافة الى هذا كان نشاط خلفاء المرغنية ونسائهم في منطقة شنـــدى على اشده ، فما ان وصـل اسطول غـوردون الصغير المكـلف باستطــلاع انبـاء الحملــة الانكليزية حتـى تعاونوا معهــم في اجراء سـلسلـة مـــن الاتصالات تهدف لحمل رجال القبائل على هجر المهدى والرجوع مـرة اخرى الى طاعة الحكومة (٣) •

لم تثن هذه الوقائع المهدى عن محاولة خلق وشائج المودة المبنية علـى السعي لكسب محبة الله بينه وبين زعيم المرغنية فهـو يصفه بأنه من " اولوا الشرف والمقام وذوو الالباب الذين قال الله فيهم ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لا يأت لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض" (٤) • ويفطن المهدى الى ان حقيقـــة كونه زعيمـا دينيا قد تخلق حساسية من شأنها ان تقف عائقا في سبيل استجابته لنداء المهدى •

---

(١) دفتر وقائع عثمان دقنه ، قسم السودان ، مكتبة جامعة الخرطوم

(٢) المصدر السابق

(٣) جورنال الحوادث

(٤) المهدى الى محمد عثمان بن محمد الحسن مرغني

محرم ١٣٠١ — انذارات ب ص ١٦٤ — ٨

فيضمن احدى رسائله اعترافه بتلك الزعامة وتقديره لها ويخاطبه بثقة في علمه بأنه " ... كمن يطلب رضاء الله ولو تقطعت في ذلك اربا وقاسيت منك جميع المطالب النفسية بما تعلمه من عظامة الله ونعمته وشدة عقابه لمن وقع فيه وكل ذلك انت جند به وشأنك ان تربي من اتاك هكذا ... " ويقول له ايضا " ... وانك اعظم من يقبل النصح تواضعا لله الذي خلق واحيا واليه المرجع ومن أخير المؤمنين الذين يسمعون القول فيتبعون احسنه ..."(١) واشار اليه بوضع حد لتردده وترك له الخيار ، فأما ان يهاجر اليه حيثما يكون او يعين نفسه عاملا له ويشنها حربا على الحكومة بجهته . ولكن محمد عثمان لم يحرك ساكنا ولم تبد منه اشارة تنم عن انه ربما يتخذ موقفا مغايرا ورغم هذا لم يشأ المهدى ان يغلظ له القول بل ظل يدعوه " حبيبي في الله المكرم محمد عثمان ... " ويعاتبه بأنه كان أحق بلقاء المهدى من عامة الناس لانه من المظنون فيهم الخير، اولئك الذين لا يرون في الدنيا شيئا وانما اشتياقهم دوما الى ذي الجلال والاكرام (٢) . ثم كرر له ذات العرض الذي قدمه له في الرسالة السابقة ووعده بحسن المعاملة والامان الشامل " ووصينا المذكور واخوانه عليكم بملاحظتكم وشمول النظر فيكم ومنع التعدي عليكم من اي احد كان وعدم حصول ادنى ضرر بكم لا في نفسكم ولا في اموالكم ولا في احد من جماعتكم المخصوصيين " (٣) . اما اذا صمم محمد عثمان على تجاهل هذه الرسائل فسيظل الباب مفتوحا له حتى يأتيه اليقين . ويبدو ان زعيم المرغنيه قد تأثر بهذه المعاملة ولم يشأ ان يرد عليها بمواصلة نشاطه المضاد ، وكان في هذا مكسب للمهدى فقد نجح على الاقل في حمل اشد معارضيه على التحفظ واتخاذ موقف سلبي من الدعوه .

كذلك اتصل المهدى عن طريق الرسائل بالشيخ محمد الامين الضرير

---

(١) المهدي الى محمد عثمان بن محمد الحسن ، مرغني محرم ١٣٠١ ، انذارات ب ص ١٦٤ ـ ٨ .

(٢) المهدي الى محمد عثمان بن محمد الحسن مرغني ٩ شعبان ١٣٠٢ انذارات ب ص ٢٩٤ ـ ٧

(٣) المصدر السابق

رئيس ومميز علماء السودان الذي كان مقيما بالخرطوم وبقي فيها حتى سقطت الا انه نجا من المذبحة التي اعقبت دخول الانصار ٠ وقد تضاربت الروايـــات حول الوسيلة التي امنت له النجاة ، فهناك من يقول ان اخاه علي كان ممن تدامى اعوان المهدى فسعى الى الابقاء على حياته عند سقوط المدينة (١)

ولكن مصادر اخرى ذكرت انه لم يكن ثمة تفكير لدى الانصار لقتل محمد الامين لانه كان من مؤيدى المهدى وقد اجرى اتصالات سرية مع اخرين عبر فيها عن هذا التأييد (٢) ٠ ورغم تباين الروايات فمن المؤكد انه قد حرر اكثر من رسالة يعلن فيها رفضه لدعوة المهدى جملة وتفصيلا ، وجاءت احدى هذه في وقت متأخر من الحصار (٣) ٠ وقد كتب له المهدى عدة رسائل شارحا له حقيقة الدعوة التي يبدو انها كانت ما تزال خافية عليه ٠ ورغم انه لا يثبت لقبه الرسمي في هذه الخطابات الا انه يخاطبه بتجلة " الاستاذ المعظم الشيخ محمد الامين جعله الله من المكرمين " (٤) ٠

وهو يسهب في اغرائه لقبول الدعوة وانقاذ نفسه من المهالك حين يقول " ولا تعاون الظلمة بعد هذا فانه لا يخفاك ما احدثوه فـــي الاسلام وقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم فيهم باخبار كثيرة ومثلك تكفيه الاشارة " (٥) ٠ واراد المهدى ان يؤكد له اعترافه بعلمه فدعاه " مسلم الشريعة المحمدية المستفيض من رحمة ربه بالعلوم النقلية " (٦) ٠ولعل السمحة

---

(١) محمد عبد الرحيم ، ص ١٤

(٢) نعوم شقير ، ص ٨٢٩

(٣) الرسالة الموجهة الى عبد القادر ابراهيم وعبد الرحمن النجـــومـــي ٢٢ ذو القعدة ١٣٠١ (١٣ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق (أ) ٠

(٤) المهدي الى محمد الامين انذارات ب ، ص ٢٢-٧

(٥) المصدر السابـــق ٠

(٦) المهدى الى محمد الامين ، ربيع آخر ١٣٠١

انذارات ب ، ص ٩٤-٨

الطيبة التي كان يتمتع بها محمد الامين كرجل دين له اتباع ، ويمكن ان يؤثر تأثيرا مباشرا على موقف فئات اخرى ، هو الذى دفع المهدى لمحاولة الاتصال به والالحاح عليه ليعترف به ومن جهة اخرى ، يبدو ان تلك الرسائل قد ادخلت الطمأنينة في نفس محمد الامين ، فالمهدى لا يعاديه ولا يضمر له شرا واسطه لهذا اثران يضع توقيعه على العرائض التي ارسلت سرا اليه •

حاول المهدى ايضا استمالة زعماء القبائل الذين ما زالوا على ولائهم للحكومة المصرية بالترغيب والمدح • كان على رأس هؤلاء الشكرية فكتب المهدى لهم ممتدحا ما عرفوا به من حسن تدبير وتفهم لامور الدين والدنيا ولا يعقل ان يبقى من هوفي مكانهم بعيدا عن الدعوة الدالة الى سكة الله ورسوله • " ••• فاذا بلغكم جوابي هذا وكنتم مصدقين كما حسنا فيكم الظن بحسب مجاوبتكم وما اسررتموه من بعض الاحسان على الاهل بحسب الظن وكل ذلك لا يخلص الانسان الا صفاه وحسن تصديقه لما عند الله الذى يوجب ايثار ما عند الله فأن الذين كانوا حاسدين على ما هم فيه من الجاه والمال واحتجبوا عن الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كانوا ينتظرونه ويستفتحون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به خوفا من فوات المال والجاه •"(١)

ولعل هذه الخطابات كانت ضمن الاسباب التي جعلت الشكرية ينقسمون على انفسهم • فأعلن جزء منهم تأييده للمهدى وساهم مساهمة فعالة في عمليات حصار الخرطوم منذ بدايتها •

وعمل المهدى ايضا ليكسب تأييد الشيخ العبيد ود بدر الذى كان يتمتع بمكانة دينية مرموقة ليس بين سكان منطقة الخرطوم وحدها بل في انحاء متفرقة من البلاد • فأرسل له عدة مكاتبات حاول فيهما ان يستميله الى صفه بالحسنى وبلا استفزاز • وكان ان اعترف له في المهدى

---

(١) المهدى الى عوض الكريم احمد ابو سن (واخرين)
ربيع اول ١٣٠١ ، انذارات ب/ص ٩١ — ٤

الرسائل بأنه من " اعظم من يمد يطن بالصداقة والاخلاص لما عند اللـه " وبناء فيها ايضا قوله " وما عهدتك انك تتباطأ على قدر هكذا مع انك جد عارف بعظمة ما عند الله وخسة الدنيا وما فيها .. وانك ممن لم يكن د يسه على مرض فان اصابه خير اطمأن به وان اصابته فتنة انقلب على وجهـه بل انت ممن يطلب ما عند الله ولو تقطعت اربا اربا وفاتتك جميع المطـالب النفسية لما تعلم ما هو عند الله من المقامة التي لا توازيها جميع المطالب (١)

ويصفه ايضا بأنه " من اعظم من يقبل النصح تواضعا لله الذى خلـق " وانك من اخص المؤمنين الذين يسمعون القول فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم الله أولوا الالباب " (٢) .

وحتى عندما تجاهل الشيخ الضبيد هذا الخطاب اعقبه المهدى بآخر والتزم نفس الاسلوب الذى تبعه في الرسالة الاولى فجاء فيـــــه " ... انتم اهل دراية ومعرفة وقد علمتم اذا خلاء القلب من غير اللـــه يمتلئ نورا ويفيض منه الى خلق الله ولا شك ان الرباني المتمسك باللـه كامثالكم شأنه هكذا وسيماه وعلاقته هي عدم الخشية من احد غير اللـــه والان انتم معدودون عندنا لاجل ذلك ... " (٣) . وبعد طول تـــردد اعلن الشيخ الضبيد مساندته للمهدية فكان لهذا الكبر الاثر في حصـار الخرطوم كما اوضحنا في غير هذا المكان .

اما اسلوب المهدى في معاملة اعوانه فقد ساعد الى حد كـبيـر في تماسك فريقه طوال مدة الحصار ولم تتزعزع ثقتهم فيه وايمانهم بـه قيد انملة ، فقد بقى رجــل الدين الذى ينظر اليهم جميعا كانداد لـه لا يقلون عنه من حيث الفهم والدراية والمكانة عند الله طالما انهـم

---

(١) المهدى الى الضبيد ود بدر ، انقارات ب ص ١٢٩ — ٣٢

(٢) المصدر السابق

(٣) المهدى الى الضبيد ود بدر ، انقارات ب ص ١٣٧ — ٩

وهبوا انفسهم في سبيل تلك الدعوة وهو القائل لهم . " يااحبابي انكم قد صرتم من انصار الدين وصرنا لسنا اولى به منكم " (١) .

اما قادته العسكريون والاداريون فقد كان ينعمهم في مصاف ذاته وقد اعتمد عليهم اعتمادا كاملا في القيام بأمر الدعوة في مناطق كثيرة ووجه الاهالي الى اتباعهم وعقد لواء امورهم لهم .

وقد كتب في منشور تعيين احد هؤلاء يقول " ... فنحن عيناه لاجل الجهاد في سبيل الله واقامة دين الله واحياء سنة رسول الله واجزناه في قتال الترك الذين امر الله ورسوله بقتالهم ... وحيث علمتم ذلك فان المذكور ارسلناه اليكم لاجل ان تجتمعوا معه انتم رهطه اجمعين ومن انضم اليكم من سائر القبائل من المسلمين ان توزره وتنصروه وتقوموا معه بكامل الهمة والمروة ... فأطيعوا امره ونهيه فمن اطاع امره فقد اطاعني ومن خالفه فقد خالفني ... " (٢) .

وقد جاءت مكاتباته مع قادته العسكريين تحمل اعترافا كاملا بجهودهما ، فقد ساهموا بكل طاقتهم لاحراز النصر وخاضوا المعركة تلو المعركة بدافع الايمان الخالص فخاطبهم المهدى بقوله " فجزاكم الله خيرا واحسانا وشكر سعيكم واحسن مالكم وما لكم فأننا احبابي شاكرون لفضلكم وعارفون لقدركم وندعو لكم بالخير والبركة وانتم عندنا كبعض الجسم من نحو عين ويد وقد قرت بكم اعيننا ... " (٣) . ولعل هذا الاسلوب قد دفعهم لبذل المزيد من الجهد والتفاني لاستكمال سيطرتهم على البلاد .

كان بالطبع بين قادة المهدى من يخطئ ويلحق الضرر بنفسه

---

(١) المهدى الى عمر الياس ومحمد بن الحريق ومن معهما من الانصار ١٢ جمادى آخر ١٣٠٠ ، انذارات ب ٤ ص ٦٧ — ٩

(٢) المهدى الى كافة قبيلة دار محارب غرب، ذى الحجة ١٢٩٩ ، انذارات ب ٤ ص ٤٥ — ٦

(٣) المهدى الى عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور ومحمد عثمان ابي قرجة ، انذارات ب ٤ ص ٢٢٥ — ٣٧

وبالاخرين وكثيرا ما كان المهدى يتصدى لمعالجة هذه الحالات بشخصه فجاء اسلوبه خال من غلظة في القول او اللوم العنيف مثال هذا ما حدث لمحمد النيل حامد عامله في الجزيرة الذى تهاون في بعض شئون الدين • فما كان من المهدى الا ان بعث له بخطاب جاء فيه" ••• حبيبي منذ انك من اجل من سبق وتحقق عنا وعلم ان الراحة والعزة في دار الابد وان ارادة الحلو والكثرة من عين الانقلاب من سواء الصواب وياحبيبي حيث ان لمك اتباع بكثرة فعاين بهم ما تطلبه عند ربك ولا تعاين لطلب نفسك في وقتك فان ذلك عرض زائل وقصد عند الله عاطل وحيث اني اعهد فيك الصفا واتباع سنة المصطفى وتعلم كثرة اتباع بعض الصحابة ولصدق طلبهم معا عند الله اتبعوا من هو دونهم اتباعا وشجاعة وتدبيرا وذلك لصدق الطلب لما عند الله •• فياحبيبي عامل اخوانك بالمعاملة التي ترجى بها ما عند الله وسارع بذلك الى مغفرة الله ومحبته فأنك محتاج الى ذلك "(١) •

اتى هذا المسلك الذى انتهجه المهدى بأطيب النتائج ، فقد كسب به الرجال الذين اطمأنوا اليه لما عبر عن ثقة فيهم واحترام لهم • فازداد ايمانهم بالمهدى وجدوا في موازرته وهيأوا له سبيل النصر باستعدادهم للتضحية بأنفسهم واولادهم وممتلكاتهم فشكلوا قوة دفع هائلة تمكنت في النهاية من فرض سيطرتها على السودان كله •

العامل الثاني :

اما العامل الثاني الذى كان له اثره في المعركة الفاصلة فهو مسلك كل فريق تجاه الاخر واسلوب معاملته له كما كشفت عنها الرسائل التي

---

(١) المهدى الى محمد النيل حامد ١٣٠١ ،
انذارات ج٢ص ٢٢١ - ٣

تبودلت بين امراء المهدى وغوردون وقادته وبين المهدى وغوردون ايضا . لجأ فريق غوردون الى الاستفزاز والتحقير وهي في الغالب الاعم الاساليب التي يستخدمها من هوفي موقف الضعف، في حين حاول فريق المهدى تهدئة الخواطر باللين قبل الشدة . الا ان اصرار الجانب الآخرعلى موقفه دفعهم الى تصعيد عملياتهم العسكرية ومواصلة الضغط على المدينة حتى يتمكنوا من الاستيلاء عليها بالوسيلة التي اختارها حكامها .

غوردون وامراء المهدى :

وسادت علاقة بين غوردون وامراء المهدى طوال مدة الحصار كشفتها لنا جملة الرسائل التي تبادلوها . ورغم ان بعض هذه المخاطبات وجد مع يوميات غوردون الا ان من المرجح ان يكون بعضها قد فقد خاصة تلك التي تبودلت في الستة اشهر الاولى من الحصار . بين الرسائل التي وجدت مع اليوميات اثنتان من الشيخ عبد القادر ابراهيم مع رد ود غوردون اليه ولان هذه قد بعثت خلال سبتمبر فلم يتمكن من وضعها مع الوثائق التي حملها ولعله قد فعل بالنسبة لتلك التي وصلته قبل هذا التاريخ والتي اشار اليها الشيخ عبد القادر في رسائله الملحقة باليوميات (١) .

كما ان نصحى باشاقدأورد في تقريره ملخصا لاحد خطابات الشيخ عبد القادر ومن مقارنتها مع النصوص، يتضح انها لا تطابق ايا منها فلا بد انه يشير الى رسالة اخرى ما زالت مفقودة (٢) وجدت ايضا مع اليوميات ثلاث خطابات من عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون مع رسالتين بعث بهما غوردون الى عبد الرحمن النجومي .

---

(١) عبد القادر ابراهيم الى غوردون، غاية ذى القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ب .

(٢) Nushi Pasha, p.21.

تميزت هذه الخطابات باربعة مظاهر، اولها ان امراء المهدي أبدوا دوما حرصا على مخاطبة غوردون بتقدير واحترام • فاثبتوا لقبه الرسمي واضافوا عبارات اخرى للتحية في بعض الاحيان ، ثانيها انها قد تضمنت نداءات صريحة لغوردون ليسلم المدينة بلا قتال • ثالثها انها قد اعطت غوردون وعدا قاطعا بعدم التعرض له او لسكان الخرطوم بسوء في ارواحهم او ممتلكاتهم في حالة التسليم • ورابعها انها لم تورد بشكل صريح مسألة اعتناق غوردون للدين الاسلامي كشرط مسبق لنجاته اونجاة من معه •

فخاطبه عبد القادر ابراهيم في رسالته الاولى بقوله " سعادة غوردون باشا والى عموم السودان " (١) واثبات لقب الوالي هنا لا يعني بالضرورة انه يعترف به بصفته هذه الا انه اراد اثباتها لانها لقبه الرسمي • ولعل استجابة غوردون لهذه الروح كما كشفها رده للشيخ عبد القادر جعلت الاخير يكتفي في رسالته الثانية ب " غوردون باشا " فقط (٢) والتزم عبد الرحمن النجومي وعبد الله بمخاطبته ب " غوردون باشا " في اولى رسائلهما (٣) وفي اخرى ب " غوردون باشا عزيز بريطانيا والخديويه " (٤) • ورغم انهما قد اكتفيا في ثالثة بذكر اسمه مجردا الا انهما امتدحاه في ذات الوقت بالقول " انت من اهل الفطانة والمعرفة العقلية " (٥) •

ولقد اوضح الامراء في اكثر من رسالة ان المعركة ليست بينهم

---

(١) عبد القادر ابراهيم الى غوردون باشا ، ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ •

(٢) عبد القادر ابراهيم الى غوردون باشا ، غاية ذى القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ب

(٣) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور ، ٢١ ذو القعدة ١٣٠١ (١٣ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج

(٤) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون باشا ٢ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د

(٥) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون ٣ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق هـ

وبين غوردون بل اعترفوا له بتعاطفه مع السودانيين بصفة عامة كما تجلى في سابق زياراته للبلاد • فهم لا يضمرون لهم حقدا وليس بينهم وبينه عداوة شخصية • وقد ورد في احدى رسائل الشيخ عبد القادر قوله " ••• ومما نعلمكم به سعادتكم ان ما انتم عليه من العلم والشفقة على الاهالي واكرامكم لنا نحن بالاخص معلوم عندنا ومثبوت بالحال من ابتدى حلولكم بالسودان في المرات الاولى والثانية هذه وما اعلنتم به بالمنشورات الصادرة منكم حال حضوركم بالسودان هذه الدفعة صار معلوم عندنا وعند الخاص والعام"(١)•

بدأ جليا ان الهدف من تلك المخاطبات كان حمل غوردون على التسليم وتجنب اراقة الدماء • وظل الامراء يكررون هذه النداءات طوال فترة الحصار • فكتب الشيخ عبد القادر يقول " ••• وكنا قبل ذلك خاطبنا سعادتكم بالمرات العديدة وفي كل مرة اوضحنا ما فيه الكفاية لمن له قلب وفي جميع المكاتبات اوضحنا لكم طريق السلامة والنجاة فلم تقبلوا ذلك ولم تنظروا الى عواقب الامور فيما دعوناكم اليه لانه سبب لسلامتكم من عطب الدنيا والاخرة انتم واهل البندر لان كثيرا منهم احبابنا واهلينا وقد تركتم ما اوضحناه لكم مرارا وتكرارا وصرتم تسمعون كلام العلماء ••• "(٢) • وحاول الشيخ عبد القادر ان يقنع غوردون من جانبه بصدق دعوة المهدي ، وانه بحق المذكور في الكتب السماوية ولا مجال لنكرانه وادارة الظهر له وهذا هو السبب الذي يقعده عن مساندة غوردون • ومن ثم اصبحت المفاضلة عنده بين خيارين : اما الانحياز الى مباهج الدنيا التي يعرضها غوردون في شكل اعانات وانعامات ، واما اختيار سكة الله ورسوله فأختار الاخيرة • لم يتطرق الشيخ عبد القادر الى دين غوردون او اعتبار التخلص

---

(١) عبد القادر ابراهيم الى غوردون باشا ، ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ

(٢) المصدر السابق

عنه شرطا مسبقا للتسليم • بل يخطره بأنه قد حصل على تفويض من المهدي بالمحافظة على حياته وضمان سلامته الشخصية (١) ولن يتم هذا الا في حالة تسليمه • يقول الشيخ عبد القادر " ••• بل النافع الرجوع للحق ونبذ الباطل بجميع اصنافه وتسليم الامر لهذا الامام عليه السلام فلا نجاة الا في ذلك ولا سلامة الا فيما هنالك فان كانت لك محبة معي كما حكيتهم فأقبلوا قولي وانتفعوا به وسلموا انفسكم والمسلمين ••• " (٢) الا انه يعود في رسالة اخرى لينقل له استعداده لتأمين سفره الى بلاده مع ستيورت باشا وسكرتيره ابراهيم بك رشدي متى ما اعلن تسليم المدينة له (٣) ومن جهة اخرى فقد ارسل عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور عدة نداءات لغوردون ليسلم • واكدا له ان المهدي يحليه وعدا بعدم التعرض لحياته او حياة السكان او ممتلكاتهم او اموالهم • ولن يؤثر ما سبق من صدام مسلح بين الفريقين في وضعهم مستقبلا في دولة المهدية بل سيتمتعون بنفس الحقوق ويلتزمون بنفس الواجبات (٤) •

ولكن استجابة غوردون جاءت على غير ما رغب الامراء • حيث اوضح لهم انه ليس على استعداد لمقابلتهم بتلك الروح التي برزت في خطاباتهم ناهيك عن قبول نداء التسليم • فكانت رسائله استفزازية تحمل بين طياتها عبارات التحقير والاستهانة بهم • ولم يحاول في اي منها الاشارة الى المهمة التي اوفد من اجلها بل ابدى اصراره على الدفاع عن المدينة مهما كلفه ذلك ، واضاع بهذا الفرص المتكررة التي اتيحت له لانقاذ نفسه ومن معه •

---

(١) عبد القادر ابراهيم الى غوردون باشا في ١٨ ذي القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) . ملحق أ •

(٢) عبد القادر ابراهيم الى غوردون باشا غاية ذي القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) . ملحق ب •

(٣) Rushdi Pasha, p.21.

(٤) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون باشا ٢٤ ذي الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د

حرص غوردون على صياغة تلك الرسائل بنفسه مستعينا بقاموس لديه (١) فجاءت اغلبها خالية من عبارات التحية والمجاملة التقليدية . فهو يخاطب الشيخ عبد القادر بأسمه المجرد (٢) ويشير الى المهدي ب " محمد احمد " (٣) . وفي ردوده على عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور يتجاهل الاخير تماما ويوجه حديثه للنجومي وحده (٤) وعندما وصله خطاب من محمد عثمان ابي قرجة لم يكلف نفسه مشقة الرد عليه لانه حسب قوله لا يتراسل مع العبيد (٥) . ثم نعته في رسالة للنجومي بأنه سكير لا يتوقع منه ان يفلح في شيء خارج هذا المضمار (٦) ولم يحاول غوردون اخفاء حقيقة رأيه فيهم ، فهم مجموعة لصوص وقاطعو طرق " ... وان كان انسان له رغبة ان يعمل درويش فنحن لا نمنعه ومن جهة العلماء الذاكرين عنهم بأنهم كذابين وكلامهم جميعه في غير محله فأنهم ما قالوا شيء الا بحسب المنصوص عندهم في الكتب بل وجميع علماء الاسلام مصرحين بذلك ولم يرضوا ان يناموا على الارض ويلبسوا الدراويش امتعتهم ومقربيات ثيابهم ... " (٧) اما محمد الخير عامل المهدي على بربر فقد استولى على الاموال العامة ليحولها لمنفعته الشخصية ووضح لانصاره ان " الامور كلها غش في غش " (٨) .

---

(١) غوردون الى عبد الرحمن النجومي ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج " .

(٢) غوردون الى عبد القادر ابراهيم ، بعد ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ " .

(٣) ملحق أ " ، ب " ، ج " ،

(٤) غوردون الى عبد الرحمن النجومي ، ملحق ج " ، د "

(٥) Nushi Pasha, p.67.

(٦) غوردون الى عبد الرحمن النجومي ، ٣ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د " .

(٧) غوردون الى عبد الرحمن النجومي ، ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج " .

(٨) غوردون الى عبد القادر ابراهيم ، ٣٠ ذو القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ب " .

لم يشر غوردون الى انه جاء للسودان لينفذ سياسة الاخـــلاء وسحب الجند والمدنيين الى مصر ، بل اسبغ على نفسه صفة الحاكم علـى البلاد " معين فيها ... من طرف دولتين عظام ولذلك مجبور على رؤيـة مصا لحها بحسب ما تقتضيه شئون صداقتي وشفقتي على المسلمين " (١) . وهو يرهبهم بأن الحكومتين اللتين اوفدتاه قد ارسلت بجيوشها لضرب العصـاة والمتمردين وادخالهم في الطاعة قسرا ، وقد حاول معهم هذا الاسلـوب لعله ينجح في حملهم على التراجع . فقال في رسالة اخرى " ورد لنا جواب من رئيس جيش الانكليز بأن الجيوش الانكليزية التي وصلت الدنقلا قتلـت الشريف الهدى والشريف محمود الذى كان ارسل منطرف محمد احمـد لمحاصرة دنقلا وقتلت كافة من معهم من الدراويش ومتوجهين دوغرى - وان الوابورات الذى ارسلناهم بالاسبوع الماضي وصلوا لبربر فوجد وها قاعـــدا مقصفا ودخلوا فيها واستلموا الاثنين وابورات الموجودين فيها من سابق وان محمد الخير هربا من عنا" (١) . اراد غوردون ان يشعلها حـرب نفسية على الانصار فكان يحذرهم من حين لاخر بأنه سوف يشرع في ضربهم بكافة انواع الاسلحة بما فيها الصواريخ التي لا بد ستحدث هزة ارضيـة عنيفة يخشى عليهم من نتائجها (٢) .

وكان غوردون يهدف من وراء تلك الرسائل الى زعزعة ثقة الانصار

---

(١) غوردون الى عبد الرحمن النجومي ٢٣ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج

(٢) غوردون الى عبد القادر ابراهيم ٣٠ ذو القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ب

(٣) المصدر السابق

في انفسهم ، فهم لن يتمكنوا من استلام مقاليد الحكم لانهم لا يملكون السند الديني الدعوة اذ أفتى العلماء بأن محمد احمد لا يمت بصلة من قريب او بعيد الى المهدي المذكور في الكتب السماوية ، وهم لا يملكون السند الاجتماعي لانهم ينتمون لطبقة من الدرجة الثانية ، وهم بالاضافة الى هذا لا يملكون المقدرة العسكرية لمجابهة دولة عظمى تتفوق عليهم كثيرا برجالها وعتادها . لم يدخل هذا الاسلوب الرعب في نفوس الانصار - كما تصور غوردون - بل ساعد على ازدياد حدة التوتر . فقد تأكد لهم انه لن يستجيب لنداء التسليم فشرعوا في ممارسة مزيد من الضغط على المدينة حتى يستولوا عليها عنوة .

امراء المهدى وقادة غوردون :

لعل الاسلوب الذى برز في رسائل غوردون من جهة وامراء المهدى من جهة اخرى كان يعكس فلسفة النظام الذى يمثله كل فريق . ومثلما برز هذا الاتجاه في خطابات غوردون والامراء والمهدى برز ايضا في الرسائل المتبادلة بين رجال الحكومة والانصار . فجاء هذا الذكي نار الاختلاف فيزداد كل فريق تمسكا بموقفه . ولعل من المفيد هنا مراجعة بعض تلك الرسائل وهي تشمل المجموعة المتبادلة بين محمد نصحي باشا ورجال اسطوله المشير المرابط في جهات شندى والمتمة وامراء المهدى المنوط بهم القيام بأمر الدعوة في تلك الجهات . بالاضافة الى خطابات من احمد المصطفى الامين والصديق الطاهر وحامد ولد اد ريس الشايب ، عمال المهدى في منطقة جنوب ام درمان ، الى خشم الموس بك قائد الباشبوزق الشايقيه وعثمان بك قائد طابيه ام درمان .

تميزت هذه الرسائل بظاهرتين ، اولهما انها في جملتها التزمت الموضوعية في النقاش وصيغت باسلوب خال من اى استفزاز اوغلظة في القول . فقد سعى الامراء لكسب رجال غوردون بالترغيب والتأليف . ثانيهما انها حرصت على تأكيد الامان وحسن المصاملة لكل من يعلن مساندته لهم بصرف النظر عما ارتكبه في الماضي في حقهم .

فكتب محمد الخيرعبد الله خوجلي خطابا موجها الى "الملك خشم الموس بك وسعادة محمد نصحي باشا " (١) حاول فيه

---

(١) محمد الخير عامل المهدى لسمو مديرية شندى الى الملك خشم الموس ، جورنال الحوادث .

اقناعهم بأن المهدى ليس بمدع ولا متحيل وانما هو قائم بدعوته رفقـا بالمسلمين ومن اجل انقاذهم من المهالك التي ترددوا فيها ردحا من الزمان ويظهر واضحا هنا تأثر محمد الخير باسلوب المهدى في الكتابة حيث يركـز على تبخيس هذه الحياة الدنيا والاستخفاف بها فهي " ليست بدار البقاء بل هي دار الفناء والعاقل يتزود فيها بالتقوى " (١) ويقول ايضا " انـي ادعوكم بالعباد الله الى الدين الخالص والانضمام الى حزب الله .. وانـه الامام المهدى ومن شك فيه فقد كفر ... لا يدعو الناس الى الرياسـة والجاه انما لعبادة الله " (٢) .

وأكد لهم محمد الخير في كل رسائله حسن المعاملة وعـدم التعرض لهم بسوء متى يتم التسليم " وان سلمتم سلمتم ولكم الامان فـي ذاتكم وممتلكاتكم ونساؤكم ولكم منا الاكرام ومزيد الاحترام ولا يمسكم سـوء ولا مكروه " (٣) .

ولقد كتب امراء شندى وبعض مناجيق الشايقة خطابات مماثلة الى محمد نصحي باشا ومرافقيه اوضحوا فيها ان القضية ليست بأية حال بينهـم وبين قادة الاسطول ، فهم احباب واخوة في الدين وليس هناك ما يدعـوهم

---

(١) محمد الخير عامل المهدى لعموم مديرية شندى الى الملك خشـم الموس جورنال الحوادث .

(٢) محمد الخير الى عبـاد اللـه ، جورنال الحوادث .

(٣) كافة الامراء والمقـاديم الى سعادة محمد نصحي باشا ، جورنال الحوادث .

للاقتتال • ثم حاولوا عرض المشكلة على اساس انها معركة بينهم وبين الانكليز على الفريقين ان يتحدا في مواجهتهم • اما تدالسيم لحملة الانقاذ فأمــــر غير مقبول وينبهونهم في ذات الوقت لما حدث في بلادهم بالقول " يا ايهـــا الضباط والعساكر من بر مصر تذكروا عدوان الانجليز على بلادكم وما حـــدث لعرابي وتملكهم على بلادكم وارضكم واموالكم ••• " (١) •

وقد اعطاهم الامراء ايضا الامان على انفسهم واموالهم ونسائهم • اما قاضي شندى محمد احمد عوض السيد فقد حرر رسالة الى حواره السابـق خشم الموس معبرا فيها عن شفقته عليه لبقائه خارج حظيرة المؤمنين بالمهدية ويدعوه للاسراع بالانضمام مؤكدا له ان هذا سيقابل بالاغتبـاط والترحاب (٢) •

ويبدو ان المهدى كان حريصا على كسب رجال الاسطول لما كان يمكن ان يحققه تأييدهم له من سند مادى ومعنوى ، فقد تمركزوا هناك في ثلاث بواخر تحمل من الجند والذخيرة ما يفيده كثيرا • بالاضافة الى ان اعلان تأييدهم سيفقد الخرطوم هذه الفرقة الاستطلاعية التي كانت بانتظـار حملة الانقاذ • ومن ثم نجد وجه المهدى الخليفة عبد الله ليحرر لهم خطابا ضمن اطار محاولات الاقناع التي كان يقوم بها امراء شندى فوجهه الــى " احبابه في الله المكرمين خشم الموس بك وكافة من معهم من الضبـــاط والعساكر " (٣) ولقد حوت الرسالة مناقشة دينية على نمط تلك التي يجريها المهدى عادة في رسائله • فهو يبشر بزوال الدنيا وفسيرها وحقارة ما فيها من

---

(١) كاتبة الامراء والمقاديم الى سعادة محمد نصحي باشا ،
جورنال الحوادث •

(٢) محمد احمد عوض السيد الى خشم الموس بك ،
جورنال الحوادث •

(٣) الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق الى احبابه في الله ،
جورنال الحوادث

جاه ومال والعاقل من عمل لآخرته لانها دار الخلود الابدى وفي خاتمتها يعطيهم الخليفة الامان على ارواحهم واموالهم .

ووجه المهدي ايضا خطابا الى هذه المجموعة ورغم كل ما ابدوه من تعنت واصرار على موقفهم فما زالوا " احبابه في الله المكرمين خشم الموس بيك ومن معه من الضباط والعسكر بجهة شندى " (١) . وحاول اقناعهم بالترغيب والتأليف دون ان يتوعدهم او يغلظ لهم القول فيقول " ... اعلموا وتحققوا احبابي اني لست قايما هذا المقام الا لدعوة الخلق الى الله وسعادتهم الكبرى ونيل مراتبهم العلى ... ولا اريد جاها ولا غناء ولا مال الا غناء بالله فلا تظنوا انا نطلب اموالكم وما ملكت ايديكم ان سلمتم لنا وصرتم من اصحابنا .. "(٢) ويعدهم " ان سلمتم عفونا عنكم ورضينا عنكم وكنتم من الاصحاب المكرمين الذين لهم عند الله حسن المكانة الابدية "(٣). ولقد جاءت رسالة احمد المصطفى الى " سعادة لوا وقومندان وابورات السفرية محمد نصحي باشا " تحمل كذلك مناقشة لمسألة علاقتهم بالمشكلة القائمة في السودان (٤) . انهم يتعاونون مع الانجليز ضد اخوتهم في الدين مع العلم بأن هؤلاء قد دخلوا بلادهم عنوة واغتصبوا الحكم من " الخديو وسيروه جسم بلا روح " . واختتم رسالته بالوعد ايضا " فأن سلمتم لكم مالنا وعليكم ما علينا وانت واولادك ومالك في ذمتي ولو ضاعت منك ابرة تدفع من بيت المال " .

ولكن محمد نصحي باشا وخشم الموس ومن معهما قرروا تجاهل تلك الروح التي بدت في رسائل الامراء ومقابلتها باسلوب الاستفزاز والتحقير ولم

---

(١) المهدي الى احبابه في الله ، جورنال الحوادث

(٢) المصدر السابق ،

(٣) المصدر السابق

(٤) احمد المصطفى بن الفقيه الامين الى محمد نصحي باشا ، جورنال الحوادث

يفكرا لحظة واحدة في الاستجابة لنداء التسليم ، وكان لقب امراء المهدى السائد في رسائلهم هو "الاشقياء" في حين يوسف المهدى بالدجال تارة والشقي المتمهدى تارة اخرى . خاطبوا الامير احمد حمزة بقولهم " .. نحن لا نقبل مثل هذه المخادعات وتلفيقاتكم هي اوهى من بيت العنكبوت ولا ترسلوا لنا بعد هذا مخاطبات الا اذا كانت بشأن دخولكم في الحكومة ... وان قبلتم نصيحتي دعوا الناس يذ تبروا لمواشيهم " (١) . لم تكن مسألة التسليم واردة على الاطلاق وقد وصفها خشم الموسى بأنها بعيدة " بعد المشرقين " حتى لو وعده المهدى بتنصيبه حاكما على البلاد من اقصاها الى ادناها او وصل اليه كل ما تحويه خزائنه من مال (٢) .

ويبدو ان الشيخ أحمد المصطفى قد درج على الاتصال ببعض سكان المدينة عن طريق الرسائل . فبعث بخطاب الى خشم الموسى بك الذى تربطه به صلة النسب وآخر لاحمد بك على جلاب مدير الخرطوم ، واحد الذين وضعوا توقيعاتهم على العريضة التي بعث بها مجموعة من اعيان المدينة الى المهدى يؤكدون فيها ولاءهم له . سلم خشم الموسى رسالته لغوردون فألحقها بيومياته ولكن يبدو ان جلاب قد اثر الاحتفاظ بها ، وسواء ان بعث اى منهما برد ام لا فهو امر لم يثبت حتى الان .

ركز احمد المصطفى في رسالته لخشم الموسى على الجانب الديني تماما كما يفعل رفاقه . فهذا الامام هو المهدى المنتظر الذى يتوجب على كل المؤمنين اتباعه واعطاؤه زمام امورهم . اما ما يردده علماء الخرطوم فهو

---

(١) خشم الموسى الى احمد حمزه ،
جورنال الحوادث

(٢) خشم الموسى للامراء والانصار بشندى ،
جورنال الحوادث

قول باطل من اساسه ولا يحق للعقلاء الاستماع اليه • وجاء فيها ايضا قوله " ولا زلتم في بالنا حتى سعينا لكم في اخذ الامان وانتم داخل الخصر طلبتم فوجدناه لكم ولاموالكم واولادكم وانفسكم ومن تبعكم صريحا بختم ورسم لا يعقبه مكر ••• وكنت مجتهدة في ادخال تلك البشارة اليكم داخلا فما وجدنا سبيل فاجاب الله دعانا وما خيب رجانا فيكم " (١) ويبدو انه قد فطن الى امكانية الاستفادة من العتاد الحربي الذي يملكه اتباع خشم الموسى داخل المدينة فطلب اليه ان يخرج لملاقاته بما معه من ذخيرة وسلاح اما اذا تعذر ذلك فليترك كل شيء حتى ممتلكاته الشخصية التي بالتأكيد ستسرد اليه عند فتح المدينة •وربما اعتقد الشيخ احمد المصطفى ان تردد خشم الموسى يعود الى تخوفه من انتقام الانصار اذ كان هو احد قادة غردون الذين اشتركوا في عدة عمليات ضدهم فسعد له هذه الثغرة بقوله

" وما جرى بينكم وبين الفقراء بالشرق

لا تخشوا منه فانه لا شأ في عفو الامام عليه السلام وما فعلتوه انتم لا يكون سيأة من سيات صالح المك بقتله لليعقوباب وانتهابه لاموالهم واولاد المكاشفي وسبيه لاولادهم ومالهم مع كونهم اشراف فمع ذلك كلمه الان هو اقرب الناس من الامام وعفى عنه واعطاه صريح الامان فلا تحسبوا لما جرى منكم حسبه فأحضروا الينا ولو سرا " (٢) •

كتب الصديق الطاهر وحامد ولد ادريس الشايب خطابا الى عثمان بك قائد طابية ام درمان ومن معه من ضباط وعساكر اوضحا فيهما ان المعركة ليست ضدهم فهم " اخوان في دين الله وجيران وماكلين عيش وملح"(٣) •

---

(١) احمد المصطفى الفقيه الامين الى خشم الموسى الملك
١٦ ذو القعدة ١٣٠١ (١١ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ح

(٢) المصدر السابـــق •

(٣) الصديق الطاهر وحامد ولد ادريس الشايب الى عثمان بك ،
٢٢ ذو القعدة ١٣٠١ (١٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ى

وحاول الكاتبان ايضا اقناع العساكر المصريين بوجوب تأييدهم للمهدى فقد سبق ان قبل السودان الحكم التركي ردحا من الزمن وعليهم الان ان يقبلوا بالمهدية • بالاضافة الى ان حكم الاتراك قد زال في بلادهم نفسها وآلت الامور الى الانكليز •

وفي الختام وجهوهم للانضمام لمعسكر الشيخ احمد المصطفى حيث يشملهم قرار المهدى الذى نص على ان كل من خرج لملاقاته من ام درمان او العمران مع الشيخ المذكور فسليم على اولاده وامواله امان الله ورسوله •

اما اذا رفضوا بهذا العرض فما عليهم الا تسليم الطابية والتوجه الى وطنهم وستقدم لهم كافة التسهيلات حتى تتم الرحلة بأمان •

بذل امراء المهدى ـ اذن ـ جهدا من اجل اقامة جسر بينهم وبين قادة غوردون عن طريق الحوار الموضوعي والتفاهم المنطقي حول القضية القائمة • وكان يحدوهم الامل في ان يستجيب هؤلاء لتلك النداءات المتكررة وينضوا تحت لواء المهدية • ولكن القادة تمسكوا بموقفهم فعبر بعضهم عن عظيم استخفافه بالدعوة نفسها ، وآثر اخرون الصمت المطبق فلم يكلف نفسه حتى مشقة الرد على الرسائل التي بعثت اليهم •

تمكن غوردون من الوقوف على نوايا المهدي المتعلقة بسياسته نحو البلاد منهما دونها الاصلية دون ان تتعرض لتحريفه او تشويه اذ كانت لديه المعلومات والحقائق التي ضمنها المهدي في الرسائل التي بعثها بها اليه • وقد كان في هذا فائدة جمة ، لان بامكانه ان يقرر على ضوئها ما ينوى اتخاذه من خطوات فيما يتعلق بموقفه الشخصي او بمصير البلاد السياسي بصورة عامة • وكان اتجاه المهدي هذا منسجما تماما مع ما درج عليه في علاقته مع قادة المراكز الحكومية ورؤساء حملاتها العسكرية فلم يستثنى غوردون من هذا • ورغم ان المبادرة جاءت من الاخير الا ان استجابة المهدي كانت سريعة فتوالت خطاباته بصورة منتظمة طوال فترة الحصار فكتب له اخرها قبل اسبوعين فقط من سقوط المدينة •

بعث المهدي لغوردون بثمانية رسائل حملت اولاها تاريخ ٧ جمادى اول (٥ مارس ١٨٨٤) • حيث كان المهدي آنذاك بالابيض (١)• تضمنت تلك الرسالة بوصفها اول اتصال من طرفه وجهة نظره في كافة القضايا المتعلقة بالدعوة موضحا طبيعتها ومراميها بصورة شاملة بالاضافة الى تعليقاته على بعض ما ورد في رسالة غوردون الاولى اليه ، فجاءت طويلة تحوى ١٤٥٠ كلمة تقريبا • وقد بعث المهدي معها " كسوة الزهاد " وحرر لغوردون بضعة أسطر عنها • ولانها كتبت في صيغة الخطاب فقد رأى بعض المؤرخين تصنيفها كرسالة قائمة بذاتها (٢) ثم ارسل المهدي برسالته الثانية من الرهد في شوال ١٣٠١ (بعد ٢٧ يوليو ١٨٨٤)(٣) وتقارب هذه في

(١) المهدي الى غوردون ، انذارات ب ص ١٠٩ - ١٨

(٢) Holt, " The Sudanese Mahdia And the Outside World," BSOAS XXi/2 (1958) pp.276-90.

(٣) المهدي الى غوردون ، النجومي ٢٦

مضمونها الرسالة الاولى ، فهي تحمل شرحا تفصيليا للدعوة وتداء لغوردون لاعلان تأييده فجاءت في ما يقارب ١٢٠٠ كلمة . بدأت مسيرة المهدى الى الخرطوم بعد ذلك بفترة وجيزة ولم يتصل بغوردون حتى وصل الى مشرع القيعة بالقرب من ام درمان فبعث برسالته الثالثة بتاريخ ٢ محرم ١٣٠٢ (٢٢ اكتوبر ١٨٨٤) (١) ذكر المهدى فيها نبأ اغتيال ستيورت وقاتلته واورد مقتطفات من المكاتبات التي كانت بحوزته حتى يجعل غوردون يصدق قوله . ولا بد ان هذه الرسالة قد اثرت تأثيرا كبيرا في نفسية غوردون ، اذ انهار اخر امل له في الاتصال بالخارج لتباين المحولين مما تعانيه المدينة . وبعد ان استقر المهدى في ديم ابي سعد بعث برسالة رابعة تحمل تاريخ ١ صفر ١٣٠٢ (١٩ نوفمبر ١٨٨٤)(٢) ولانها كانت تحمل نبأ وصوله الى الخرطوم فقد توقع ان يهتم غوردون بالرد عليها فبقي زعماء الخمسة اسابيع في انتظار تلك المكاتبة وعندما لم تصل بعث له بأخرى في ٩ ربيع اول ١٣٠٢ (٢٧ ديسمبر ١٨٨٤)(٣) .

كانت استعدادات الانصار قد قاربت نهايتها ولم يعد هناك ما يبرر الانتظار فسارع المهدى ببذل محاولة اخيرة لاقناع غوردون فجاءت ثلاث رسائل متتالية تحمل تواريخ ١٩ - ٢٠ - و ٢١ ربيع اول ١٣٠٢ (٦ ، ٧ ، ٨ يناير ١٨٨٥) (٤) .

---

(١) المهدى الى غوردون ، ملحق ...

(٢) المهدى الى غوردون ، نعوم شقير ص ٨٤٦ - ٧

(٣) المهدى الى غوردون ، اثار / ١٧٨

يؤرخ يوسف ميخائيل هذه الرسالة ١٩ صفر ١٣٠٢ (٧ - ٨ ديسمبر) ، يوسف ميخائيل ، ص ١٦٥ - ٧

(٤) المهدى الى غوردون ، انذارات ب ص ٢٥٢ - ٢٥٣ - ٢٥٤ ، ٢٥١ - ٢

نعوم شقير يؤرخ خطأ اولى هذه ٩ ربيع اول ص ٨٥٦

خاطب المهدى غوردون في كل الرسائل ب " غوردون باشا " مثبتا بهذا القبه الرسمي رغم عدم اعترافه بالالقاب واصداره منشورا يحذر الانصار من استعمالها • الا انه لم يشأ ان يحذفها من اسم غوردون خشية من سوء التفسير • ويضيف الى هذا اعترافه به كممثل للحكومتين المصرية والانجليزية فهو " عزيز بريطانيا والخديوية " (١) • وحرص ايضا في غالبيتها على طلب الدعاء له ليأخذ الله بيده فهو يقول " هداه الله الى الطريق القويم " (٢) و " غوردون باشا وقاه الله كل شر " (٣) و " غوردون باشا هداه الله الى طريق النجاة قبل ان يتلاشى " (٤) •

ولقد أكد المهدى في اولى رسائله الى غوردون حقيقة انه " المهدى المنتظر خليفة رسول الله " (٥) الذى اختاره الله للقيام بهذه الدعوة فهو ليس " بمتحيل ولا مريد ملكا ولا جاها ولا مالا انما انا عبد احب المسكنة والمساكين واكره الفخر وتعزز السلاطين ونبوهم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين وهذا هو الذى صدهم عن صلاحهم واخذ نصيبهم من ربهم ، فاخذوا الفاني وتركوا الباقي واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ورسوله " • (٦) •

ثم اوضح المهدى طبيعة ممنطقى دينيه بحته لا غرض منها سواء

---

(١) المهدى الى غوردون ، انذارات ب١ص ١٠٩ - ١٨

(٢) المهدى الى غوردون ، ملحق ق

(٣) المهدى الى غوردون ، انذارات ب١ص ٢٥٣ - ٤

(٤) المهدى الى غوردون ، انذارات ب١ص ٢٥١ - ٢

(٥) المهدى الى غوردون ، انذارات ب١ص ١٠٩ - ١٨

(٦) المهدى الى غوردون ، المصدر السابق

هداية الناس الى طريق رسول الله وذلك بالابتعاد عن النعيم الفاني والسعي الى النعيم الباقي • ولم يكتف المهدي باثبات هذا بالقول بل دعمه بموقفين برزا في تلك الرسالة • اولهما انه رفض بصراحة ولاية كردفان التي عرضها غوردون عليه في رسالته الاولى " فلا حاجة لي بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا في مال الدنيا ولا زخرفها وانما انا عبد دال الى الله والى ما عنده " (١) • فالسلاطين والملوك ـ في رأيه ـ هم سبب جهنيمة الاسلام لانشغالهم بغير ربهم • وثاني تلك المواقف هو رفضه هدية غوردون التي ارسلها اليه وكتب معلقا " ••• اما الهدية التي ارسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاك الله الخير وهداك الى الصواب واعلم انه كما كتبنا لك اننا لا نرغب متاع الحياة الدنيا وزينتها وانما هي لقصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فها هي مرسوله اليك " (٢) •

ولان الدعوة دينية ، فهو يرفض الاعتراف بغوردون كحاكم على السودان مستندا على الاية " لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء بعضهم اولياء بعض " • فهو يسعى الى اقامة دولة ترتكز على الاسلام يتمكن حاكمها من اصلاح حال المسلمين ولهذا لا يمكن ان تكون الولاية لغير المسلم ، فيرد على غوردون فيما يشبه الاستنكار " فأن كنت شفيقا على المسلمين فبالاولى اشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها وقومها على اتباع الدين الحق باتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فطهر نفسك اولا بالدخول في ملته ثم اشفق على ملته بدخولك سنته فعند هذا فأنت الشفيق ومن غير هذا فما لك من المحققين رفيق ••• " (٣) فالدولة الاسلامية لا يقيمها اذن الا المسلم ، من هنا جاء رفضه لغوردون كحاكم على البلاد وهو

---

(١) المهدي الى غوردون ، انذارات بعض ١٠٩ ـ ١٨

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

مبدئيا وليس شخصيا ، بل لقد كان المهدى يعطي غوردون كشخص بعض الاعتبار فهو يقول له " ... قد سمعنا مرارا فيك الخير " (١) ويذهب الى ابعد من هذا حين يؤكد له امكانية الاعتراف به كوال في حالة اعتناقه الاسلام " ... واعلم انك اذا اتيتنا مسلما نريك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعك في الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك ان رأينا فيك خيرا وصلاحا للمسلمين وليناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد ... " (٢) .

اوضح المهدى اذن ، انه لا يعترف بغوردون كحاكم على بلاد المسلمين وسوف يسعى لوضع نهاية لتلك السلطة بالوسائل السلمية اولا ، وذلك عن طريق تنازل غوردون عنها . وانه لن يقبل حلا وسطا فيما يتعلق بهذا الامر . اما مصير غوردون الشخصي فقد كشف المهدى عن امكانية التفاوض حوله . فهو يقول في اول رسالة له " وبعد هذا البيان ان اتيت وسلمت لي واتبعتني حزت شرف الدنيا والاخرة وفزت باجرك واجر جميع من اتبعك والا هلكت فكان عليك اثمك وآثام جميع من اتبعك " (٣) هنا يشترط المهدى عليه التسليم لكي ينجو بحياته ولكنه لا يطالبه صراحة بالاعتراف بالمهدية او اعتناقه الاسلام (٤) . الا انه في الرسالة الثانية خيره بين الدخول في الاسلام او الهلاك ، وفي ذات الوقت اعطاه وعدا بالابقاء على حياته وحياة من معه وممتلكاتهم في حالة التسليم ، وقد فوض محمد عثمان ابو قرجة لمراعاة تنفيذ هذا الوعد اذا استجاب غوردون للنداء .

ربما فهم منطقيا انه اذا سلم غوردون للمهدى فأنما هذا يعني انه قد اعترف به ليس كحاكم فقط بل بصفته الدينية .

---

(١) المهدى الى غوردون ـ انذارات ـ ص ٢٥٣ ـ ٤

(٢) المهدى الى غوردون ـ انذارات ـ ص ١٠٩ ـ ١٨

(٣) المصدر السابق

(٤) المهدى الى غوردون ـ النجومي ٢٦

ولكن يبدو ان المهدى اراد ان يصنع هذا شرطا صريحا فضمنه في رسالته الثالثة " فان انبت الى الله تعالى واسلمت وسلمت وصدقت بمهديتنا ارسل مخاطبة منك ومن معك جميعا الينا بعد وضع السلاح ورفع المحاربة لنرسل لكم من يؤمنكم وبذلك تحوزوا خير الدارين " (١) • وزاد على هذا انه في حالة الرفض فليس امامهم سواء الاستعداد لحرب من جنـد الله ورسوله وهم بلا شك هالكون فيها كما هلك الذين يفوقونهم عدة وعتادا • وفي هذه الحالة سوف تؤخذ اموالهم وممتلكاتهم واولادهم غنيمة للمسلمين • جاء محتوى بقية الرسائل متشابها في جوهره مع ما سبق ان ذكره المهدى في خطاباته الاولى باستثناء رسالته السابعة والتي ظهر فيها ان تغييرا قـد طـرأ على رأى المهدى فيما يتعلق بمصير غوردون (٢) • فهو ما زال يصـر على تسليم الخرطوم ولكنه يبدى استعداده لضمان حرية غوردون الشخصية اذ يقول " فان اراد الله سعادتك وقبلت نصحنا ودخلت في اماننا وضماننا فهو المطلوب وان اردت ان تجتمع على الانكليز الذين اخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهم فنوصلك اليهم " (٣) • هناك عدة عوامل يبـدو ان المهدى اخذها في الاعتبار عندما قرر ان يتراجع قليلا عن مطالبتـه لغوردون باعتناق الاسلام او الاعتراف بالمهدية ربما كان يسعى في البداية الى كسب غوردون الى جانبه حتى يتمكن من الاستفادة منه في بناء الدولة التي يزمع اقامتها في السودان ولا بد انه سيكون مفيدا له تماما كما هو الحال مع سلاطين باشا وغيره من الاجانب • الا انه تنازل عن هذا الطلب حين تأكدت له انباء وصول الحملة الانكليزية فرأى ان يعرض على غـوردون امكانية تأمين سفره الى حيثما تكون الحملة •

---

(١) المهدى الى غوردون ، ملحق و

(٢) المهدى الى غوردون ، انذارات ب، ص ٢٥٣ _ ٤

(٣) المصدر السابق

وتوقع المهدي ان تعود الحملة من حيث اتت في حالة قبول غوردون للعرض لتجنيبهم - بالتالي - اراقة المزيد من الدماء • ثمة عامل آخر ايضا ، ربما اخذ المهدي في الاعتبار تمسك غوردون بدينه وتعصبه له مهما كلفه الامر ، وقد وضح هذا جليا في تجاهله التام للنداءات المتكررة التي وجهت له في عدة رسائل لاعتناق الاسلام كي ينجو بحياته • فأيقن المهدي في تلك المرحلة من الحصار ان غوردون لن يسلم حتى لو كان في هذا فقدان حياته فأثر ان يتخلص منه ويأمن شر الحملة •

ومثلما كان الحال بالنسبة للمهدي فقد اتخذ غوردون الرسائل وسيلة للاتصال به الا ان عدد الخطابات التي بعث بها غوردون الى المهدي ما زال خاضعا لاجتهاد المؤرخين ، فلقد تضاربت روايات المصادر حول هذه وتباينت • فهناك نسخة عربية لرسالة واحدة هي اولى رسائل غوردون الى المهدي والتي حفظت ضمن مجموعة المسلمي (١) • كما ان هناك نسخة من رسالة برقية بعث بها غوردون الى فرج الله بك وطلب منه نقلها الى المهدي وقد ارفقت باليوميات (٢) • الا ان نصحي باشا اورد في تقريره ترجمة لرسالتين اخريتين ، وذكر ان غوردون قد بعث بالاولى في مارس ١٨٨٤ بعد تسلمه لرد المهدي على خطابه الاول • ولقد اختار نعوم شقير الثانية وجاء بالنص العربي لها وذكر انها ارسلت كرد على رسالة المهدي التي تحمل تاريخ ١٩ نوفمبر ١٨٨٤ (٣) • ولا بد للقارئ ان يخضع رواية التقرير للتأمل اذ لا توجد اصول لاي من هذه • ربما فقدت الاولى باعتبار انها ارفقت مع يوميات ستيورت لان غوردون قد كتبها قبل ١٠ سبتمبر ، تاريخ مغادرة ستيورت للمدينة ، ولكن اذا كان تاريخ شقير صحيحا

---

(١) غوردون الى المهدي ، ١٢ ربيع اول ١٣٠١ (١٠ فبراير ١٨٨٤) فيوضات ج ١/ ١٥١ •

(٢) غوردون الى فرج الله بك ، ٢ محرم ١٣٠٢ (٢٤ أكتوبر ١٨٨٤) ملحق لـ

(٣) نعوم شقير ، ص ٨٤٧

فالملحاق الثانية بيوميات غوردون كما فصل مع بقية الرسائل التي وصلته اثناء تسجيلها كان امرا متوقعا • الا ان كونه لم يفصل لا ينفي حدوث الرواتحة ، فربما ابعدها لسبب اوآخر ولكني اميل الى الاعتقاد بأن نحوم شقير قصد اخذلها في تاريخه وان غوردون اساسا لم يبعث بتلك الرسالة وانما بعث فقط بالبرقية المشار اليها سابقا • واقد درج مؤلفو التقرير على ذكر نصوص رسائل معتمدين على معلومات سماعية فلعل ولعلهم لهذا نقلوا برقية غوردون مع بعض التحريف على اساس انها رسالة •

ولكن هناك دلائل اخرى تشير الى خطابات بعث بها غوردون الى المهدى بالاضافة لتلك التي وردت في التقرير وما زالت اصولها او نسخ منها مفقودة •

جاء في احدى رسائل المهدى لغوردون قوله " وقد بلغني من جوابك الذى ارسلته الينا انك قلت ان الانكليز يريدون ان يفدوك وحدك منا بعشرين الف جنيه " (١) فربما تكون الاشارة هنا لرسالة ما زالت مجهولة الحقائق • الا ان الاحتمال الثاني ، ان يكون الخطاب المعني هو ذاك الذى بعث به غوردون الى عبد القادر ابراهيم وعرض فيه استعداده لدفع عشرة الف جنيه مقابل اطلاق سراح الاسرى من الاوربيين (٢) • ولعل الخلط في المعنى مرده رداءة خط واسلوب ذلك الخطاب •

ولكن المهدى يشير في آخر رسالة كتبها الى غوردون الى خطاب وصله منه فهو يؤكد له ان "جوابك رد المحرر منا وصل الينا وفهمنا مضمونه" (٣)

---

(١) المهدى الى غوردون ٢٠ ربيع اول ١٣٠٢ (٧ يناير ١٨٨٥) انذارات ب٥ص ٢٥٣ ، ٤

(٢) غوردون الى عبد القادر ابراهيم ، بعد ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) . ملحق ٣ •

(٣) المهدى الى غوردون ٢١ ربيع اول ١٣٠٢ (٨ يناير ١٨٨٥) ، انذارات ب٥ص ٢٥١ — ٢

فاذا كان غوردون قد بعث بخطاب للمهدى قبل اسبوعين تقريبا من سقوط المدينة ، فاحتمال ان يكون قد بعث برسائل اخرى قبل ذلك التاريخ غير مستبعد على الاطلاق .

كشفت رسالة غوردون الاولى انه كان يسعى لمعالجة المشكلة في بادئ الامر بدبلوماسية بهلا استفزاز دون ان يتورط في شيء ، فخاطب المهدى باحترام وكأنه احد رجال الصوفية " مولاى السيد محمد احمد بن عبد الله " (١) . لم يكن تفادى غوردون لذكر لقب المهدى سهوا بل كان على الارجح . امرا مقصودا . وقد ركز في تلك الرسالة على الجوانب السياسية للازمة متجاهلا عن عمد الصبغة الدينية التي عرفت بها الثورة .

ولعل الموقف الذى اتخذه غوردون تجاه الانصار طوال مدة الحصار بدأ في تلك اللحظة التي خط فيها رسالته الاولى للمهدى . فهو لم يأت للبلاد في مهمة مؤقتة بل جاءها كحاكم صاحب سلطة شرعية لم يبده أى استعداد للتنازل عنها قيد انملة . ولكي يدخل شيئا من الرهبة في نفس المهدى ذكر له انه جاء منتدبا من قبل حكومتي دولتين عظيمتين هما مصر وبريطانيا ليتولى شؤون البلاد ويتمنى اليه بهذه الصفة موافقته لتنصيبه سلطانا على كردفان .

لم يتطرق غوردون من بعيد او قريب الى طبيعة مهمته ، ولم يشر الى انه جاء من اجل اخلاء الحاميات والمدنيين ولو فعل هذا منذ البداية ربما كان في الامكان رؤية صورة مغايرة تماما لاحداث تلك الفترة .

وعندما استلم غوردون رفض المهدى المكتوب للسلطنة في مارس ١٨٨٤

---

(١) غوردون الى المهدى ، ١٢ ربيع اول ١٣٠١ (١٠ فبراير ١٨٨٤) فيوضات ج ١/ ١٥١ .

" استشاط غضبا وركل كسوة الزجاد برجله " (١) وفي حينه حرر خطابا بما اختفى فيه اسلوب التحفظ المعتذر الذي ظهر في الخطاب الاول واستعاض عنه باسلوب الاستفزاز المباشر فهو يدعوه " محمد احمد المتمهدى " (٢) .

وقد اكد في هذا الخطاب ولايته على السودان مرة اخرى ووضع امام المهدى خيارين فأما ان يقبل منصب السلطان او يجهز نفسه لحرب لا هوادة فيها ستقضي بالتأكيد عليه وعلى رجاله .

ويبدو أن المهدى لم يلق بالا لتهديدات غوردون فواظب على ندائه له ليضع حدا للمشكلة بلا اراقة مزيد من الدماء . تجلت استجابة غوردون في قوله " انا لا يمكن شوف كلام محمد احمد زيادة عن الرصاص " (٣) فكشف بهذا عن تصميمه على القتال سوى ان جاءت تجدة لمساعدته او لم تأت وهو يدعو انصار المهدى صراحة الى التقدم نحو خطوط النار الرئيسية لملاقاة جنوده .

ولم تبد في أى رسالة منه اشارة الى انه ربما يقبل تسوية سلمية يمكن التفاوض حول اسسها ، خاصة وان المهدى ابدى استعداده لاخلاء سبيله وتأمين سفره الى حيثما تكون القوات الانجليزية ، وكان بالامكان اجراء مشاورات تهدف الى تأمين سلامة الاهالي من جند ومدنيين واحل التخوف من ردود فعل انتقامية لا اساس له الا سيئ ان قاتل افراد حامية الابيض

---

(١) . . Nushi Pasha, p.31.

(٢) المصدر السابق ، ص ٣٢

(٣) غوردون الى فرج الله بك ، ملحق ك

الانصار بضراوة وانزلوا بهم من الخسائر ما يفوق كل ما انزله بهم جنود حامية الخرطوم طوال مدة الحصار ومع ذلك لم يفقد اى منهم حياته عند التسليم •

بالاضافة الى هذا فقد جاء في احدى رسائل المهدى تأكيدا لاهالي الخرطوم بأنه على استعداد لنسيان الماضي وقبولهم بين رجاله متى ما اعلنوا تأييدهم له فهو يخاطبهم بقوله " ••• وحيث فهمتم ما ذكر فأني لا اواخذكم بما فات منكم ولا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين فأنيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب بغتة وانتم لا تشعرون وعليكم امان الله ورسوله وامان العبد لله وليس عليكم حرج فيما مضى وغايته ان من سلم سلم ••• ولا تخشوا من شيء يحصل عليكم فأننا منتظرون منكم ايه قوله تعالى (واذا جاءك الذين يؤمنون بايتنا فقل سلام عليكم) •• " (١)

لقد اراد غوردون كسر شوكة المهدى وهذا هو الامر الذى أقعده عن تسليم المدينة فأتخذ موقفا عدائيا منه منذ البداية على اساس انه هو صاحب الحق والسلطة وما المهدى الا متمرداً خارجاً على القانون يتوجب اخضاعه من اجل الحفاظ على سيادة الدولة وهيبتها • وقد اتخذ هذا الموقف رغم انه لم يكن يملك مقدرات الانتصار وكان يعلم ان المعركة تتحول تدريجيا في مصلحة الانصار وقد ت محاولته لصد هم مغامرة محفوفة بالمخاطر •

---

(١) المهدى الى اهالي الخرطوم انذارات ب ٥ ص ٢٥٥ — ٦

الفصل السابع

عمليات الحصار و سقوط الخرطوم

ما ان حل شهر مارس حتى تأكد لغوردون ان سياسته السلمية التي كان يأمل انها ان تنجح في كبح جماح الثورة قد اصبحت اضغاث احلام • لم تعد انباء النشاط الذى يقوم به الانصار في كل المناطق الممتدة من الخرطوم جنوبا حتى القطينه وسنار وشمالا حتى بربر هي مجرد شائعات ينقلها المسافرون والرواة بل حقائق سجلها معاونيه وبواخره الاستطلاعية • وقد انهارت آخر آماله في تنفيذ تلك الخطة بوصول رسالة المهدى الاولى اليه التي اوضح فيها رفضه لسلطنة كردفان وان ليست ثمة شيء يقعده عن مواصلة سيره نحو الخرطوم • فأما ان يقتنع غوردون بصدق الدعوة وينقذ نفسه ومن معه بتسليم المدينة للانصار والا فان " حزب الله واصل اليك ومزيل لك عما شاركت به خالقك فاستدعيت ملك عباده وارضه مع ان الارض لله يورثها عباده الصالحين " (١) وهو لا يأتي للخرطوم ليقتسم الاسلاب مع غوردون او يتفاوض معه بل ليستولي عليها وبالقوة اذا اقتضى الامر • ثم يختتم المهدى الرسالة بقوله " ••• وبعد هذا البيان فأن اهتديت وسلمت لي واتبعتني حزت شرف الدنيا والاخره وفزت باجرك واجر جميع من اتبعك والا هلكت فكان عليك اثمك ومثل آثام جميع من اتبعك " •

الا ان تفكير غوردون لم يتجه ولو للحظة عابرة نحو تقديم الخرطوم لقمة سائغة للانصار فاذا اصبح الاستيلاء عليها بواسطتهم قدرا لا مفر منه فليتم ذلك عنوة وبعد لأي • فباشر من توه في اجراء مزيد من الاستعدادات الدفاعية تحسبا لاى هجوم قد تشنه فرق الانصار المرابطة حول المدينة وتأهبا لوصول المهدى •

---

(١) المهدى الى غوردون ، ٧ جمادى اول ١٣٠١ (٥ مارس ١٨٨٤)
انذارات ٩/٥ص ١٠٩ — ١٨

حاول غوردون استغلال ما لديه من امكانيات الى اقصى الحدود فلم تكن المدينة تملك من الموارد البشرية والمادية التي تستخدم في الحروب الا النزر اليسير • كانت هناك حامية بالفعل الا انها كانت تعاني من عدة نقائص وقفت عائقا امام خلق شبكة دفاعية فعالة • وكانت هناك ايضا مجموعة من البواخر التي ادخل عليها غوردون من الوسائل ما اهلها لخوض المعارك الحربية ، الا ان الظروف التي صاحبت تطورات الحصار قد شلت من حركتها الى حد بعيد كما سيوضح فيما بعد •

حامية الخرطوم :

اشتملت الحامية على خليط من الجند المصريين والسودانيين النظاميين والاتراك والشايقيه غير النظاميين بالاضافة الى المتطوعين (١) وقد قدر عددهم بعد انسحاب حاميتي الدويم والكوه الى الخرطوم في ٣ يناير ١٨٨٤ ب ٦١٠٠ جندي (٢) ولقد اتجه تفكير غوردون عند وصوله في ١٨ فبراير ١٨٨٤ الى سحب حاميات سنار وبعض المراكز الصغيرة المتناثرة في الجزيرة الى الخرطوم • الا ان وقوع الحصار في كل من الخرطوم وسنار اضطره الى الغاء ذلك المخطط (٣)

كانت العقبة الرئيسية التي تشل مقدرة الحامية الى حد كبير في الدفاع عن المدينة هي عددها ، اذ كان خط النار طويلا يحتاج الى ما لا يقل عن ١٢٠٠٠ رجلا لحمايته (٤) ولقد سبق ان ابرق الكولونيل دي كتلوجن سلطات القاهرة قبل وصول غوردون موضحا ان حامية الخرطوم لن تستطيع ان تحمي هذا الدفاع حتى لو تضاعف عددها الحالي (٥)

---

(١) نعوم شقير ، ص ٧٦٦

(٢) Nushi Pasha, p.5.

(٣) ذكر نصحي باشا ان غوردون كون لجنة لتقرير في هذا الامر فأوصت بترك حامية سنار في موقعها •

(٤) The Times, 4th January, 1884.

(٥) Leverson, " Insurrection of the False Prophet "

بل ان بعض الناس كانوا يتشككون فيما اذا كانت الحامية بكامل قوتها ستتمكن من حفظ الامن بصورة عادية في المدينة (١)٠

كان هؤلاء الجند يفتقرون الى الحد الادنى من التدريب العسكرى الذى يؤهلهم الى تنفيذ اى عمليات حربية ناجحة ٠ ويلاحظ ان تكوين هذه الفرق قد تم بصورة عاجلة عند مجيء عبد القادر باشا حلمي ٠ فقد اضطر لترحيل جنود الحامية للاسهام في العمليات العسكرية في منطقة الجزيرة ٠ ونسبة لقلة عددهم فقد قام بتجنيد ثلاث اورط من السود واستدعى ستة اورط من الجنود النظاميين من السودان الشرقي ٠ ويبدو انه استعان بالاشداء منهم في العمليات التي شنها ضد اعوان المهدى اما البقية فلقد ناطوا بها مسئولية الدفاع عن الخرطوم ولم تكن تتمتع بأى مقدرة عسكرية بل وصفت بانها " بقايا جيوش ٠٠٠ " اغلبهم من العجزة والعميان "(٢)

ولم يكن هذا الموقف خافيا على مسئولي القاهرة ، اذ كان يبرنج على علم بضعف حامية الخرطوم وبافتقار رجالها الى التدريب فوصفهم بأنهم مجموعة ضعيفة من الجند الذين لا يمكن الاعتماد عليهم (٣) ٠

بالاضافة الى هذا لم تكن مسألة اخلاصهم وتفانيهم في خدمة الحكومة امرا فوق الشبهات ، فهذا خليط من الجند يعلمون تماما ان الدفاع عن المدينة فوق طاقتهم لقلة عددهم وضعف خبرتهم الحربية ٠ ولا بد ان يكون هدفهم من الجندية هو الاسترزاق اكثر منه العمل المخلص لهدف معين ، نعرف ان غالبية تلك الجند لم يكونوا يدينون بالولاء للحكومة ولا يمكن الاعتماد عليهم حتى للحفاظ على الامن الداخلي ٠(٤)٠

---

(١) The Times, 4th January 1884.

(٢) خطاب دى كتلوبين الى ايفلين بيرنج في القاهرة ، نشر في التايمز ١١ فبراير ١٨٨٤

(٣) نشر هذا التعليق في التايمز ١١ فبراير ١٨٨٤

(٤) The Times, 21st January 1884.

كانت الدوائر الحاكمة في كل من الخرطوم والقاهرة على يقين تمام انه اذا شن الانصار هجوما على المدينة سيستحيل على الحامية صده (١) ، الا ان غوردون تجاهل هذه المعلومات ووطد عزمه على الاحتفاظ بالخرطوم مهما كلفه هذا الامر .

ربما يتبادر الى الذهن ان غوردون اتخذ ذلك الموقف باعتبار ان سندا عسكريا لا بد سيأتيه من الخارج . الا ان هذا التقدير لم يكن يستند على اساس ، اذ سبق ان اخطر رسميا ولم يمض على وصوله الخرطوم اكثر من شهر واحد في رسالة بعث بها بيرنج اليه وآخرها لوزير الخارجية البريطانية فحواها ان ليست ثمة نية في ارسال قوة عسكرية للسودان (٢) ، كذلك رد جرانفيل على هذا برسالة يؤيد فيها رأى بيرنج وموضحا ان الحكومة البريطانية ستعارض اى قرار تتخذه الحكومة المصرية بارسال قوات للسودان الا انها قد توافق على ايفاد قوة مصرية الى سواكن بشرط ان يكون هذا ممكنا من الناحية الصحية واذا رأى سردار الجيش المصرى أى . وود بأنه عمل حادف (٣) ولم تكن الحكومة البريطانية على استعداد للموافقة على ارسال قوات للسودان حتى وان كانت بهدف المساعدة في تأسيس حكومة موالية لمصر هناك ناهيك عن قوة تصطدم عسكريا مع المهدى . ومن ثم اوضحت بريطانيا انه يمكن ارسال فرقة لبربر اذا رؤى انها ضرورية لانقاذ حياة غوردون وانها ستلتزم بتنفيذ هذا الامر فقط (٤) . ولقد كان هناك خلاف حتى على ارسال هذه القوة اذ ان صغر حجمها سيعرضها لاخطار جمة في حين كان ارسال قوة كبيرة امرا مرفوضا على الاطلاق من جانبهم (٥) .

---

(١) The Times, 11th February 1884.

(٢) بيرنج الى جرانفيل ١١ مارس ١٨٨٤ ، Egypt, 12, No.234

(٣) جرانفيل الى بيرنج ١١ مارس ١٨٨٤ ، Egypt, 12, No.255

كان هدف حملة سواكن التي ارسلت فيما بعد دفاعي فقط ، فأعطى قائدها تعليمات مشددة بالا يتعرض للانصار بهجوم او يحاول فتح الطريق الى بربر او يشق طريقه للخرطوم بأى حال .

(٤) جلادستون الى جرانفيل ١٦ مارس ١٨٨٤ BM, Add,MS44176,

(٥) جرانفيل الى بيرنج ١٦ مارس ١٨٨٤ ، Egypt, No.12, in No.255

فاذا كان غوردون ملما بهذه التفاصيل فهناك احتمالان لتفسير موقفه ، اما انه قرر بصفة جازمة الاستعانة بالقوات التي تحت تصرفه للتصدى للانتصار في هذه المواجهة ، واما ان الامل كان ما يزال يراوده في ان الحكومات التي اوفدته قد ترضخ اخيرا لرغبته وتبعث له بحملة تنقذ المدينة من براثن المهدى .

كانت حامية الخرطوم تتكون من ثلاث اورط من السود ، كل اورطة تضم حوالي ٩٠٠ رجلا وكانوا جميعا تحت قيادة فرج بك الزيني (١) وقد انعم غوردون على فرج بك برتبة الباشوية وعينه قائدا عاما للقوات لانه من قلائل الضباط الموجودين في المدينة من ذوى الخبرة العسكرية رغم انه قد عرف بميله المعقوق ، فقد عمل في مصر قبل ثورة عرابي وقام بتحريض ضباط الالاى السوداني على التمرد عام ١٨٨١ الا ان الجند كشفوا امره . فشكلت له وزارة الجهادية المصرية محكمة عسكرية حكمت عليه بالنفي الى السودان ، ولكن رؤوف باشا الحقه بالجيش المصرى مرة اخرى عند ولايته للبلاد (٢) ورغم ان كثيرا من ضباط غوردون قد قاتلوا الانصار عند دخولهم المدينة حتى سقطوا في الميدان الا ان فرج بك كان ضمن اولئك الذين تخلوا عن بزاتهم العسكرية ويمموا وجوههم صوب الصحراء .

كانت هناك ايضا ثلاث اورط من الجنود المصريين الذين سبق واجلاهم غوردون الى ام درمان تحت قيادة محمد نصحي باشا تمهيدا لارسالهم لمصر ، ولكنه ارجع اثنين منهم الى الخرطوم وعين ابراهيم بك فوزى قومندانا عاما للقوات المصرية . واوكل ليوسف افندى عفت رفيع بك على قيادة كل اورطة منفصلة . كان الباشبوزق من الشايقية والاتراك يشكلون اثنين وثلاثون فرقة تضم الواحدة الستين رجلا تقريبا . فوضع الاتراك تحت قيادة

---

(١) Nushi Pasha, p.149.

(٢) محمد عبد الرحيم ، ص ١١

السعيد باشا حسن الجهيهابي ومعاونه حسين باشا ابراهيم الشلالي (١) .

الا ان هذين الضابطين قد اعدما في اوائل ايام الحصار لاتهامهما بالتآمر مع الانصار من اجل انزال الهزيمة بقواتهما عمدا . تضاربت الروايات حول حقيقة هذه التهمة ، اذ تقول احداها ان الضابطين بريئان وقد اختلق التهمة فرج باشا الزيني الذى كانت بينه وبينهما ضغائن قديمة (٢) وتقول رواية اخرى ان التهمة صحيحة وقد اثبتها عليهما الجنود (٣) الا ان الروايتين تتفقان في ان الحكم قد نفذ سرا ، الامر الذى يلقي بعض ظلال من الشك على ان التهمة لم تكن ثابتة بشكل قاطع فتخوف غوردون من اعدامهما علنا .

ثم عين غوردون خشم الموسى بك قائدا للشايقية الباشبوزق وعبد الهادى حسن على رأس قوة من المتطوعين بلغ قوامها السبعمائة رجلا (٤) .

تحصينات المدينة :

كان عبد القادر باشا حلمي اول من بنى تحصينات للخرطوم في مايو ١٨٨٢ اثناء ولايته على السودان ، فشيد خندقا نصف دائرى يمتد حول المدينة من الشرق الى الغرب .(٥) وقد استعان في هذا

---

(١) Nushi Pasha, p.15.

(٢) محمد عبد الرحيم ، ص ١٠ - ١١

(٣) ابراهيم البورديني ، ص ٢

(٤) Nushi Pasha, p.149

(٥) نعوم شقير ، ص ٦٧٣

يطابق خط الدفاع في الخرطوم الحديثة الشارع الدائرى (شارع الشريف الهندى) الممتد من غابة الخرطوم الى كبرى برى ومن هنا تأتي تسميته القديمة (شارع الطابيه) .

بالضابطين احمد ثابت واخيه محجوب وهما من اصل مصرى ولدا بجهسات دنقلا • ثم قام دى كتلوجن بتقوية وسائل دفاع المدينة أثر فعل مباشر لهزيمة هكس باشا في آخر عام ١٨٨٣ • فحفر خنادق جديدة وزاد من عمق القديمه وشيد عدة طوابي على طول خط النار (١) فبلغ طول الخندق ٥٩٠٠ ياردة في زمن فيضان النيل الا انه كان يمتد الى الف يساردة اخرى عند انحسار • وبلغ عمقه ٨ اقدام وعرضه ١٧ قدما في المسطح و ١٠ أقدام في قاعدته •

ثم رأى غوردون عند وصوله ضرورة تقوية التحصينات ، فزاد مرة اخرى من عمق الخندق حتى بلغ ١٨ قدما وشيد سورا من الداخل واقام فوقه حائطا بلغ ارتفاعه خمسة اقدام وفتح فيه المزاغل • وقام ايضا بربط الجسر الغربي من الخندق بسلك شائك مع شاطيء النيل الازرق ، ثم اتى ببعض المراكب محملة بعبوات ناسفة وربطها مع هذا السلك لتملأ الفراغ الذي يخلفه انحسار ماء النيل (٢) •

ولقد تخللت خط الدفاع جملة من الطوابي المسلحة بالمدافع (٤) : كانت هناك طابية الكلاكلة في اقصى الغرب تليها طابية المسلمية • وتجاور كل منهما بوابة عرفت باسميهما • وفي اقصى الشرق قامت طابية برى ببوابتها الا ان هذه ظلت مغلقة منذ بداية الحصار • وقد وجه غوردون ستيورت باشا وخليل افندى فوزى للاشراف على بناء طابية اكبر في مكان طابية برى القديمة • وفي شمال المدينة توجد طابية في شكل مبنى ذى طابقين عرف بقصر راسخ او السرايا الشرقية ، وهناك ايضا طابية بالمقرن واخرى بام درمان •

---

(١) Cuzzi, p.45.

(٢) اسماعيل بن عبد القادر ص ٢٢٧

(٣) Nushi Pasha, p.20

(٤) Leverson, " Insurrection of the False Prophet "

ونشر غوردون الاعمدة الخشبية ذات الرأس المدببة على بعد عشرين مترا خارج التحصينات ووضع العبوات الناسفة السريعة الانفجار حول جميع الطوابي (١) كما وان براميل المياه الفارغة قد ملئت بالديناميت ووضعت في النقاط الضعيفة من خط الدفاع ووزعت الالغام في جزيرة توتي وخورشمبات ومنطقة الحلفاية (٢) .

بداية العمليات العسكرية :

كان غوردون بلا شك يتأهب لخوض معركة عسكرية ولا تشير الدلائل الى انه فكر في الانسحاب او التسليم . وكان الانصار في ذات الوقت لا يقلون عن غوردون حماسا فيما يتعلق بالاستعداد الحربي . فلقد وطد الشيخ العبيد عزمه على تنفيذ توجيهات المهدي التي حواها خطابه اليه فشرع انصاره في القاء حصار على المدينة من جهة الشرق وقطعوا اسلاك التلغراف وبدأوا في اطلاق قذائفهم على طابية قصر راسنج (٣) ثم تقدموا حتى وصلوا موقع الصبابي المتاخم لمنطقة الحلفاية فتخوف غوردون من احتلالهم لها ، فارسل قوة من الشايقية في ١٢ مارس ١٨٨٤ للسيطرة عليها الا أن ابراهيم العبيد تصدى لهم مع اتباعه وانزل بهم هزيمة ساحقة . فسارع غوردون لانقاذهم بارسال باخرة محملة بالجنود تحت قيادة ابراهيم بك فوزى (٤) وبعد معركة دامت اكثر من ساعة انهزمت قوة غوردون وتمكن الانصار من اسر مائة وخمسين من افرادها وغنموا كثيرا من الاسلحة والذخيرة (٥) .

---

(١) Nushi Pasha, p.34.

(٢) Ibid.

(٣) ابراهيم فوزى ، ص ٣٠٢

(٤) ابراهيم البورديني ، ص ١

(٥) المهدى الى محمد خالد ٤ جمادى اول ١٣٠١ (٣ مارس ١٨٨٤) رقم ٣

هذه المعلومات متضمنة في حاشية الرسالة التي تحمل تاريخ ٨ جمادى ثاني (٦ ابريل) تم تغييرها خطأ ١٨ جمادى ثاني ، ص ٢٧٦

وبما ان الحلفاية كانت منطقة استراتيجية بالنسبة للخرطوم فقد عزم غوردون على استردادها . فأرسل قوة في ١٧ مارس ١٨٨٤ مؤلفة من اربع فرق من الجهادية والباشبوزق ، ثلاث منها تحت قيادة الضباط السودانيين السعيد باشا حسين وحسن باشا ابراهيم الشلالي ومولى بك سعيد الرباطابي وتقدموا اواء الرابعة لميترا اغا التركي (١) فعبرت هذه القوة النيل الازرق واشتبكت مع الانصار في موقع عرف بجليفلر (٢) . وقد جاء وصف هذه المعركة في رسالة بعث بها الشيخ العبيد ود بدر للمهدى الا ان هذه الرسالة ما زالت مجهولة المكان . ولكن المهدى نقل محتوياتها في خطاب بعث به لمحمد خالد زقل يقول فيه " ... وكذلك بيوم الاحد الموافق ١٨ جمادى اول ١٣٠١ في ساعة الضحى خرجت اليه جردة تمارى اربعة الاف من قيقسو قصر راسخ بالشرق فتقاتلوا مع المذكورين فهزموهم في اقل من نصف ساعة وقتلوا منهم اربعمائة نفر واستلموا منهم مدفع وجبخانه اربعة جمال والشهداء من الانصار عشرون شهيدا " (٣) وقد كان بين القتلى مولى بك احد قادة الفرق الاربعة - واخوه فضل الله (٤) .

استمرت بعد ذلك المناوشات بين الفريقين الى ان وصل اول فوج من الجيوش التي بعث بها المهدى من الغرب بقيادة محمد عثمان ابو قرجة في مايو ١٨٨٤ (٥) .

وكان المهدى قد عين ابا قرجه اميرا على القوات المحاصرة

---

(١) ابراهيم البورديني ، ص ٢
محمد عبد الرحيم ، ص ١٠ ، هذه هي المعركة التي اتهم فيها السعيد باشا حسين وحسن باشا ابراهيم بالتواطؤ مع الانصار .

(٢) مكان مركز بوليس الخرطوم بحرى الحالي

(٣) المهدى الى محمد خالد ٤ جمادى اول ١٣٠١ / ٣ مارس ١٨٨٤) الحاشية بتاريخ ٨ جمادى ثاني (٦ ابريل) ، زقل ٣ .

(٤) ابراهيم البورديني ، ص ٢

(٥) اسماعيل بن عبد القادر ، ص ٣١٢

المدينة في وقت ما قبل ٣ مارس ١٨٨٤ • ورغم ان خطاب التعيين لـم يأمر له اثر بعد الا انه ذكر في رسالة لمحمد خالد زقل انه قد عيـن أبو قرجه " اميرا لقوات البحر " (١) • كما انه يشير لذات الامر فـي خطاب بعث به لمحمد الطيب ود البصير •

تخوف المهدى من ان لا يقابل تعيين ابي قرجة اميرا للقـوات المحاصرة بترحاب من ود البصير اذ كان هذا الاخير من انسبائه الذين شهروا السلاح في وجه الحكومة في مطلع ايام الدعوة • فلا بد اذن ان يسوءه اسناد القيادة في منطقته لشخص غيره فبعث له المهدى برسالة يبرر فيها هذا التعيين فقد وضح ان بعض الاهالي ما زالوا يجهلون حقيقـة الدعوة فتباطأوا في الانضمام اليها ، ولكي يتجنب المهدى استخـدام القوة ضدهم ارسل ابا قرجه ليجادلهم بالتي هي احسن (٢) وربما يتعذر لود البصير القيام بهذا الدور لانه سبق ان اشتبك معهم في عدة مناوشـات دموية ستقف بلا شك عائقا في سبيل ابرام تسوية سلمية • ويلاحظ ان المهدى سبق ان وجه رجال الشكرية واتباع العبيد ود بدر بالعمل مع ود البصيـر ولكن كلا الفريقين قد تردد في تنفيذ هذا • كما ان صالح المك الـذى ابدى استعداده للتسليم رفض ان يتم هذا على يد ود البصير ، فآثر المهدى على ضوء هذه الوقائع ان يبعث بقائد لا تربطه بأهالي المنطقة ضغائـن او احقاد ، وكتب في ذات الوقت لود البصير حتى لا يفقد وده وتعاونه • ولم يأبه لشرح الموقف لقادته الاخرين امثال العبيد ود بدر وعبد القادر ابراهيم ربما لان تاريخهم في المهدية ما زال قصيرا • فقد ظل ارلهما على الحياد حتى اول عام ١٨٨٤ حين تأكد له ان المهدى منتصر بلا ريب فاعلن الولاء له

---

(١) المهدى الى محمد خالد ٤ جمادى اول ١٣٠١ (٣ مارس ١٨٨٤) زقل ٣

(٢) المهدى الى محمد الطيب البصير بعد ٨ جمادى ثاني ١٣٠١ (٦ ابريل ١٨٨٤) فيوضات ٣/ ٥٠

اما الثاني فقد كان اكثر ايجابية ، تبقى على تأييده للحكومة واقام بسد اخل الخرطوم حتى وصول غوردون ، ولكن عندما اتضحت له حقيقة مشاعر الاعالي غادرها نهائيا الى قرية الكلاكله . لم يكن اي منهما اذن في موقف يمكنه من استنكار عقد لواء قيادة المنطقة لقائد عريق مثل ابي قرجة .

اصطحب ابو قرجة اربع فرق من جنود كردفان باسلحتهم النارية بالاضافة الى ذوي الاسلحة التقليدية الذين تزايد عددهم بوصوله الى شواطئ النيل الابيض خاصة في منطقة القطينه حيث تقيم عشيرته . وما ان حط رحاله بالقرب من الخرطوم حتى بعث برسالة لغوردون يطلب منه التسليم (١) . وانه كشف بهذا التزاما بالمنهج الذي يتبعه المهدي في مثل هذه الظروف، فهو يستعد للحرب الا انه يحذر الطرف الاخر ويقدم له فرصة اخيرة لحل النزاع سلميا .

وعندما تجاهل غوردون النداء ايقن ابو قرجه انه لا يضمر شيئا سوى الحرب ومن ثم شرع في وضع الترتيبات النهائية لمواجهتها . وكان قد عسكر عند وصوله في منطقة الجريف الا ان بعض اعوانه نصحوه بأن بري قد تكون اكثر استراتيجية فارتحل اليها وكان اول من شيد الطوابي المضادة لحصون الخرطوم هناك (٢) . ثم وضع عليها المدافع واقام الابراج وما ابثت ان اصبحت مراكب غوردون هدفا لقذائف الانصار يطلقونها عليها من وراء تحصيناتهم وهي في طريقها الى سنار (٣) ومنذ ذلك

---

(١) اسماعيل بن عبد القادر ص ٣٢١
هذه الرسالة مفقودة ولانها قد ارسلت في حوالي يونيو ١٨٨٤ فربما ارفقها غوردون بالوثائق التي حملها ستيوارت الى مصر في سبتمبر وتناقلتها الايدي حتى وصلت الى المهدي واختفى اثرها هنا .

(٢) المصدر السابق ، ص ٣١٢

(٣) ابراهيم الجورجي ، ص ٣

الحين اخذت المناوشات العسكرية بين الفريقين تتخذ طابعا اكثر عنفا وان اقتصر على المعارك المحدودة النطاق • اذ كان كل منهما في انتظار تعزيزات يأمل ان تأتي في القريب ولم يشأ بالتالي ان يرمي بثقله في معركة فاصلة • كان غوردون يبذل جهدا ليحتفظ بالمدينة تحت سيطرته حتى تصله قوات من مصر • ويبدو ان تعليمات المهدى لابي قرجه كانت القاء الحصار على الخرطوم والانتظار خارج براباتها حتى تصل تباعا جيوشه التي تمركزت في الرهد •

فاقتصر نشاط الانصار على تصديهم لجنود غوردون متى ما ظهروا خارج الطوابي والخنادق او على ظهر البواخر وشددوا في ذات الوقت رقابتهم على دخول اى مواد غذائية للخرطوم •

لم تشتعل النيران في الجبهة الجنوبية الشرقية وحدها بل قام فضل احمد بالتعاون مع عبد القادر ابراهيم بفتح جبهة في الزاوية الجنوبية الغربية • اذ شيدا طابية في الضفة الشرقية للنيل الابيض واستعانا بقسم من جهادية ابي قرجه في اطلاق القذائف النارية التي كانت كثيرا ما تصيب اهدافها داخل اسوار المدينة (١) لم يقف غوردون مكتوف الايدى ازاء هذا الوضع بل بعث قوة من رجاله بقيادة عبد القادر افندى حسن وساتي بك لاسكات مدافع الانصار • ورغم تمكنهم من هدم الطابية وتدمير منازل الكلاكلة التي كانت تحتمي فيها القوات المهاجمة الا ان الانصار تجمعوا مرة اخرى وعادوا لاحتلال مواقعهم (٢) • وفي ذلك الحين كانت افواج من جيوش المهدى تشق طريقها تباعا نحو الخرطوم ، فوردت انباء عن تقدم قوة بقيادة حامد عبد الله الدنقلاوى ، ويبدو ان هؤلاء هم الرجال الذين

---

(١) ابراهيم البورديني ، ص ٣

(٢) نعوم شقير ، ص ٨٠٥

استنفرهم ابا قرجه من القلدينه وهو في طريقه الى الخرطوم • وفي ٤ يوليو قاد ساتي بك فرقة للاشتباك معهم ووقف تقدمهم ولكن الانصار انقضوا عليها في هجوم عنيف اباد وا فيه الفرقة وقتلوا قائدها • ومن ثم واصل الفوج مسيره حتى استقر في قرية الكلاكله • فسارع غوردون بعد خمسة ايام بارسال فرقة اخرى بقيادة سيد افندي امين ورغم ان الانصار قد فقدوا في هذه المعركة ما يقارب الالف قتيل الا ان قوة غوردون فشلت في ارغامهم على اخلاء الموقع (١) •

بقى غوردون في انتظار الفيضان حتى يتمكن من استخدام بواخره في المعارك المرتقبة ضد ابي قرجه • وفي ١٨ رمضان ١٣٠١ (٢٧ يوليو ١٨٨٤) شن اول هجوم له على معسكر الانصار في برى • فبعث بقائده محمد علي باشا على رأس قوة من الجهادية منقولة على ظهر البواخر وخشم الموس بك على رأس قوة من الباشبوزق • فنجحت هذه الحملة في انزال الهزيمة بالانصار واستولت على ١٦٠٠ بندقية وبعض الحراب والسيوف • ومن ثم تراجعت قوات ابي قرجه الى معسكرها الرئيسي في الجريف (٢) • ولكن غوردون لم يمهلهم بل تعقبهم الى هناك • ودارت معركة في ٤ شوال ١٣٠١ (٢٢ اغسطس ١٨٨٤) انهزم فيها ابو قرجه وفقد اخويه نصر ومصطفى • واجبر الانصار على اخلاء معسكرهم والتراجع الى قرية ود جار النبي جنوبي الخرطوم (٣) كان وقع هذه الهزيمة شديدا على الانصار اذ كانت بالفعل ثاني هزيمة كبرى تلحق بهم بعد الهجوم الفاشل على الابيض وبما انها كانت هزيمة لاحد كبار قادة المهدي فقد ارسل خطابا لابي قرجه يواسيه جاء فيه : " ولا تبتئس بما حصل فان الله تعالى اراد ان يميز الخبيث من الطيب " (٤) •

---

(١) نعوم شقير ، ص ٨١٠

(٢) ابراهيم البورديني ، ص ٤

(٣) بابكر بدرى ص ٣٠ ، يقول البورديني ان هذه المعركة كانت في صبيحة اليوم الثاني لمعركة برى ، في حين يؤرخ نعوم شقير الاولى ٢٧ يوليو والثانية ١٢ اغسطس •

(٤) المصدر السابق

تفاءل غوردون بعد ذلك الانتصار فبعث بمحمد علي باشا وفرج الله بك علي في ٧ شوال ١٣٠٢ (١٥ اغسطس ١٨٨٤) لاستعادة منطقة الحلفاية حيث نجح عدان فصلا في اجبار اولاد الشيخ العبيد ود بدر على اخلاء المنطقة واحس سكان المدينة لاول مرة منذ مارس ان حدة الحصار قد خفت كثيرا • واغرت الانتصارات الاخيرة ، التي احرزها الجنود ، غوردون ايحاول القضاء نهائيا على تجمعات الانصار في المنطقة وكان الشيخ العبيد قد اصدر منشورا لرجال القبائل يدعوهم للتجمع في العيلفون فاستجاب له ١٠ الاف رجل كما استنفر الشيخ مضوى ٥ الاف محارب (١) فحاول هؤلاء اقامة مستكرات لهم في شاطئ النيل الازرق حتى يتمكنوا من شل حركة بواخر غوردون اثناء قيامها بدوريات استطلاعية او في طريقها الى سنار • وما ان ايقن غوردون من هذا حتى بعث محمد علي باشا في ١٢ شوال ١٣٠٢ (٢٩ اغسطس ١٨٨٤) على رأس قوة مختلطة من الجهادية والباشبوزق والنجار (٢) وكان هدفها القضاء على الانصار قبل احتلالهم لاى مواقع يهددون منها سير الملاحة • ولعبت البواخر دورا رئيسيا في انزال الهزيمة بالانصار واستولت القوة على كميات من المؤن الغذائية •

وربما لهذا السبب تعقبهم محمد علي باشا حتى توغلت قوته داخل غابة أم ضبان ولجهلهم بالمسالك تعرضوا لنيران الانصار المفاجئة • فكانت ضربة قاضية فقد فيها غوردون محمد علي باشا و ١٦٠٠ من خيرة جنوده الذين ينتمون للالاى السوداني الاول (٣) •

---

(١) ابراهيم فوزى ، ص ٣٤٨

(٢) ابراهيم البوردينى ، ص ٥

(٣) المصدر السابق

ابراهيم فوزى ، ص ٣٥٠ - ١

<u>اسطــول الخــرطوم</u>

كان الاسطول النهرى الصغير الموجود بالمدينة دعامة من الدعائم التي ارتكز عليها غردون في دفاعه • فبالاضافة الى الاستفادة من تلك المراكب في وظيفتها البديهية كوسيلة لنقل المؤن الغذائية والمكاتبات من العاصمــــة واليها فقد اثبتت فعالية شديدة في التصدى لهجمات الانصار من جهــــات النيل الابيض والازرق • كما انها استعملت للقيام بحملات تفتيشية منتظمــــة على الشواطئ لمراقبة تحركات الانصار وما يدب من نشاط في معسكراتهم •

كان لبواخر الاسطول تاريخ بدأ في عهد محمد سعيد باشا حين وصلت الى الخرطوم اربع سفن هي "الفاشر" و "المصلحية" و "التوفيقية" و "نمرة تسعة" (٢) وقد وصل فوج اخر من السفن عندما اوكلت لصموئيل بيكر قيادة حملة المديريات الاستوائية وضم هذا الفوج كلا من "تل الحويــــن" و "البوردين" و "الصافية" و "المنصورة" و "شبين" و "امبابة" و "الاسماعيلية" و "الخديوى" و "نيانزا" (٣) وعند مجيء غــــردون الى السودان في عام ١٨٧٧ طلب باخرتين اضافيتين هما "العباس" و "محمد علي" الا ان تجهيزهما للعمل لم يتم الا في عهد رؤوف باشــا ١٨٨١ — ٢ • وقد تم اثناء حصار الخرطوم تركيب باخرتين همـــا "الحسينية" و "الزبير"، فاعدت الاولى للاستعمال في اكتوبر ١٨٨٤ والثانية في ٢٧ نوفمبر ١٨٨٤ (٤) •

---

(١) Datsun, " The Campaign of Gordon's Steamers" <u>The Rayal Engineers Journal</u>, 21st October 1888, p.8;

(٢) Hill, <u>Sudan Transport</u>, pp.3-5.

(٣) Ibid,

(٤) Hill, " Gordon's Steamers ", see p. 218

الا ان غوردون لم يتمكن بسبب الحرب من الاحتفاظ بكـــامل المجموعة تحت تصرفه طوال مدة الحصار . فقد اولا " المسلمية " و" الفاشر" التي استولى عليهما الانصار رفي بربر ثم فقد " محمد علي " في غداسي وقد استعملها محمد عثمان ابوقرجه فيما بعد في نقل الذرة من قـــرى شواطيء النيل الازرق الى معسكره جنوب الخرطوم (١) .

كما ان " العباس " التي حملت ستيورت وقافلته الى مصر فـــي سبتمبر قد تحطمت على صخرة في قرية ابه بين مروى وابو حمد (٢) . ورأى غوردون تحطيل " نمرة تسعة " واستعمال اجزائها في اصـــلاح بقية البواخر (٣) وحطمت قوات الانصار " الحسينية " بعد فترة وجيزة من انزالها للماء بالقرب من طابية المقرن . تبقى لغوردون بعد ذلـــك اسطولا يتكون من " التوفيقية " و" تل الحوين " و " الصافية " و"المنصورة " و " البوردين " و " الاسماعيلية " .

كانت تلك البواخر صغيرة الحجم ولم تبن اساسا لتستخدم فـــي اية اغراض عسكرية . الا ان غوردون استطاع ان يدخل عليها من التعديلات ما جعلها قادرة على القيام بمهام حربية ناجحة . فكان ان ثبت قطعـــا خشبية سميكة على جانبي كل باخرة من الخارج وقطعا حديدية من الـداخل(٤) وسلح كلا منها بمدفع جبلي وضع في المقدمة وآخر في المنتصف مـــع مجموعة تتكون من خمسين جنديا مزودين بكمية من الذخيـــرة والمـــؤن الغذائية .

---

(١) Nushi Pasha, p.39.

(٢) Hill, " Gordons Steamers "

(٣) Hill, Sudan Transport , p.27.

(٤) Nushi Pasha, p.28.

واستخدام غوردون البواخر في نقل المكاتبات بين الخرطوم وبربر حينما قام الانصار بقطع الخط التلغرافي • فكان ان بعث في ايام الحصار الاولى بموسى بك شوقي ليأتي بالبريد من بربر على ظهر الباخرة "العباس" وتحت حراسة اثنتين من السفن (١) وظلت هذه وسيلته في نقل الرسائل الى القاهرة طوال مدة الحصار ، اذ بات يبعث بها الى بربر بواسطة احدى بواخره ويحملها الجواسيس من هناك الى دنقلا •

كان دور البواخر في القيام بمراقبة تحركات الانصار كبيرا • كما ان تقارير الانباء عن تقدم قوة الانصار من جهة القطينة حتى اصدر غوردون اوامره لساتي بك ليقوم بحملة على ظهر الباخرة "المنصورة" ذات مدفع مزدوج ، اذ عليها اولا تقدير قوة الانصار وموقعها ثم الاشتباك معها حتى لا تتقدم آمنة (٢) • وقد ادى ساتي بك هذه المهمة بنجاح ، فاعقبها غوردون بأخرى على ظهر "تل الحوين" و "البوردين" واستمرت هذه الحملات الى ان تمت هزيمة ابي قرجة وتراجع الى الجريف • فداوم غوردون بعد ذلك على ارسال باخرة لتستكشف تحركات الانصار وتهاجم اى فئة منهم تحاول الوصول الى برى او المنطقة التي تجاورها •

تمركزت فائدة الاسطول بالدرجة الاولى في مقدرته على صد هجمات الانصار المتتالية على المدينة • كما ان يسمح غوردون لتجمعات لهم خارج الاسوار حتى يبعث بجنده على ظهر البواخر التصدى لهم واجبارهم على التراجع • الا ان الانصار سريعا ما فطنوا الى الدور الذي يقوم به الاسطول فشيدوا طابية تحت مسؤولية محجوب بك وبدأوا من هناك على ضرب البواخر اثناء قيامها بالحملات التفقدية • فأرسل غوردون ساتي بك على رأس مجموعة من الجند على ظهر كل من "البوردين" و "المنصوره" و "الاسماعيلية" • فكان ان انزل ساتي بك نصف مجموعته الى الشاطئ

(١) Nushi Pasha, p.24.

(٢) Ibid, P 41

واحتفظ بالنصف الاخر في البواخر ليقوم بحماية المهاجمين عند تراجعهم (١) وقد نجحت هذه الحملة في تدمير الطابية والاستيلاء على المدفع الذى كان فيهـــا ٠

ورغم النشاط المتعدد الجوانب الذى كانت تقوم به البواخر الا ان صغر حجمها كان يشكل نقطة ضعفها الاساسية ٠ فقرر غوردون الاستفادة من المراكب الشراعية وتقويتها بقطع من الخشب السميك وتسليحها بالمدافـع فكان من جراء هذا ان ارتفع العدد الذى يمكن ان تحمله الباخرة الـــى حوالي المائتين جنديا ٠

وقد تمكن بعد هذا من ايفاد ثمانمائة من الجنود النظاميــين والباشبوزق على ظهر كل من " البوردين " و " تل الحوين " و " المنصورة " و " العباس " لمهاجمة قوات ابي قرجه في معسكرها ببرى ٠ وقد ادت الحملة مهمتها بنجاح بل ان هذه العملية تعد من انجح العمليات التي قامت بها قوات الحكومة على الاطلاق ٠ اذ طبقت في الهجوم خطة انزال قـــوات اتهاجم واخرى تبقى في البواخر لترسل بقذائفها نحو الانصار وتحمي فـــي ذات الوقت خط تراجع القوات البرية فأجبرت انصار ابي قرجه علـــى اخلاء المعسكر والتراجع حوالي ١٠٠٠ متر جنوب الشرطم كما تمكنت من الاستيلاء علـى كميات وافرة من المواد الغذائية ٠ وقد اثبت اسلوب اشتراك البواخر مع المشاة في الهجوم فعاليته فكان ان اشتركت كل من " المنصـــورة " و " تل الحوين " و " الصافية " محملة بثمانمائة جندى في معركة العيلفون التي هزم فيها محمد علي باشا انصار الشيخ العبيد واجبرهم علـــى التقهقر الى قرية ام ضبان (٢) ٠

ومن ثم يمكن القول ان العمليات الناجحة التي حققها غـــردون

Nushi Pasha, p.63. (١)

Ibid., ., p.72. (٢)

اثناء الحصار كانت في جملتها تلك التي ساهمت فيها البواخر بمفردهـــا او بمساندة قوات برية •

كذلك استخدمت السفن في حملات امداد المدينة بالاغذية من سنار والقرى المجاورة فارسل غوردون اولا محمد علي باشا على ظهـــر ست بواخر الى ابي حمراز ليجمع ما يجده فيها من مؤن •

وقد واصلت اثنتان من تلك البواخر رحلتهما الى سنار تحـــت قيادة بخيت بك بطراكي وقد عاد قائدا الحملتين بكميات من الـــذرة والمواد الاخرى (١) ، ولعل نجاح هاتين الحملتين قد شجع غوردون ليبعث بنصحي باشا بعد اربعة اسابيع لسنار مع مائتين من الجنود على ظهر " البوردين " و" تل الحوين " ، وقد عادتا محملتين بحصيلة من الـــذرة تعتبر آخر ما ادخل للمدينة طوال فترة الحصار •

الا ان ذلك النشاط الفعال قد تقلص كثيرا عندما قـــرر غوردون التخلي عن بعض قطع اسطوله • ففي ١٠ سبتمبر ١٨٨٤ تخلى عن الباخرة " العباس " فرحلت وعلى ظهرها ستيورت باشا وقناصل انجلترا وفرنسا والمانيا وبعض التجار الراغبين في العودة الى مصر • كما رحلـــت " المنصورة " و" الصافية " مع هذه القافلة لتأمين خط سيرها حتى تتعدى منطقة الخطر عند مشارف بربر • ورغم ان هاتين الباخرتين عادتـا الـــى الخرطوم مرة اخرى في العشرين من نفس الشهر ، الا ان مهمة اخرى خارج نطاق الحصار كانت معدة لهما ، اذ قرر غوردون ان يبعث بهما لانتظـــار حملة الانقاذ في شندى مع باخرة اخرى هي " تل الحوين " فغادرت هـــذه المجموعة الخرطوم في ٣٠ سبتمبر (٣) وارسل فيما بعد " التوفيقية " وهي

---

(١) *Nushi Pasha*, p.65.

(٢) Ibid., p.79.

(٣) *Journals of Gordon*, Vol.II, 29th September 1884.

تحمل البريد وامر نسحي باشا الذى عقد له لـواء قيادة اسطول المتمسة بالاحتفاظ بها وارسا ل تل الحوين بدلا عنها الى الخرطوم .

وعند وصول هذه بعث بها مرة اخرى مع" البوردين " ومع تعليمات لخشم الموس بك بالبقاء في شندى على ظهر " المنصورة " في حين يتوجه نسحي باشا في " التوفيقية " و "تل الحوين "و " الصافية " الى المتمة وتعود " البوردين " مرة اخرى الى الخرطوم (١) .

ومما لا شك فيه ان غوردون ارتكب خطأ بايفاده تلك السفن لانتظار حملة الانقاذ زهاء خمسة اشهر في شندى دون ان تقوم بأى عمل من شأنه ان يساعد في تخفيف حدة الحصار المضروب حول المدينة . بل ان هذه البواخر كانت معطلة تماما طوال مدة بقائها هناك ، اذ ان غوردون قد امر الجند بعدم المبادرة بالهجوم خوفا من ان تقضى عليهم قوات الانصار التي تتفوق عليهم عدديا ، وكان من الممكن ان تواصل تلك البواخر نشاطها في الدفاع عن المدينة خاصة وان الخرطوم كانت تمر باحرج فتراتها اذ شهد شهر سبتمبر وصول تجمعات انانية للانصار وتضاعفت الاشتباكات بصورة لم يسبق لها مثيل .

عجز غوردون بعد ذلك التاريخ عن التصدى الفعال لقوات المهدى ناهيك عن مبادرتها بالهجوم الى درجة انه اضطر لاخلاء المغلقاية . ولم يتمكن ايضا من ايفاد اى حملات لسنار للحصول على

---

(١) Hill , Sudan Transport, p.28.

ذكر هل ان غوردون قد بعث بخمسة بواخر الى شندى الا انه في الواقع قد بعث ثلاثة فقط في اول الامر ولحقت بهم رابعة فيما بعد .

مواد غذائية اذ كانت آخرها تلك التي قام بها نصحي باشا بنهاية سبتمبر .

لم تدم فترة الهدوء الذى اعقب تراجع قوات ابي قرجه طويلا . فسرعان ما استدعى المهدى قائده عبد الرحمن النجومي من جبل الدايـر ليقود حملة الى الخرطوم في ١٨ شعبان ١٣٠١ . (١٣ يوليو ١٨٨٤) (١) . وغادر النجومي الرهد في غرة رمضان ١٣٠١ (٢٥ يونيو ١٨٨٤) على رأس جيش يقارب الستين الفا (٢) وقد اجتمعت معه قوات عبد اللـه ود النور التي قدرت بالعشرين الفا (٣) . تسلحت غالبية المحاربين بالحراب والسيوف الا انه كانت هناك قوة من الجهادية تبلغ عشرة الاف رجل مسلحين بالبنادق ، بالاضافة الى قوة مماثلة من الخيالة (٤) . وكانت معهم ايضا اربع مدافع جبلية واربع مدافع كروب وصاروخ واحد (٥) وسار مع هذه القوة مجموعة من الامراء بينهم حسن النجومي وعبد القادر ود مدرع شيخ قبيلة الحسنات وعبد الله سالم بن حاج عبد الله .

وما ان وصل النجومي الى ضواحي الخرطوم حتى شرع في توزيع المنشورات على الاهالي يحثهم فيها على القيام لمساندة القوات المحاصرة فاجتمعت اليه اعداد هائلة (٦) .

---

(١) المهدى الى عبد الرحمن النجومي وحمدان ابو عنجة وموسى الحلو فيوضات ج ٣ / ١٩٣

(٢) Nushi Pasha, p.74.

قدره ابراهيم البورديني العدد بمائة الف وقدره ابراهيم فوزى بثمانمائة الف

(٣) عبد الله ود النور من قبيلة الجركيين ، اعلن انضمامه للمهدى في اوائل مراحل الدعوة . شارك في حصار عدة مواقع في كردفان بما فيها بـارة والابيض ، قتل في احدى معارك حصار الخرطوم قبل حوالي شهر من سقوط المدينة فعين ابراهيم ابو بكر مكانه . ابو سليم : معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم .

(٤) Nushi Pasha, p.75.

(٥) Ibid.,

(٦) ابراهيم البورديني ، ص ٥

عسكر النجومي مع جزء من قواته في قرية القوزليقابل طابيسة الكلاكلة حيث يوجد انبرقدر من الجند والعدة والعتاد الحربي (١) وقد وجه الشيخ عبد القادر ابراهيم لاقامة معسكره في منطقة تواجه طابية المسلمية في حين تمركزت قوات عبد الله ود النور وعبد الحليم مساعد في منطقة برى المعروفة بحساسيتها ، اذ منها يمكن السيطرة على الملاحة في النيل الازرق وشل حركة بواخر غوردون في ذلك الاتجاه .

وكان المهدى يزود قادته بتعليمات من الرهد ، فبعث يوجه شيخ فضلو ود احمد الذى كان مقيما في شجرة محويك لينضم مع عبد الله ود جبارة الى الشيخ العبيد ود بدر لتعزيز الجبهة الشرقية اذ انها تمثل المدخل الرئيسي لاية قوات قادمة من الخارج . ولهذا السبب بعث اليهم ايضا بقوة اضافية بقيادة ابي بكر ود عامر (٢) .

خزن النجومي المواد الغذائية في الجريف تحت حراسة حاج خالد العمرابي ثم شيد طابية وضع عليها كلا من شريف سليمان العبيد وحمد النيل حامد وعمر الخليفة محمد سرار الذهب فجعلوا رجالهم في حالة تأهب لارسال أية نجدة قد تطلبها برى (٣) .

وشيد النجومي ايضا جملة طوابي في مقابل طوابي الخرطوم حتى يتمكن انصاره من ارسال قذائفهم عند ظهور اى من رجال الحامية خارج بواباتهم . وداوم المهدى على ارسال افواج من المحاربين بصفة منتظمة ، كما يفهم من احدى رسائله وفيها يشير على النجومي بتوزيع

---

(١) اسماعيل بن عبد القادر، ص ٢١٨ — ٢٠

(٢) المصدر السابق

(٣) ابو سليم " معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم " ، ص ١٥

القوات الموفدة على طول خط النارو وضع كل راية في موقع استراتيجي (١) وعند مقتل عبد الله ود النور انتقل النجومي الى معسكر بري بناء علـــى تعليمات المهدى في حين حل ابو قرجة مكانه في مقابل طابية الكلاكلة(٢) ٠

المرحلة الختامية للحصار :

وبوصول المهدى الى مشارف المدينة في ٢٣ اكتوبر ١٨٨٤ وصل موقف الحصار الى ذروته المتوقعة (٣) فقد بدأت المسيرة من الرهد فـــي ٢٢ اغسطس ٠ ولعل ضخامة حجمها قد اضطرها الى اتخاذ ثلاث طـــرق منفصلة الى الخرطوم ، فسار المهدى والخلفاء في طريق الطيارة ، شركيله ، شات ، الدويم واتخذ رعاة الابل الطريق الشمالي مرورا بخورسو ، حلبة والترعة الخضراء اما الطريق الجنوبي فكان يناسب البقارة نسبة لـوفرة المياه على طول امتداده (٤) ٠ ووصف احد شهود العيان هذه المسيرة بقولـه " بحال قيام المهدى من الرهد الى الخرطوم بالجيوش الجرارة التــــي ايس لها نظير قامت الدنيا بأثرها وتوجهنا مسافرين كأننا قـرعة على البحـر لا نعرف اولنا من آخرنا " (٥) ٠

وقدرت القوات التي جاءت في ركاب المهدى بحـــوالـــــــــي

---

(١) المهدى الى عبد الرحمن النجومي ٨ ربيع اول ١٣٠٢ (٢٦ ديسمبر ١٨٨٤) فيوضات ج٣/ ١٧٨

(٢) المصدر السابق

(٣) Ohrawlder, p.126.
Journals of Gordon 22nd October 1884
اعطي نعوم شقير تاريخين مختلفين لوصول المهدى يقول اولا ٢٣ اكتوبر ص ٨٢٧ ثم يعود ويقول ١٩ اكتوبر ص ٨٤٦ ٠

(٤) Slatin, p. 305 اوهرولدر يعطي تاريخ قيام المهدى ٨ اغسطس، ص ١٢٦

(٥) يوسف ميخائيل، ص ٦٧

/ ٢٠٠،٠٠٠ شخص / (١) وقد شملت هذه بالاضافة الى المحاربين كثيرا من زعماء القبائل الذين سارعوا باعلان الولاء للمهدى قبل مغادر الرهد وانضموا اليه مع عائلاتهم (٢) ، ولعل الهدف من النزول في القرى التي تقع على طول الطريق لم يكن الاستجمام وحده بل جذب اعداد اضافية من الاهالي لتسير في معية المهدى الى الخرطوم •

ومن الطريق بعث المهدى برسالة الى قواته المحاصرة للمدينة يدعوهم الى تشديد قبضتهم عليها ويعلن لهم ان الماهيم قد اصبح وشيك الوقوع (٣) كان الموقف في المنطقة يهدد بالانفجار اذ ان الاتجاه الحسام لكل فريق قد تحدد بصفة نهائية ولم يكن اى منهما يقبل التنازل عنه قيد أنملة • وكشفت الرسائل المتبادلة ان فريق المهدي لا يقبل حلا سوى التسليم المطلق والا فلا مناص من الحرب • فكتب له الشيخ عبد القادر ابراهيم " ••• ان ذات الامام الشريف حضرت بذاته ومعه من الجيوش ما لا يحصى عدداً وعن قريب حاضر بجيوشه للبندر فوجب علينا اعلامكم بذلك فلعل وعسى ان تقبلوا وتتركوا كلام المفسدين وتسلموا امركم لهذا الامام عليه السلام لانه لا شك انه هو المهدى المنتظر عليه السلام وان جميع الدول يصير هلاكها على يده ولانه مؤيد ومنصور بقدرة الله •• وهذا ما نصحناكم به ان اراد الله لكم ولاهل البندر قبوله واعلموا ياسعادة الضوردون اننا خاطبنا حضرة الامام المهدى في حقكم ووردت افادته بما يوجب سروركم وتأمينكم ان حصل منكم له الانقياد والتسليم " (٤) •

ويكرر الشيخ عبد القادر ذات الدعوة في خطاب آخر ويطلب من

---

(١) Ohrawlder, p.126, Cuzzi, p. 155 .

(٢) اسماعيل بن عبد القادر ، ص ٣٣٢

(٣) المهدى الى الفقرا ، النجومي / ٤٣

(٤) عبد القادر ابراهيم الى غوردون باشا ١٨ ذو القعدة ١٣٠١ (١٠ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق أ

غوردون اغتنام هذه الفرصة لتأمين سلامته وسلامة المسلمين والا فأن الانصار لن يترددوا بعد ذلك في اقتحام اسوار المدينة " فهم في غاية التصميم وقوة العزم وكل منهم يفدو ويروح راغبا بالموت " (١) . الا ان غوردون كشف في رده على الشيخ عبد القادر انه لن يسلم لهم بل هو على استعداد لمواجهتهم عسكريا اذ يقول " زيادة على ما قوينا به استحكام الخرطوم من الشام وسلوك فأننا شارعين في اعمال زلزلة ارضية براسطة الاجزاء الكهربائية " (٢) .

وبعث عبد الرحمن النجومي ايضا خطابا لغوردون يكرر فيه ما ورد في خطاب الشيخ عبد القادر ويقول " فأن اتبعت وسلمت الامر لله ورسوله فزت باجوك واجر جميع من معك " (٣) فجاء رد غوردون ليقنعهم بالا مجال لحل القضية سلميا فهو لن يعترف بالمهدى ولن يستسلم له فأيقن النجومي عندئذ انه لم يعد هناك طريق سوى الحرب ومن ثم بدأ يدعو غوردون اليها بقوله " واعلم ان المهدى عليه السلام ما قد منعه الا لمحاربتك ومدافعتك وتولية لجيشه ولسيادته وما دام انت واليا من دولتين علام كما ذكرت وحضرت لتسوية احوال السودان فلا تجد فرصة لنجح قصدك وما صوالك الا في هذين اليومين قبل حضور الجيش واستكماله فانك ان تأخرت انت ومن معك بداخل القلعة الى ان تم وصول الجيوش وحل الركاب الشريف بهذا الطرف وانتم تحت انتظار الانكليز فقد خساب قصدكم واملكم فالاولى ان تجمع كافة حزبك ورجالك وتخرج لمقابلتنا ومقاتلتنا خارج الاستحكام " (٤) .

---

(١) عبد القادر ابراهيم الى غوردون باشا غاية ذو القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤)
ملحق ب

(٢) غوردون الى عبد القادر ابراهيم ٣٠ ذي القعدة ١٣٠١ (٢٢ سبتمبر ١٨٨٤)
ملحق بٓ

(٣) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون باشا
٢١ ذو القعدة ١٣٠١ (١٢ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق ج

(٤) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون باشا
٢ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د

ويلاحظ ان غوردون رغم رفضه المبدئي للتسليم ما زال يتجنب المعارك الواسعة النطاق التي يمكن ان تنزل ضربة قاضية بقوته ، فهو يريد ان يصمد اطول وقت حتى تصل حملة الانقاذ . ولا بأس في هذا الاثناء من بذل محاولة اخيرة علها تنجح في اقناع قادة الانصار بنبذ امر القتال . فعرض على النجومي وابو قرجه فكرة الاعتراف بهم سلاطين على الغرب اذا ما عادت الامور الى ما كانت عليه قبل الثورة (١) الا ان هذه المناصب لم تغر الاميران فقابلا عرض غوردون باستخفاف ظاهر . ثم حسمت اخر رسائلهم القضية ، فلا دعوة للتسليم بعد ذلك ولا قبول لها " فبعد هذا لم يكن بيننا وبينكم مكاتبة او مخاطبة الا الحرب " (٢) .

وقد عكست مكاتبات المهدى التي بعث بها لغوردون نفس الاتجاه الذى حملته رسائل قادته ، فاما التسليم او الحرب في حين اكد غوردون رفضه للحل الاول واصراره على الصمود ، والبقاء من بعد للاقوى .

ولقد كتب المهدى في اول رسالة بعث بها لغوردون بعد وصوله لمشرع القيمه بالقرب من ام درمان قائلا " فان انبت الى الله تعالى واسلمت وسلمت الامر لله ورسوله وصدقت بمهديتنا ارسل مخاطبة منك ومن معك جميعا الينا بعد وضع السلاح ورفع المحاربة لنرسل لكم من يؤمنكم وان لم تفعلوا ذلك فاذنوا لحرب من الله ورسوله " (٣) ثم كرر المهدى هذا النداء في كل خطاباته التي بعث بها من ديم ابي سعد طوال الثلاثة اشهر التي سبقت مهاجمته للمدينة . ويبدو ان المهدى كان يأمل ان تثمر هذه الخطابات وتتم له السيطرة على الخرطوم دون اللجوء الى الحرب اذ

---

(١) غوردون الى الشيخ عبد الرحمن النجومي ، ٢ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٤ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق د

(٢) عبد الرحمن النجومي وعبد الله النور الى غوردون ٣ ذو الحجة ١٣٠١ (٢٥ سبتمبر ١٨٨٤) ملحق هـ

(٣) المهدى الى غوردون ١٣ محرم ١٣٠٢ (٢٢ اكتوبر ١٨٨٤) ملحق : و

كان يعتقد الا فائدة من الاقتتال اذا كان بالامكان اتباع طريق الحـــق سلميــا (١) ..

ثم كتب المهدى رسالة لاهالي الخرطوم يبدو انها الاخيرة يعرض عليهم اغتنام هذه الفرصة للنجاة بارواحهم ويلومهم على انتظار النجـدة من الانكليز، فقال " نعرفكم ان الله تعالى غني عن العباد يهدى من يشاء الى طريق الرشاد ويضل من يشاء، ومن يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا وقد طال ما تكررت منا النصائح واردنا نجاة عباد الله ورسوله لطريق الله فاناب الله من اراد الله سعادته وخالف مـــن خذله الله فاصمه واعمى بصره فلا ادرى ما الداعي الى عدم الانقيـــاد او لله شركاء يستشيرهم فيمن يكون معه يا ام له منازع في ارادته كلا بل هو القادر الفاعل لما يشاء فيجب على كل ذى بصيرة الوقوف معه على حد الادب ... ومن المعلوم اني عبد دال الى الله فمن اتبعنـــي فقد حاز السعادة الكبرى ومن خالفني سيذيقه الله عذاب الخـــزى ... وقد طالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده وحذرتكم من وعيده تعالى متى الغفلة والتسويف والى متى مبارزة مولاكم بالعداوة الم يأت لكم ان تميل قلوبكـــم الى ما ينفعكم في اخرتكم ويجلب لكم الخير ويصرف عنكم الشر والضيــــر او ترغبون النجدة والفرج عند الانجليز وتصرفون نظركم عن خالقكم الـــذى بيده اموركم وقواكم وهو القوى العزيز فما الانكليز وغيرهم اضعافا مضاعفة بشيء في جنب قدرة الله التي يعجز عن وصف كنهها كل لبيــــب ونجيب. وما الغوث الا من عند الله القريب المجيب " (٢) .

يقال احيانا ان المهدى لم يبدأ في مخاطبة غوردون عند وصوله

---

(١) المهدى الى محمد الطيب البصير بعد ٤ جمادى اول ١٣٠١ (٣ مارس ١٨٨٤) . فيوضات ج ٣/ ٥٠ .

(٢) المهدى الى كافة اهالي الخرطوم ، انذارات بص ٢٥٥ — ٦

الى مشرع القيحه الا بعد نهاية محرم (١٩ نوفمبر) ذلك لانه كان يتجنب الحرب في ذلك الشهر (١) ، ويصور هذا القول المهدى كأنما كان يسعى الى الحرب ويبادر بالعنف الا ان الوثائق تثبت غير هذا • فرغم ان المهدى قد اعلن صراحة استعداده لخوض غمار الحرب الا انه بذل جهدا كبيرا ليغرى غوردون بالتسليم وكانت استجابة الاخير الرفض الصريح (٢) ومن ثم لم يعد خافيا على احد بعد ذلك ان الحرب هي السبيل الوحيد •

وضع غوردون الفرقة المصرية الاولى المكونة من ثلاثمائة وعشرين جنديا تحت قيادة يوسف افندى عفت في اول خط الدفاع من الجهة الغربية ، ويلي هذه عشرة فرق من الباشبوزق الشايقية والمتطوعين تحت قيادة عثمان بك حشمت (٣) • ثم الفرقة المصرية الثانية بقيادة فرج بك علي وابراهيم بك صالح وكانت تسيطر على المنطقة الممتدة حتى بوابة الكلاكله وقد وضع هذا الجزء من خط الدفاع تحت قيادة حسن بك بهنساوى • والى الشرق من بوابة الكلاكله وضع غوردون ثلاث فرق من الباشبوزق الاتسراك والشايقية ثم الفرقة السودانية الاولى تحت قيادة علي افندى صقر ثم تسعة فرق اخرى من الباشبوزق بقيادة سرور بك بخيت ويلي هؤلاء الفرقة السودانية الثانية بقيادة محمد افندى عثمان ، ثم فرقتان من الباشبوزق • فالفرقة السودانية الثالثة بقيادة احمد افندى السركي وقد كان هذا الجزء تحت قيادة بخيت بك بطراكي •

واتخذ غوردون جملة احتياطات دفاعية في اقصى الجزء الغربي من خط النار ذلك لان انخفاض النيل قد ادى الى ظهور جزيرة صغيرة

---

(١) نعوم شقير، ص ٨٤٦

(٢) المصدر السابق ص ٨٤٧

(٣) Nushi Pasha, p.148.

بين طابية المقرن وام درمان ، ولم تغب عن ذهن غوردون امكانية احتلال تلك الجزيرة بواسطة الانصار فبعث لتوه بمائة جندى لحراستها (١) ،

الا ان استمرار انخفاض النيل ادى الى اتساع تلك الرقعة حتى بلغ طولها حوالي ١٥٠٠ مترا فشرع الجند في حفر الخنادق وتشييد الاسوار حتى تمكنوا من تغطية حوالي ١٠٠٠ متر • ويبدو ان حالة الارهاق التي وقع فيها الجند لم تمكنهم من اتمام الخمسمائة متر المتبقية فظل ذلك الجزء ثغرة في خط الدفاع • ولقد تدهور الموقف من الناحية الشمالية ايضا ، اذ ان غوردون اضطر لاخلاء الحلفاية عند ارسال البواخر الى شندى فما كان من الشيخ العبيد الا وتقدم لاحتلالها • وبدأ انصاره يرسلون غذائهم بصورة منتظمة الى المدينة •

طبق المهدى حال وصوله خطته النهائية في توزيع قواته حول المدينة • فعسكر محمد عثمان ابي قرجه في الجنوب الغربي بمحاذاة النيل الابيض ، في حين ناصر فضل المولى بك طابية ام درمان وعسكر حمدان ابوعنجه بين الطابية والنهر (٢) ، وارسل غوردون ثلاث بواخر لتصد هجوم ابي عنجة على طابية ام درمان حيث نشبت معركة بين الفريقين كان تفوق الانصار فيها عدديا هو السبب المباشر في انزال الهزيمة بقوة الحكومة ، فاغرقوا احدى السفن وهي " الحسينية " ، قرب جزيرة شيخ ابو زيد وتجحت الاثنتان في الرجوع الى الخرطوم تحت وابل من الرصاص (٣) استمر التراشق بالنيران حتى تم تسليم حامية ام درمان فكان لهذا اثر مباشر على موقف الخرطوم اذ اجتمعت قوات المهدى باسرها حول المدينة

---

(١) Nushi Pasha, p.148.

(٢) Slatin, p.331.

(٣) ابراهيم البوربيني ، ص ٨

وظلت ترسل قذائفها ليلا ونهارا على الجند والبواخر على حد سواء (١) ورغم هذا صمدت الخرطوم قرابة الثلاثة اسابيع • ويبدو ان الانباء التي وصلت الى المهدى عن قرب وصول حملة الانقاذ جعلته يعجل بالهجوم •

كما وضح ، من ناحية اخرى ، ان لا أمل البتة في السيطرة على المدينة سلميا • ولكن هذه القوة الاتية من الخارج ربما تدعم حامية الخرطوم لدرجة لا تمكن الانصار من احراز النصر السريع الذى توقعوه ، فمن الافضل - اذن - شن هجوم شامل قبل وصولها • وتمكن المهدى من الالمام بتفاصيل خطة دفاع غوردون من بعض الجنود الهاربين فعلم ان القوات النظامية تقوم بحماية النقاط القوية في حين تركت الثغرات تحت حراسة الاهالي والضعفاء (٢) • ولهذا فقد بدأ الهجوم في صبيحة الاثنين ٩ ربيع ثاني ١٣٠٢ (٢٦ يناير ١٨٨٥) بالتركيز على اكثر المناطق ضعفا ، تلك التي من اقصى الغرب ، وسرعان ما فوجئ رجال حامية الخرطوم بالانصار وهم يضربونهم من الخلف فلم تكن هناك مقاومة تذكر بل ان اغلبهم وضع السلاح دون ان يطلق قذيفة (٣) • لم يكن بامكان رجال الحكومة ان يردوا هجوما شنه ما يقارب المائة الف محارب • بالاضافة الى هذا فقد افقدهم الارهاق الجسدى الذى تعرضوا له من جراء المجاعة التي اجتاحت المدينة كل لياقة تمكنهم من خوض معركة متكافئة •

اما حملة الانقاذ فقد كان تاريخ وصولها الى القبة يوم ٢٠ يناير، ولعل ذلك القول الذى يردده بعض المؤرخين بأن الحملة لو سارعت طلائعها الى الخرطوم يوم وصولها القبة لتمكنت من تغيير مجرى التاريخ

---

(١) ابراهيم البوركيني ، ص ٩

(٢) Slatin, p.342.

(٣) Ibid, p. 343.

هو مجرد تصور • فماذا كان يمكن ان تفعل حفنة من الجند على ظهر "البوردين" و "تل الخوين" امام تلك الجحافل ولعل القول بأن وصول الطلائع كان سيدفع برجال الحامية الى الصمود لانه يبشر بقرب وصول حملة الانقاذ هو الاخر بعيد عن الواقع اذ ان رجال الحامية كانوا في حاجة الى من يحارب في صفوفهم لا الى من يرفع من روحهم المعنوية •

الخـاتمـة

بسقوط الخرطوم في ايدى الانصار ، في السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٨٥ ، وضعت النهاية العملية للمهمة التي اوكل امر تنفيذها لغوردون . فبعد انقضاء زهاء العشرة اشهر في المدينة ، وضح تماما ان تعليماته التي تلقاها في كل من لندن والقاهرة ما زالت حبرا على ورق . وفي المقام الاول ، لم يتمكن من اخلاء اى من الجنود والمدنيين من رعايا الامبراطورية العثمانية الذين يرغبون في العودة الى مصر . كل ما تم في هذا المجال هو ترحيل قرابة الالف شخص يشكلون في معظمهم عائلات الضباط والجنود الذين هلكوا مع هكس باشا في شيكان . ولم يتعد نشاطه ازاء حامية الخرطوم في هذا الصدد سوى نقل فرقتين من الجنود المصريين الى ام درمان تأهبا للرحيل . الا ان تزايد جموع الانصار حول المدينة قد اضطره لالغاء الخطة ، او على الاقل تأجيلها . فعاد بهم مرة اخرى الى الخرطوم فبقوا فيها حتى سقوطها . لم يتمكن غوردون من عمل شيء ايضا فيما يتعلق بالحاميات الاخرى التي كان من المقرر ان يشملها قرار الاخلاء . فقد تأكد له ان الوضع في منطقة الخرطوم وفي المراكز التي تقيم فيها تلك الحاميات لا يسمح بسحب اى منها . فبقيت في اماكنها تسعى بامكانياتها لتشتيت شمل الانصار من حولها فسقط منها من خارت قواه وبقي بعضها يدافع عن نفسه لوقت لاحق لسقوط العاصمة .

اما الشق الاخر من تعليمات غوردون ، ذلك الذى يتعلق بالجانب السياسي ، فلم يكن نصيبه من النجاح اكثر من الشق الاول . فقد فشلت محاولاته في ابقاء السودان تحت النفوذ التركي ولو صوريا . وتأكدت اولى بوادر هذا الفشل عند سقوط بربر بعد حوالي ثلاثة اشهر من تاريخ تعيين مجلس الوجهاء الوطنيين الذين نصبهم غوردون ليحفظوا سلطة الخديوى . اما بالنسبة للخرطوم فرغم انه شخصيا ظل يسيطر على الموقف طوال مدة بقائه ، الا انه حاول تطبيق خطة بربر بتعيين مجلس من الاعيان يحتل المرتضى وجهاء العشائر اغلب مقاعده . ولم تلق محاولته لاغراء ذوى النفوذ من الاهالي بالسلطة صدى في نفوس هؤلاء . ومن ثم غادر عبد القادر ابراهيم قاضي الكلاكله الخرطوم نهائيا رغم تمتعه بعضوية ذلك المجلس . ولم يتمكن عوض الكريم ابو سن من قبول منصب مدير الخرطوم

الذي عرضه غوردون عليه متصللا بخطورة السفر وسط منطقة فقدت الحكومة السيطرة عليها تماما • ولعله اثر مراقبة الوضع عن بعد خاصة وان قبيلته كانت تتأرجح في موقفها بين الفريقين المتنازعين •

لم تثمر ، اذن ، محاولات غوردون في الوصول الى حل وسط يتمثل في سحب السلطة التركية الفعلية وابقاء نفوذ صوري يسنده جهاز حكومي يقف للمهدي بالمرصاد • لم يكن الوضع في الواقع يحتمل حلا وسطا • كانت الثورة قد انتظمت جميع القطاعات القبلية ، واكد المهدي سيطرته التامة على اجزاء كبيرة من البلاد • فاندفع الناس لما ندته بحماس منقطع النظير • وابدوا استعدادهم للتضحية بارواحهم واموالهم • كانت الرؤيا امامهم واضحة لا غموض فيها ولا لبس فهم يسعون للسيطرة على الخرطوم كجزء من مخطط يستهدف القطر باكمله بالاضافة الى هذا فقد توفرت لهم العوامل التي تساعد في استكمال هذا النجاح • توفر لهم العنصر البشري المسلح باسلحة تقليدية وتوفرت لهم ايضا كميات من الاسلحة الحديثة والاموال والعتاد الحربي • ولم تفتقر حامية الخرطوم الى كل من هذه فحسب ، بل افتقرت في المكان الاول الى روح المبادرة التي تدفع الجنود الى خوض معارك ضد الانصار بحماس حقيقي • فقد تاه الهدف من تلك الحرب بالنسبة لهم وسط ضباب كثيف • فهل يحاربون من اجل ترسيخ اقدام الحكومة المصرية التي اعربت عن عزمها في البلاد رسميا ؟ ام من اجل الحكومة البريطانية ؟ ام من اجل غوردون ؟ كان بالطبع ثمة جنود بين افراد الحامية لا تنقصهم الشجاعة والاقدام ولكنهم كرهوا التفريط في ارواحهم من اجل قضية غامضة اهدافها وغير محددة معالمها •

كان لا بد ان تكتمل سيطرة الانصار على البلاد بعد سقوط الخرطوم فتشمل المراكز التي لم تزل تحت قبضة جنود الحاميات الحكومية • كانت كسلا في حالة حصار بواسطة عامل المهدي مصطفى مهدي واعوانه • تكتسب مديرها احمد عفت الى السلطات المصرية طالبا النجدة • الا انه لم يكن في الامكان الاستجابة له بعد سقوط الخرطوم • فقد انتزع المهدي السلطة التي كانت تخول لهم حق التدخل في البلاد من بين ايديهم • وقد تخشى

حكام مصر ان تفسر اى اشارة بارسال جنود الى السودان على اساس انها محاولة للتصدى عسكريا للانصار ، الامر الذى سيعرض حدود مصر الجنوبية على الاقل للخطر . ازاء هذا الوضع لم يكن امام مدير كسلا سوى الرضوخ لنداء التسليم الذى وجهه له عامل المهدى فتم هذا في شعبان ١٣٠٢ (مايو ١٨٨٥) .

اما حامية سنار فقد ظلت حبيسة خنادقها لفترة لاحقة لسقوط الخرطوم حتى ارسل المهدى محمد عبد الكريم فتم له الاستيلاء على الموقع في جمادى آخر ١٣٠٢ (مارس ١٨٨٥) .

ومن ثم تفطن المهدى الى ضرورة تأمين منطقة شمال الخرطوم المتاخمة لحدود مصر والتي يمتد عبرها اسهل الطرق البرية والنهرية التي تربط بين البلدين . فأوكل لعبد الرحمن النجومي مهمة تعقب الحملة الانكليزية فسار الى المتمة وبقى فيها يتسقط اخبار الحملة . وفي يونيو من نفس العام قررت حكومة جلادستون اخلاء دنقلا . فأمر المهدى محمد الخير بالتوجه الى احتلالها فوقعت في قبضتهم لقمة سائغة .

نظم المهدى ايضا حملة بقيادة حمدان ابي عنجه استهدفت بعض قبائل جبال النوبه وجبال تقلى التي تمردت على سلطته .

لم تبلغ انتصارات الانصار ذروتها اذن في السادس والعشرين من يناير - كما يتبادر الذهن في اول وهلة بل تم لهم هذا بعد خمسة اشهر من هذا التاريخ . فبعد ذلك الحين لم تسقط الخرطوم فحسب بل امن لهم سقوطها امكانية الاستيلاء على كل المراكز التي لم تزل تحت سيطرة الحاميات ، وقد انقلب الانكليز على اعقابهم عائدين من حيث اتوا . وبدأ المهدى يتطلع الى بسط نفوذه وسيطرته على مناطق خارج حدود البلاد . وعاد مرة اخرى الى ممارسة استراتيجيته الاعلامية التي درج عليها في نشر الدعوة عن طريق المنشورات العامة والرسائل الخاصة . فكتب خطابا الى الخديوى وآخر الى اهالي مصر وزود دعاته بالوثائق فاخذوا يجوبون بلاد العرب من مشرقها الى مغربها في محاولة للخروج بالدعوة الى نطاق يشمل العالم الاسلامي بأكمله .

المصـــــــادر

مصادر أوليـــة :

أ : مخطوطات دار الوثائق المركزية ، الخرطوم

Board of Officers headed by Muhammad Nushi Pasha,
The Life of Gordon Pasha in Khartoum,
Ramadan 1303.
Egyptian Intelligence, Class I, Box 3/20

ابراهيم البورديني ،
تقرير عن حصار الخرطوم وسقوطه
٢٠ اغسطس ١٨٨٧
Egyptian Intelligence, Class I, Box 10/52

عبد الرحمن النجومي ،
مخطوط النجـــومي ،
Mahdia Class 8/ Box 4.

محمد خالد زقل ،
مجموعـة زقـل
Mahdia Class 8/ Box 4.

.../...

افراد من الجنود والمدنيين ،
تقارير واشادات عن حصار الخرطوم و نار

Egyptian Intelligence Class I Box 8/54.

ابو سليم ، م ٠ أ ،
معلومات عن تاريخ مدينة الخرطوم
(غير مصنفة وغير مرقمة)

دوائر رسمية ،

A Handbook of Khartoum Province

(غير مصنف وغير مرقم)

Leverson, J.,
- Insurrection of the False Prophet
Egyptian Intelligence, Class I, Box 8/3

Col. Fraser,
Report on the Relief of Khartoum,
30.4.1884.

Egyptian Intelligence, Class I Box 8/4

مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية - جامعة درم

نصيحة العوام للخاص والعام

Box 98/4 ٢٠ رمضان ١٣٠١

اسماعيل بن عبد القادر ،
سعادة المستهدى في سيرة الامام المهدى .

Box 99/6

عوض الكريم علي المسلمي ،
الفيوضات الوهبية لصاحب الخلافة المصطفية
محمد المهدى المنتظر

Box 98/5

مقالات لم تنشر :

Parr, M.W., " A Rough Outline of the History of Gordon Notes "
Box 424/10

Tarttelin, B, " The Gordon Currency Notes "
Box 424/10

Hill, R., " Gordon's Steamers "
unclassified

Public Records Office, London

Official Papers Egypt FO 78
Cromers Papers 633.
Granville's Papers G/D 29.

British Musuem

Gordon, C.G.,
The Journals of Gordon at Khartoum
Add.MSS 34473-9

Gladstone Papers, Add. MSS. 44176, 44547.

Hansard Parliamentary Debates. 1884.
State Papers Vol.42. (Egypt № 1,5,6,12).

قسم السودان ، مكتبة جامعة الخرطوم

محمد نعمتي باشا ،
جورنال الحوادث
(غير مصنف وغير مرقم)

عثمان دقنه ،
دفتر وقائع عثمان دقنه ، غ.م .

مكتبات خاصة

ابراهيم البورديني ،
تقرير عن حصار الخرطوم وسقوطه
٢٠ اغسطس ١٨٨٧

(بروفسور ب . م . هولت)

يوسف ميخائيل ،
تاريخ حياتي
١٩٧٤/١٢/١٥ (بروفسور ب م . هولت)

ب : مطبوعات

محمد احمد المهدى
- منشورات الامام المهدى

" " " الجزء الاول ، ديسمبر ١٩٦٤ الطبعة الثالثة
" " " الجزء الثاني ، يوليو ١٩٦٤ "
" " " الجزء الثالث الاحكام والاداب يوليو ١٩٦٤ الطبعة الاولى

.../...

نعوم شقير ،

جغرافية وتاريخ السودان   دار الثقافة بيروت (١٩٦٧)

ابراهيم فوزى ،

السودان بين يدي غوردون وكتشنر

المؤيد ، القاهرة (١٣١٩ هـ)

بابكر بدرى ،

تاريخ حياتي   مطبعة مصر ، الخرطوم (١٩٦١)

محمد عبد الرحيم ،

النداء في دفع الافتراء ، المقطم (١٩٤٦)

Cuzzi, G.,
15 Years Prisoner of the False Prophet
(English, Translation , Khartoum , 1967)

Hake E. ., The Journals of Major-Gen. C.G. Gordon, C.B., at Khartoum, London (1885)

Ohrwalder, J., Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp
1882 - 1892 , London (1892)

Slatin, R., Fire and Sword in the Sudan
London, 2nd Ed. (1896)

<u>المصادر الثانويـــة</u> .

Allen, Gordon and the Sudan, Macmillan and Co., London (1931)

Cromer, earl of, Modern Egypt, Macmillan and Co., London (1908)

Dictionary of National Biographies, Oxford, (1900).

Elton, L., General Gordon, London (1953)

Gailskell, A., The Gezira, A Story of Development in the Sudan, London, (1958).

Hill, R., Egypt in the Sudan, Oxford University Press, (1958)

— Sudan Transport, Oxford University Press, (1966)

— A Biographical Dictionary of the Anglo-Egyptian Sudan, Clarendon Press, Oxford, (1951).

Holt, P.M., The Mahdist State in the Sudan 1881-1898, Oxford Clarendon Press, (1958).

Shibeika, M., British Policy in the Sudan 1882-1902 Oxford University Press, (1952).

Wingate, F.R., Mahdiism and the Egyptian Sudan, Macmillan and Co., London (1891).

الشيخ احمد كاتب الشونـة ، تاريخ ملوك السودان ، تحقيق م. شبيكة ، الخرطوم (١٩٤٧)

سليمان كشـه — تاسيس مدينة الخرطوم الخرطوم (١٩٦٦)

دوريـــــــــات

The London Times

The Royal Engineers Journal

Sudan Notes and Records

Bulletin of School of Oriental and African Studies

الخــرطــوم